إقليم المفارقات

تسعة مظاهر من رجوعية الشرق الأوسط

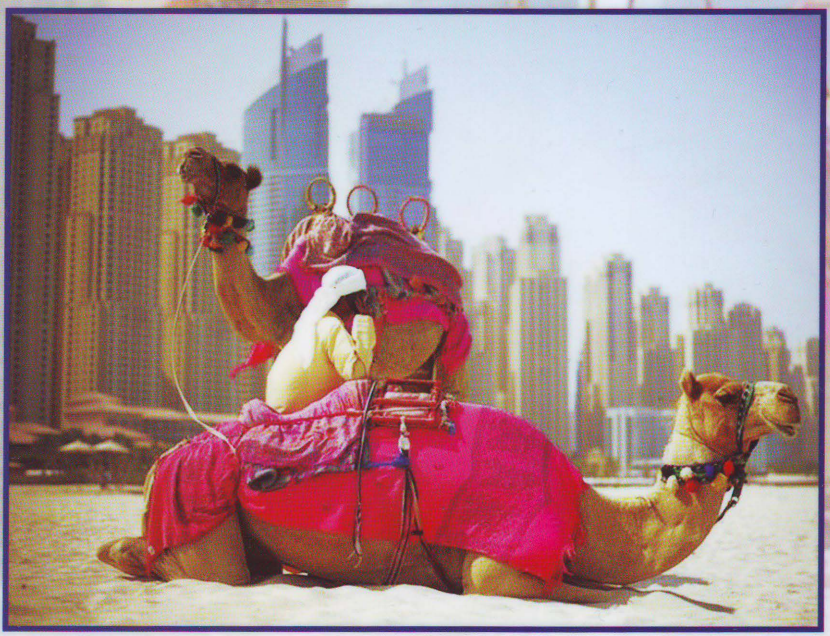

تأليف

أ.د. محمد الدعمي

الدار العربية للموسوعات

اسم الكتاب: إقليم المفارقات: تسعة مظاهر من رجوعية الشرق الأوسط

المؤلف: أ.د. محمد الدعمي

الطبعة الأولى: ٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-614-424-220-9

الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني - KHALED AL ANI

الحازمية - مفرق جسر الباشا - ستر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

إقليم المفارقات

تسعة مظاهر من رجوعية الشرق الأوسط

تأليف

أ.د. محمد الدعمي

لوجهك المشرق،

رفيقتي لقاء صاحب الورد

تمهيد

يشكل هذا البحث الموسوم (**إقليم المفارقات**) دراسة وصفية تحليلية ونقدية لبقاء وتواصل قيم وأنماط سلوك وطرائق حكم وبنى مجتمعات القرون الوسطى عبر أغلب دول الإقليم المعروف بـ«الشرق الأوسط». لذا لن تكون إفتراضيته الأساس صعبة المنال نظراً لأن المظاهر الفيزياوية المنظورة للحياة في دول هذا الإقليم، خاصة في المراكز الحضرية تغطي تعقيداً سكانياً مركباً لأقوام ما زالت عالقة بحلم العودة للعصر الوسيط. ونظراً لأن المظاهر الخارجية غالباً ما تكون مضللة خاصة في هذا الإقليم، يضطر المرء لتقشير الأغلفة الخارجية على سبيل معاينة وملامسة عدد من المفارقات المشحونة بالمعاني، محكات، التي يمكن تفحصها على نحو تفصيلي، محكات تؤشر علامات بقاء ثقافة العصر الوسيط التي ما فتئت تغذي وتدعم أطر تفكير رجوعية عابرة لتقلبات العصور ومتغيراتها المتنوعة لتصل إلينا اليوم على سبيل الدلالة على بقاء هذه الأطر الثقافية، عموداً فقرياً، ماسكاً بالبنى الإجتماعية الرئيسة وهي في حال من التحجر. إن المفارقات التسع المنتقاة عبر أقسام هذا البحث، بالرغم من إختزالها وإعتصارها الكثير من الدلائل والمعانى والإحتمالات تخدم لتأشير أعداد أخرى من المفارقات الثانوية المتشعبة من المفارقات

التسع الرئيسة التي تغذيها الأنظمة التربوية والثقافة الشائعة بمساعدة الإعلام على نحو متواصل وعابر للأجيال عبر تعقيدات ثقافية شائكة ومتداخلة عصية على الإحتواء ومن ثم الإزالة.

تشكل الفصول التالية تحدياً للقناعة التي تفيد بأن اشكال التمدن والمكننة المؤثرة بصرياً على أعين الناظر عبر حواضر الشرق الأوسط ليست مرايا تعكس تغيراً إجتماعياً حقاً وأصيلاً، لأنها تغلف بكثافة محركات رجوعية لم تزل تدور على أقصى سرعة في مجتمعات الشرق الأوسط، بالضبط كما كانت عليه حالها عبر القرنين الأخيرين.

ونظراً لإستفزاز شخصية الإقليم المنفصمة على الناقد الحذق، إستجاب الباحث بتتبع أسباب إخفاق هذه المجتمعات إلى الأدوار المركبة للبترودولار الذي يغذي أنشطة جماعات الإسلام الجديد Neo-Islam، أي الآيديولوجيات الدينية والراديكالية، بوصفها روافداً تغذي الذهنية الرجوعية التي تتحكم بمجتمعات دول الإقليم على نحو حكومات أبوية ترعى وتعزز هيمنة «الإكبارية» من كبار السن والفئات المحافظة من سدنة التقاليد القبلية والدينية المتوارثة.

لذا فإن الذهنية الرجوعية الوسيطة السائدة عبر الإقليم ليست حالة طارئة سرعان ما تزول؛ لأنها تمثل وتد التواصل، إذ إنها تدل على نفسها عبر قوتها المعيقة للتقدم والعابرة للحدود الإقليمية وللثقافات، فهي المسؤولة عن صنع وتشجيع ما يسمى بـ«المجاهدين»، من الإسلاميين الجدد المتحمسين الذين ردوا جميل الفئات الرجوعية عليهم عن طريق التجحفل من جميع بقاع العالم للإسهام في الزحف الكبير لتحطيم الحضارة الحديثة التي لا تبدو لهم حضارة سليمة. هم يشبهون برابرة الشمال المثلج الأوروبيين الذين حطموا حضارة روما في الأزمنة القديمة. هذه هي بربرية عصرنا. هي تركز على بقاع ساخنة للغاية

للعصف بها ولتأسيس موطئ قدم لها في كل واحدة منها على سبيل التوسع والتشعب في كل إتجاه. يمثل نموها المسلح حد الفأس الجارح، بينما يتحرك حدها غير الجارح على نحو خفي عبر قنوات مالية ومعاملات إقتصادية معقدة، ضرورية للىّ آلية «المال مقابل النفط» لتنقلب إلى آلية «المال مقابل الإرهاب»، متوجة العالم الصناعي، الذي يقايض النفط بالمال راعياً نهائياً أخيراً للإرهاب! هذه هي «أم المفارقات» الكونية، إن صح التعبير.

إن القارئ مدعو لأن يحتفظ بالآلية الدورية المبينة أعلاه في قعر عقله على نحو متواصل وهو يتنقل من مفارقة لأخرى عبر أقسام الشريط المسلسل لهذا الكتاب. على الرغم من أن بعض المفارقات تبدو مضحكة، بل ولا معقولة، فإن ما تسببه من إبتسامات على محيا المتابع لا ينبغي أن تنسيه حقيقة أن دراما الرجوعية الإقليمية إنما تصنف ضمن جنس «الكوميديا السوداء» في نهاية المطاف لأنها تتعمد إعطاء القارئ رجات وعي موجعة.

لا بد أن يلاحظ القارئ تكرار الإشارات لعراق ما قبل الإحتلال الأميركي (قبل ٢٠٠٣م) عبر «مفارقات» البحث. إن المطلوب منه هو أن يعذر هذا التردد العالي من الإشارات لعراق تلك الحقبة الزائلة تأسيساً على تجربة المؤلف المستطيلة (لحوالي ٥٤ سنة) في هذا البلد غير السعيد الذي وقعت عليه لعنته ثرواته ذاتها. ومع هذا، للمرء أن يلاحظ أن أغلب الحالات «العراقية» المرصودة عبر الكتاب تنطبق على الدول العضوة في أخوية «جامعة الدول العربية»، تلك الأخوية المزيفة المتشكلة من أغلب حكومات الإقليم التي تشترك مع الأنظمة العراقية الرجوعية المتتالية في العديد من الأنماط السلوكية والمصالح المشتركة والصفات المتطابقة. ولا يقل أهمية عن ذلك، نلاحظ إستثناء «إسرائيل» من

هذا البحث. ويمكن تبرير هذا الإستثناء تأسيساً على ضعف معرفة المؤلف بها بسبب العقود المتعددة لإنعزال إسرائيل عن فضاء العرب والمسلمين الأشمل، إضافة على آثار المقاطعة والحروب المتعددة. يتمنى المرء قبول القارئ إعتذار المؤلف لهذا النقص في البحث المهم، ذلك إن إكمالاً لفكرته الأساس، مع تضمين إسرائيل، هو جهد يمكن أن يتحقق في المستقبل.

أدين بالشكر والعرفان لحبيبتي «لولو»، زوجتي الجميلة، لقاء صاحب الورد، التي طالما دعمت مشاريعي الفكرية بأنشطة إبداء وتبادل الآراء؛ كما أنها عملت معي، خطوة فخطوة، عبر مراحل تأليف هذا الكتاب جميعاً، زيادة على إضطلاعها بطباعة مقالاتي الثلاث التي تظهر أسبوعياً في صحيفة (الوطن) الغراء الصادرة في سلطنة عمان لأكثر من عشرة أعوام. هي لم تخذلني قط لأنها، كما أظن، تجسد «الجمال الفكري» الذي تغنى به الشاعر الإنكليزي «شيلي» Shelley. الشكر موصول لولدي «حيدر» وزوجته الجميلة «روى زهير العبوسي»، ولولدي «علي» ولزوجته الجميلة «ميس محمد الشمري»، نظراً لتشجيعهم المتواصل لصاحب هذه الأسطر.

محمد الدعمي
بيوريا، أريزونا
الولايات المتحدة الأميركية

الفصل الأول

المقدمة

أم المفارقات: على أعتاب حلم عبثي

يا للرب، لي أن أُحبس في غلاف جوزة، فأعد نفسي ملكاً على فضاءٍ لا حدود له... ولكن لولا كوابيسي.

❖وليام شكسبير

حاولت في هذا البحث، كما فعلت عبر العديد من كتبي ومقالاتي، أن أميط اللثام عن الأوضاع المحبطة لدول الشرق الأوسط (شعوباً وحكومات)، تلك الدول المأسورة بماضٍ طللي متناه إليها من القرون الوسطى، ماضٍ غير قابل لإعادة الإنتاج ولا للمحاكاة لعدد من الأسباب والعوامل المتنوعة، منها الداخلية ومنها الخارجية. يتجسد أقوى هذه الأسباب وأكثرها فاعلية في تراجع روح المبادرة الإبداعية بين أقوام الإقليم في مقابل تقدم روح المحاكاة التي تهيمن على هذه الأقوام في عالم تنافسي لا مجال فيه للسلبي والمستكين غير القادر على المبادرة والخلق. وعلى نحو أكثر تبسيطاً لمباشرة وتطوير جدلي، أفترض هيمنة حلم معيق مستوحى من القرون الوسطى، حلم يحظى بإدامة الفئات المستفيدة من بقائه وتواصله على نحو لا نهائي درجة قرنه ببقائها وتواصل نفوذها. إذا لم تحرر أقوام الشرق نفسها من هذا الحلم الذي له

تأثير التنويم المغناطيسي، فإنها ستبقى حبيسة بدائرة لعنة سحر أسود مغلقة، كتلك اللعنة الأبدية التي وقعت على سيزيف في جهده العبثي لإنجاز ما يستحيل إنجازه. لا يقصد من هذا الجدل إدانة الطبقات الحاكمة والمتنفذة في دول الإقليم لأن ترويضها لشعوبها هو، في حقيقته، جزء من تلك اللعنة التي توارثتها هي الأخرى ووقعت ضحية لها. لقد غدا الحلم المعيق هذا أسلوباً معتمداً للحياة، أسلوباً يمكن تبريره وتمريره والدفاع عنه كواحد من أعمدة الإستقرار القديمة، عمود يمكن تقديمه وبهرجته، أسلوب حياة متفوق مقارنة بالأساليب المعتمدة بين الأمم والدول الأخرى. يكمن المأزق الحقيقي في الضوابط الإجتماعية القوية والمقاومة للصدمات والرجات التي تدعمها أطر سياسية إجتماعية قديمة شاخت حتى عجزت عن الحركة والتطور بسبب ضمها لدين مقدس ولتقليد عتيق يتجذر في قيم البداوة الصحراوي الجاف. لذا يشكل الإقليم لغزاً لا يمكن أن يُحل بسهولة بالنسبة للعالم الحديث بأسره، خاصة وأنه يمسك بنسغ حياة العالم الصناعي (النفط) بيد، بينما يمسك ببعض من أكثر أسلحة الدمار الشامل فتكاً باليد الأخرى؛ وأقصد بذلك السلاح الإرهاب الذي صيّر الإستجابة للتغير ومحاولة تحرير أقوام الإقليم من الغلاف المتحجر الذي أولجت فيه لقرون من ضروب المستحيل، برغم ضربات مطارق الجديد والشجاع القوية والمتعاقبة على ذلك الغلاف.

إستوحيت الفكرة الأصل لهذا البحث من إستذكار وفحص عدد من المحكات والمحطات المهمة والمفارقات المشحونة بالمعنى ذات القيمة الخاصة من أجل التحقق من «إفتراضية الحلم» التي تكونت أصلاً من ذات الإستفهامات التي أرقت وأربكت أساطين النهضة العربية الإسلامية قبل أكثر من قرن ونصف. هي إستفهامات يقصد منها إلقاء الأضواء على أسباب حفاظ أقوام هذا الإقليم على موقف رجوعي متخلف مقارنة

بالأمم المتقدمة السائرة نحو المستقبل الزاهر؛ كما يقصد منها إيضاح الكيفية التي يخدم الماضي الوسيط بموجبها عاملاً من عوامل الإعاقة التي تواشج الحاضر والمستقبل بمنظومة عجلات كبيرة متعشقة ببعضها البعض لتدوير آلية كبيرة قوامها منظومات ثانوية من العجلات المتعشقة كذلك لتشكل مع المنظومة الأولى آلية عملاقة معقدة لأنها تدور بواسطة محرك أساس ذي طبيعة أسطورية مضموم في دواخل النفس الجماعية التي تتردد إلى ذلك «الماضي المجيد» المفترض حتى إستحال التاريخ إلى عامل إعاقة بسبب إجتثاثه لملكة الإبداع وتغذيته لملكة المحاكاة. لقد أطفئ ما ينبعث منه من شعاع الماضي، فبدلاً من إحالته إلى دافع للتغير أو قوة للتقدم، تجاوز الحلم تيقنات اللاوعي الجماعي ليغدو زنزانة خانقة.

يجد المرء أكثر الآثار المعيقة لهذا النوع من الحبس في ظلامية الماضي التي تجعل أقوام الإقليم تخشى الضوء وتختفي لتتجنب الإشعاع النابض بالحياة، ذلك الإشعاع الذي يحرك الركود والذي يفتح منافذ الهروب إلى الأضواء. لا ينبغي تفسير هذه الإستعارة المحبطة بوصفها تقييماً معيارياً سابقاً لأوانه، تقييماً يقدم من نقطة بداية جدل البحث لأن الحبس في الماضي الوسيط غدا مقبولاً، إن لم نقل مستحباً من قبل ملايين البشر الذين إعتادوه فاستمرأوه أسلوباً لوجود إجتماعي وسياسي بعد أن تم «تدجينهم» عليه.

وعلى سبيل النأي بالنفس عن تهمة «النقد غير البنّاء»، تأتي خطوة مهمة للأمام على سبيل مباشرة الجدل الرئيسي للكتاب لأنه يحيل الإنشاء إلى جهد وصفي في معظمه، أكثر من إبقائه إنشاءً عدائياً مشحوناً بإرادة سلطوية فوق نصية (من نمط الإحتجاج الإجتماعي)، إرادة ترنو إلى إطلاق التقييمات المعيارية وحث التغير على نحو قسري باتجاه مستقبل أفضل بشكل فضفاض. ليس هذا البحث بهجوم على أي فرد أو جماعة، لأنه

مرآة تعكس الذات بشيء من التفصيل لتمكين أقوام الشرق الأوسط وهؤلاء القائمين عليها والمهتمين بها، ليس فقط من رؤية الحقيقة، ولكن كذلك من إكتشاف أسباب التجاعيد والتشققات التي راحت تطفو بسرعة على بشرة مجتمعات الشرق الأوسط بسبب مرض داخلي عضال، على أغلب الظن.

وما دام جدل الصفحات الآتية غير مصمم لدحض أو لتشجيع أو رد آراء سابقة، فإنه لا يعتمد كثيراً على مواد نقدية معروفة سابقاً؛ فكما أشرنا أعلاه، ينطوي هذا البحث على جهد تأملي إرتجاعي. تعتمد صفته الإرتجاعية ذات الباحث وأصداء التجربة الفعلية المباشرة، أكثر من إستثمار جهود كتّاب أو مؤرخين آخرين، لإطلاق «تيار الوعي» على سبيل التنقيب بحثاً عما هو مهم بحق، مع إشارة خاصة إلى الإحتفاظ بصدمات الوعي المتواترة التي تساعد لبلوغ رسالة البحث النهائية عبر قياس وإختبار درجة تحمل القارئ الفطن.

نظراً لوقوع الإقليم في فخ رؤيا تاريخية رجوعية مثابرة على بناء الأسيجة وإقامة العوائق لمنع الجديد وحجب الشجاع، فإن للمرء أن يلاحظ، في هذا السياق، عواملاً تعتمد ذات الحبس الخيالي والرجوعي المذكور أعلاه. هذه هي العوامل التي تم تحديثها وتلميعها لإعاقة تقدم شعوب الإقليم، مرتدة بها إلى ماض وسيط يكتنفه الغموض وتلفه الغيمية، ماضٍ لم يزل منبعاً للجدل والخلاف برغم لا جدوى ولا معنى التحقق منه. في هذه الحال، لا يبقى الماضي أساساً للتيقن، كما يرنو الرجوعيون لتصويره.

نظراً لأن هذا الحبس الرجوعي، هو رؤيا قسرية موحدة تخترق الفرد بعمق منذ نعومة أظفاره، فإنه ينمو على نحو جماعي مع الجمهور منذ الوقت الذي ينشد فيه الأطفال في المدارس الإبتدائية أمجاد ماض

متلاشٍ، على ذبذبة عصا مدير المدرسة وهو يقود أوركسترا الحناجر الصغيرة الغضة التي تهتف بأعلى الأصوات، «موطني.. موطني»، نحو السماوات، علها تسمع من المنادي هناك لتحيل رؤيا الأجيال إلى حقيقة، ولكن عندما تكبر. ينبغي أن لا ننسى أهمية الحكايات والخرافات المنزلية التي يعدها الآباء والأمهات، عناصراً جوهرية للتربية والتنشئة «الصحيحة» للأبناء الواعدين. وسوية مع دروس «الدين» و«التاريخ» التي تحفر عميقاً في هذه الأذهان الفتية، تشكل رسالة السلالة الفقاعات الخانقة الأولى التي تحيط بالصغار منذ بواكير وعيهم وتفكيرهم. بل إن الأكثر إسهاماً في صناعة الرؤيا الخيالية، يتبلور في وسائل الإعلام التي تحتكرها الدولة أو الفئات الإجتماعية المتنفذة لتشكل وتقوي الأبعاد الخيالية للماضي الفردوسي، منتجة كتائباً من الحالمين الذين يقطنون المدن والقرى عبر وجود إجتماعي سائل وغير متيقن تختلط فيه الحدود درجة الضياع.

تشبه رجوعية الشرق الأوسط التي إفترضها كثبان رمال صحاريه، في كونها دائمة الحركة، لا تحسن عملاً، اللهم سوى «التصحر الثقافي» الذي يتبلور على نحو منظومات من المفارقات التي تفاجئ الرائي الأجنبي فتقدم له صدمات عنيفة من آن آخر ترغمه أن يتأمل البون الشاسع بين «روح العصر» والروح السائد في مجتمعات ودول الشرق الأوسط. لذا تتسع الفجوة الثقافية الناتجة على نحو مضطرد حد الإعاقة والوجع، خاصة في أزمنة الصدام أو مناسبات الإحتكاك مع الثقافات والحضارات التقدمية الأخرى.

حلم الأسلاف الذي يلاعب مخيلات أطفال المدرسة أعلاه، كما هي حال جميع الأحلام والكوابيس، لا يقدم نمط تطور معين لأنه يتشعب ويتمدد أحياناً، ثم لا يلبث أن يلتوي على نحو غريب ليتشكل من جديد فيطفو ثانية على نحو قوة مهيمنة تبقى تبني قلاعاً في الهواء

حتى يكتمل بناء عالم وهمي لا يلبث أن يغدو متاهة قوامها مجموعة من المفارقات، الرئيسة والثانوية التي تستحق الرصد والبحث واحدة فواحدة، علماً أن الأولوية ينبغي أن تعطى للمفارقات الرئيسة.

لا تمكن مناقشة منظومة المفارقات الهلامية التي نرصدها فيما يلي من صفحات دفعة واحدة بسبب تعقيدها وتواصل إستحالاتها وانشطاراتها رغم إمكانية تصويرها وعكس أبعاد تعقيدها بالكامل. لذا، لا بد أن يبحث رصدها عن محكات قابلة للبحث والتحليل على نحو منفرد بشيء من العمق والتفصيل لتمكين القارئ من تطوير فكرة حول «منظومة المفارقات»، لتكوين إنطباع عام عن تأثيرها المهيمن على الحياة والوجود الإجتماعي عبر دول الإقليم. وإعتماداً على المتاح من المواد وعلى قدرات المؤلف المحدودة، فرداً، تغدو هذه المحكات الأسس الوحيدة للتيقن المتاحة لتطوير جدل يستحق الرصد والمتابعة.

من بين المفارقات المتنوعة التي تستحق المناقشة بقدر تعلق الأمر بالشرق الأوسط، تتجسد أمامنا تنافسات القوى العظمى للهيمنة على الإقليم، ومنها التنافس الذي خذل أقوام الإقليم بسبب عدم منحه شخصية جغرافية متماسكة أو هوية ثقافية إستثنائية عندما إكتفت تلك القوى العظمى بدفع الإقليم إلى سلة واحدة، عنوانها «الشرق الأوسط»؛ بمعنى أنه «شرق» من بين «الشراق» الأخرى، الأدنى والأوسط والأقصى، التي دفعت بعيداً لتشترك في عقدة النقص التي تكونت في عصر بناء الإمبراطوريات الأوروبية البائدة.

لأن هذا العصر الكولونيالي (البريطانية والفرنسية، خاصة) لم يكن من نتاجات تفاعل سلمي أو تثاقف، فإن أثره السام على الإقليم ظهر بعد الحرب العالمية الأولى، اي عندما توجب على أقوام الإقليم الإتجاه إلى نخبها الثقافية في سبيل الإجابة عن سؤال مضنٍ، مفاده أي الطرق ينبغي أن

نسلك نحو المستقبل، ذلك المستقبل الذي بدا غائماً، يكتنفه الغموض في أجواء تفاعل الآيديولوجيات الأوروبية والبرامج السياسية المتنوعة. وقد تم إختزال السؤال بثلاثة خيارات، وهي: الإسلامي أم القومي العربي أم الإشتراكي. وقد زاد سقوط الدولة العثمانية المدوي الذي توافق مع إندفاع وهيمنة التفوق الأوروبي من عدم تيقن أقوام كان عليها إتخاذ قرار الإختيار التاريخي الصعب، الملخص بـ«ما العمل؟».

وكانت مشكلة اللاإستقرار واحدة من أهم معطيات النخب الفكرية التي ينقصها التيقن في إقليم مرتبك كهذا، الأمر الذي قاد إلى غياب التواصل في البناء التراكمي، أي البناء الذي إبتلعته دوامة دول الإقليم بسبب توالي حكومات غير مؤهلة للإدارة وأنظمة حكم متخلفة غير قادرة على إدامة تراكم خبرة متواصل في سبيل التقدم من مرحلة إلى أخرى في سياق مسيرة مستمرة، بلا تعثر، نحو التطور والتقدم.

واحدة أخرى من المفارقات المعيقة تجسدت في العلاقة المكهربة بين الدولة والنخب الثقافية، وهي علاقة تزداد تعقيداً لتتجسد في صيغة السلطة نقيضاً للثقافة. وقد كانت هذه واحدة من أكثر العلاقات إرباكاً وتوتراً لأنها تخضع شراكة الدولة مع الدين للإختبار. وهي الشراكة التي إعتمدها الطغاة الذين إستحوذوا على التاريخ الحديث للإقليم، خاصة وأنهم وظفوا الدين لمصالحهم، علماً بأنها شراكة تيسر ضم الإستبداد ذاته إلى طرائق الخالق نحو الإنسان. هنا يتم إستخدام الدين في صناعة وإدامة الإستبداد.

أما الأكثر إحباطاً وإثارة للهواجس وللمخاوف، فيتجسد في شراكة المنظورات وأنماط السلوك بين الحكومات والمعارضات، أي في الخلل الذي تشترك به الحكومة مع أحزاب وجماعات المعارضة في آن واحد. لذا إستحالت الآمال المعقودة على المعارضات خيبات بسبب سقوطها في ذات الأخطاء والإختلالات.

في مقدمة العوامل التي أدامت هيمنة حلم الأسلاف المعيق جاء التشكيل الغريب للأنظمة التربوية من المراحل الإبتدائية صعوداً حتى مراحل الدراسات العليا. هذه الأنظمة، كما لاحظنا أعلاه، تبذر بذور الرجوعية في تربة الطفولة الخصبة، ثم تحصد أثمارها المؤسفة في الجامعات، بل وحتى فيما بعدها من مراحل التنشئة. تخضع هذه المفارقة التربوية كلاً من الثقافة الشائعة ووسائل الإعلام لسطوتها في سبيل تكوين أطر خانقة توصد جميع أبواب الخروج من سلطة قيم العصر الوسيط وتقاليده الشائعة بين جميع شعوب الشرق الأوسط.

وأخيراً، يتجسد أمامنا رهاب الأجنبي والحساسية المفرطة منه، عائقاً، خاصة التحسس من التأثيرات الغربية، وهي حال يمكن أن تبرر إخفاق رؤيا تحرير أمم الشرق الأوسط من الغلاف القديم المتكلس الذي يلفها. وإذا كان قد تم إستفزاز هذا التعقيد بواسطة الإحتلال الأميركي للعراق سنة ٢٠٠٣م، فإنه قد أماط اللثام عن محركات لا واعية تدور عميقاً في دواخل النفسين الأميركية والرافدينية على طريق بلوغ رؤيا عالم جديد يتبلور من قلب الإبحار الكولومبي من العالم القديم إلى «العالم الجديد» في سياق مطاردة أسطورة جمعية أميركية ترنو إلى زواج الشرق من الغرب لولادة نوع جديد من البشر، لأن هذا الإقتران الثقافي لا يمكن أن يخلو من الثمار المهمة، خاصة بقدر تعلق الأمر بالمقاومة الإرتدادية التي جسدها الكتّاب والمؤلفون العراقيون من دواخل «الفضاء المؤنث» للأرض المحتلة، أي من العراق في هذه الحال. لا ريب في أن إستجابات هؤلاء الكتّاب مهمة في سياقنا هذا لأنها تجسد «الضوابط الثقافية» الكابحة على أوضح صورها، خاصة عندما توظف تلك الضوابط المرتكنة إلى ذات الحلم الوسيط، أداةً، لمقاومة وصد القوة الغربية الذكورية المهاجمة.

أما في الفصل الأخير الموسوم بـ«إنتصار الماضي»، فيتم غلق الدراسة بتقييم لآثار الحلم الوسيط على الطرائق التي يتم بموجبها إئتلاف وتفاعل البترودولار وحركات الإسلام الجديد المتطرفة في الشرق الأوسط من أجل سحب شعوب الإقليم إلى الخلف أكثر، باتجاه ماض طللي جامع لغبار الزمن، ماضٍ غير قادر على الإنتاج أو التجدد.

الفصل الثاني

المفارقة الأولى

التسمية: زي أوروبا الموحد

في السماء، ليس هناك فرق بين الشرق والغرب؛ فالبشر هم الذين يختلقون الفروقات من وحي عقولهم. ثم يؤمنون بها كمسلمات.

*بوذا

من الصعب أن يجزم المرء فيما إذا كان الفرد، أو مجموعة الأفراد الذين يولدون في إحدى دول إقليم الشرق الأوسط «المهمة» محظوظين أم لا. ولا يقل صعوبة إدراك المرء لماذا حرم هذا الإقليم الشاسع من جميع أسمائه التاريخية كي يقحم في «البدلة الجاهزة» التي جهزتها أوروبا له، أي تسمية «الشرق الأوسط»، فقد أطلق هذا العنوان على الإقليم من قبل ذهنية أوروبية كولونيالية مأخوذة بالتصنيف التعميمي الذي لا يخلو من دلالات النظرة المستعلية المنطوية على تقييم معياري دوني جارف. لذا فرضت هذه التسمية غير الدقيقة من الأعلى على أقوام متنوعة تقطن أراضٍ شاسعة تمتد من أفغانستان، شرقاً إلى ليبيا، وأحياناً إلى المحيط الأطلسي غرباً زياً موحداً، يتجاوز الخصوصيات الديموغرافية والطوبوغرافية. تؤشر هذه التسمية النزعة التعميمية الجارفة التي كمنت وراء ذهنية متعامية، إن لم نتطرق إليها كمرآة عاكسة لمفهوم

جيوستراتيجي تبلور فيما بعد. ليس «الشرق الأوسط» عنواناً تاريخياً ولا جغرافياً دقيقاً بدلالاته. هو عنوان كولونيالي بامتياز، بدليل أننا نلاحظ أن الإقليم يتسع وينكمش على نحو غامض، حسب رغبات المتكلم الغربي المتسلط وأغراضه، علماً بأنه يشمل (من الناحية التاريخية) أقواماً ولغات وأديان وثقافات لا يمكن قط أن تنبع من أصل إثني أو ثقافي واحد. لذا، فإن هذا العنوان، الشرق الأوسط، إنما هو عنوان مبهم، ذلك أنه عنوان سائل وتحجيمي لأنه يهمل خصوصيات ثقافات وأديان جماعات إثنية ودينية غير متجانسة. يخدم هذا العنوان فقط عين المستعمِر (بكسر الميم الثانية) التي تتيح لخيلائه نظرة مسح شمولية عامة عندما يريد أن يضع ضحاياه، بغض النظر عن متغيرات العنصر والدين واللسان في صنف تحجيمي خانق. لذا ينزعج الترك أو المصريون عندما يمزجون مع سواهم على نحو متعام كما هي عليه حال الفيتناميين والكوريين واليابانيين عندما تستفزهم دلالات عناوين من نوع «آسيويين» أو «شرقيين» التحجيمية.

تتجلى الإرادة السلطوية الكامنة خلف عنوان «الشرق الأوسط»، للعيان في حقيقة مفادها أن هذا الإقليم الشاسع الذي يمتد عابراً بين قارتين إنما يحرم (بهذه الطريقة) من بعض ميزاته المهمة التي بقيت ترادف أجزاءً منه لحقب عديدة، على أقل تقدير: عندما نتكلم عن الشرق الأوسط، فإننا نتجاوز، ضمناً، ترادفه مع عنوان «أرض الكتب المقدسة» ومع عنوان «مهد الحضارات». زد على ذلك تجاوز هذا العنوان شخصية الإقليم العربية الإسلامية السائدة عبر قلبه الجغرافي. لذا فإن هذه التسمية لا تنطبق على نحو دقيق مع رؤى بناة الإمبراطوريات الأوروبية الذين إتفقوا على هذا العنوان الشمولي نظراً لتوافقه مع الفكرة الأوروبية التمركز التي تملي «قياس» بقية أقاليم العالم

حسب طول المسافة الفاصلة بين تلك الأقاليم وبين «المركز»، أي بينها وبين بريطانيا وفرنسا، أي لندن وباريس.

ومن منظور ثان، يعكس خص هذا الإقليم الشاسع والمتنوع بمثل هذا العنوان التحجيمي، ذلك الخيلاء المبطون الذي كان قد إخترق العقل الأوروبي عبر العصر الذهبي للكولونيالية، لأنه كان بدرجة من التكابر والتحامل أنه وجد صعوبة في أن يعترف، ولو ضمنياً، بأن هذا الإقليم هو الذي منحه أهم صفاته المميزة، أي التقليد الديني اليهودي - المسيحي - الإسلامي السائد في أوروبا، اي التقليد الروحي للأقوام السامية الروحي، ذلك التقليد المؤسس على عقيدة التوحيد.

في الحقبة الذهبية لبناء الإمبراطوريات الأوروبية بدا من غير المعقول للذهنية الأوروبية المتغطرسة أن تعترف بدينها لشعوب الإقليم الخاضعة لها. وقد عكس الشعور بالتفوق تلك الدلالات المتحاملة. بل أن الأكثر لا عقلانية، بالنسبة لأوروبا، كان التسليم بالمديونية الثقافية التي ألقت الشكوك على القناعة الأوروبية القديمة المختزلة في الإعتقاد بأن أوروبا إنما هي كيان ثقافي مستقل وذاتي الإكتفاء[١].

لقد حاول ماثيو آرنولد Arnold (١٨٢٢-١٨٨٨م)، واحد من أذكى المفكرين الذين كانت بريطانيا الكولونيالية تقرأ لهم بشغف آنذاك، أن يحل لغز مديونية أوروبا لإقليم الشرق الأوسط، باحثاً عن ملجأ في سياق نظريته العنصرية الآرية، المستوحاة من «آرية» صديقيه (إرنست رينان Renan، والكونت غوبينو Gobineau) عبر مناقشة العناصر الآرية والسامية التي أسهمت في صناعة الحضارة الآدمية على نحو متواز. في كتابه الفذ (الثقافة والفوضى)، يحدد آرنولد تفاعل القوتين الفكريتين الرئيستين، «العبرانية» Hebraism و«الهيلينية»[٢] Hellenism، اللتين يفترض تنافرهما، باعتبار أن الأولى تمثل البعد ما بعد الطبيعي

metaphysical والثانية تمثل البعد الطبيعي physical، بوصفهما البعدين اللذين صنعا الحضارة الآدمية الحقة. بينما يمثل البعد الأول ميل الإنسان إلى الخيالي والغيبي، يمثل البعد الثاني ميله للفيزياوي الملموس والعقلاني والتجريبي، خاصة في حقول العلوم التطبيقية والمنطق والفلسفة. لا يمكن بلوغ كمال دائرة الحضارة الإنسانية إلّا عندما توازي الذهنية الروحانية للشرق الأوسط ملكاتها مع ملكات الذهنية الأوروبية المادية الدائمة الميل للعقلي والمنطقي، المادي والهندسي. إن قرن سجايا العقل السامي مع أقوام الشرق الأوسط السامية يجد تعبيراً قوياً له في إعلان رالف والدو إمرسون Emerson أن «الدين والشعر هما كامل حضارة العرب»[٣].

أما الكاردينال نيومان Newman، أذكى ممثلي حركة أوكسفورد التي إزدهرت في عصر بناء الإمبراطورية البريطانية الفكتوري، فإنه يبلور جدل آرنولد في الآري مقابلاً للسامي على نحو جدل رمزي عندما يرى كامل الحضارة البشرية وهي تدور حول مدينتين عظميين، هما: أثينا والقدس. بالنسبة لمفكر مبدئي ومتدين كنيومان، ليس من الصحيح إستبعاد الشرق الأوسط بلا إكتراث بوصفه أرضاً يباباً لا تنبت شيئاً. لذا تجده يقول في واحد من أفضل كتبه وكتب ذلك العصر برمته، (فكرة الجامعة).

بينما نرتجع إلى بلاد الإغريق وأثينا بمشاعر ملؤها المتعة والمحبة كي نلاحظ في تلك الأرض منشأ مدرسة الثقافة الفكرية، تجدنا نجاوز الحق فعلياً عندما ننسى أن ننظر جنوباً، لننحني لشعلة أكثر بهاءً، أمام مصدر أكثر قدسية وحقيقة، منبع نوع آخر من المعرفة... في فلسطين. القدس هي منبع المعرفة الدينية، كما أن أثينا هي منبع المعرفة العلمانية[٤].

يسلم كل من آرنولد ونيومان بالعطاء الروحي والأخلاقي لأرض الكتاب المقدس، رغم أنهما يربكان هذه الفكرة بغمسها في مياه

الإنحياز المسيحي والعصبية الآرية الباردة. الكاردينال نيومان، ذلك الرجل الكاثوليكي الحق الذي يقدم العلم الإلهي (القدس) على العلم البشري (أثينا)، بدليل أنهما الفكرتان المهيمنتان على مجمل جدله الديني في كتابيه (تصويرات تاريخية) Historical Sketches و(أبولوجيا) Apologia pro Vita Sua، المختص بتبرير إحتضانه الكاثوليكية وخروجه عن الكنيسة الإنكليكانية، إضافة على جدله في أهم كتبه على الإطلاق (فكرة الجامعة) .The Idea of a University ولكن رغم تداخل وتفاعل هذا الجدل الذكي كله، يتجلى الميل الأوروبي المقنّع لعزل شعوب الشرق الأوسط عن سجاياها الفريدة الخاصة عن طريق إقحامها في سلة واحدة عبر خلاصة بنجامين دزرائيلي، رئيس وزراء بريطانيا حقبة ذاك، بقوله: «ما العرب سوى يهود يمتطون ظهور الخيول، وجميعهم شرقيون في الجوهر»[٥]، ممهداً الطريق للنظرة الكولونيالية السامة التي تستعرض كامل الإقليم فضاءً مفتوحاً لألعاب قوى الهيمنة الإستحواذية. قد يكون هذا هو منبع قراره، رئيساً لوزراء بريطانيا، شراء أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥م. لم يستثن الميل الجارف لتصنيف جميع أقوام الشرق الأوسط لوضعها في فصيلة واحدة مفكرين تقدميين مثل كارل ماركس Marx ورفيقه أنجلز Engels، بملاحظة الأول أن «اليهود أنفسهم لم يكونوا سوى قبيلة بدوية، كالآخرين»[٦]، مضيفاً «ثمة علاقة عامة يمكن الإستدلال عليها بين جميع القبائل الشرقية، بين مستقر جزء واحد من القبائل وحياة البداوة التي يحياها الآخرون»[٧]. بينما خص رجال مثل آرنولد ونيومان الصفة العبرانية للأقوام الشرق أوسطية بالإهتمام والتثمين، عمد كارل ماركس إلى رفض نزوعها الروحي، عائقاً، باعتبار «أن الدين هو أفيون الشعوب»[٨]. لا ريب في أن فكرة ماركس عن الشرق الأوسط تتلخص في أنه إقليم شاسع من الصحارى الجرداء تقطنه قبائل من

البدو الرحل من العنصر السامي. تناقض هذه الفكرة إعتداد شعوب الشرق الأوسط بأنها تشترك في تقاليد ثقافية متشابهة وبأنها تستقر في ذلك الجزء «المبارك» من الأرض التي يفوح بالروحانيات التي أحاطت بظهور الأديان المنزلة الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، أي الأديان التي يفترض أن تغلق قصص الديانات والعقائد الكثيرة التي أشاعها معلمون وأدعياء نبوة سابقون من هؤلاء الذين إستجابوا لبحث إنسان الصحراء عن أساس للتيقن عبر الخلاء اللازمني اللامحدود للصحارى، غير واعٍ بالمخزونات الهائلة للنفط الممتدة تحت كثبان الرمال المتحركة. إن رسل الله والأنبياء والمعلمين الروحيين المذكورين في الكتب المقدسة والتواريخ التي خطها شيوخ المؤرخين في العصر الوسيط تضع القارئ الحذق أمام سؤال محير، وهو: لماذا تم توجيه هذا العدد الكبير من الأنبياء، زيادة على المعلمين الروحيين إلى هذه الأقوام التي تقطن هذا الإقليم بالذات، وليس إلى سواها من الأقوام في بقاع الأرض. هل كان هؤلاء المرسلين رموزاً لغضب الرب، يعبرون عن نفاد صبره مع هذه الأقوام «المتمردة» التي كانت بدرجة من العنت والعصيان أنها لم تستجب للفضائل الدينية وللإصلاح الأخلاقي من ديانة أو رسالة واحدة. تشير المصادر التاريخية العربية، زيادة على القرآن الكريم، إلى عشرات الرسل الذين بعثهم الله، ناهيك عن الفرضية (أو الأسطورة) القائلة أن آدم وحواء قد وجدا نفسيهما في موقع ما جنوبي وادي الرافدين بعد سقوطهما من الجنة، باعتبار أن بلاد الرافدين كانت حقبة ذاك «جنة عدن» حسب المصادر الإغريقية والرومية، كما لاحظنا ذلك في ملحق كتابي (الإستشراق: الإستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي).

تطلق أية إشارة إلى «جنة عدن» في المصادر الإنجيلية والأوروبية القديمة للمرء رؤيا لجنوبي وادي الرافدين في تلك الأزمنة كـ«حديقة»

غنّاء خصيبة، مثالية لبدايات الحضارة الإنسانية، لأنه واد مسطح كبير تخترقه الأنهار الدائمة الغزيرة لتشكل مع فروعها وروافدها شبكة سقاية طبيعية بين النهرين العظيمين، دجلة والفرات، اللذان بقيا يحملان الطمي بتيارهما من جبال هي ببعد أرمينيا والأناضول وكردستان إلى بلاد الرافدين منذ اقدم الدهور من أجل أن يزدهر الإنسان ويبدع. تتواشج تواريخ بلاد الرافدين مع تواريخ الوديان الخصيبة الأخرى كالنيل والسند، مع إشارة خاصة إلى العلاقة المتوترة وغير المستقرة بين الإنسان والماء. أرض الرافدين حاضنة مناسبة للإنسان، خاصة وأنها تجدد خصبها وحيويتها موسمياً بواسطة الفيضانات المدمرة التي صنعت التاريخ والإنسان هناك، عندما حاول الأخير السيطرة على فائض المياه لتذليله للوجود الإجتماعي المستقر كي تزدهر حضارة الإنسان، فينتقل من طور جمع القوت إلى طور إنتاج القوت. لقد وجد الإنسان الصياد أن من الأفضل له أن يستقر ويزرع الأرض مقارنة بالبقاء جوالاً يبحث عن العشب أو الفرائس. لذا ظهرت أول المستقرات الرافدينية في تاريخ البشرية: أول قرية وأول مأوى عائلي وأول قوس بناء وأول عجلة وأول ملحمة أسطورية وأول قطع أراضي زراعية. ولا تقل أهمية عن ذلك كله، كانت أولى الأدوات التي تطورت (على أغلب الظن) من تحويرات أدوات العصر الحجري التي سبق أن كانت تنحت من الصخور. بينما فعلت تلك القرى الأولى فعلها في جذب البشر صوبها، فإنها سرعان ما راحت تتوسع جغرافياً وسكانياً متحولة إلى نوى لدويلات المدن الأولى التي إتسعت بسرعة درجة ظهور الحاجة للتشريعات والقوانين في سبيل تنظيم الوجود الإجتماعي الحضري الأكبر. لذا ظهرت أولى لوائح القوانين التي جمعها حمورابي في مسلة، الإمبراطور البابلي العظيم الذي سبقت قوانينه جميع لوائح القوانين في التاريخ. أما بالنسبة لدويلات المدن المذكورة أعلاه، فقد دخلت في مرحلة حروب

تنافسية فيما بينها من أجل التوسع والضم، الأمر الذي يضطر الباحث إلى التساؤل فيما لو أنها كانت أولى أشكال المناطق المحمية بالميليشيات التي ما فتئت تطفوا على صفحات تاريخ الشرق الأوسط مذاك.

كانت بلاد الرافدين أرضاً معطاءً سعيدة حيث مد الإنسان الجسور بين الأرضي والسمائي، اي بين الجسدي والإلهي، ذلك أنه لم يكن من المستحيل أن يتردد الرجل الأرضي على الإلاهات الساكنات على قمم الزقورات في زيارات ليجامعهن فيستولد أنصاف آلهة منهن، مثل «جلجامش» الذي أنشئت أول قصيدة ملحمية في التاريخ على فكرة تطلعه للخلود.

كانت ملذات هذه التجارب الحميمية بدرجة من القوة أنها جعلت الرافدينيين يقطعون نصف المسافة بين الإنسان والإنسان الخارق. والحق، فإن هذا هو المفهوم الجوهري لفكرة «ملحمة جلجامش» التي تسرد قصة بحث ملك أوروك السومري البطولي عن عشبة الخلود عميقاً في مياه الأهوار جنوبي بلاد الرافدين، حيث يقيم عرب الأهوار (أو المعدان) اليوم[٩].

خدمت علاقة الإنسان المتوترة بالماء، برغم عنفها وقدريتها أحياناً، حجر الزاوية للحضارات القديمة التي إزدهرت في الشرق الأوسط، ومنها حضارات مصر وسوريا وفارس وآسيا الصغرى وفلسطين واليمن، إضافة على حضارة بلاد الرافدين. لقد شهدت السهول الرسوبية الخصبة أوائل أشكال بناء الدولة، إن لم نقل بناء الإمبراطورية في بلاد الرافدين، حيث تم إكتشاف القوس للبناء لأول مرة كي تبدأ العمارة العضوية[١٠]. لقد إعتمدت الحضارة الرافدينية على الطين، الطين المشوي؛ بينما هي إعتمدت في أودية النيل والسند على مواد أخرى أكثر صلابة وقوة كالصخر الذي خدم مادة أساس للبناء، نظراً لتوفره في الجبال المجاورة.

وهكذا بدأ فن العمارة الأساس ينمو من أجل حضانة أنشطة الإنسان الإجتماعية وتأملاته الروحية. في مصر بقي تفاعل الثقافة والعمارة صلباً حتى يومنا هذا، متمثلاً بالأهرامات، بينما هو إستجاب لقوى تتابع الزمن والحروب والتعرية المدمرة عبر حضارات الطين الرافدينية، إذ تداعت صروح العمارة التي رمزت لتطلع الإنسان إلى السماء. لم يبق شيء ماثلاً من الزقورات أو من جنائن بابل المعلقة من أجل أن نتفحصه ونعجب به اليوم، عدا عدد من التلال الترابية المتوزعة هنا وهناك. تكمن المفارقة في أن الأهرامات، رموزاً للعبودية أي لعمل السخرة الذي فرض على أسرى الحروب، برهنت على أنها أكثر قدرة على البقاء كي يشاهدها السائح في الشرق الأوسط حتى اليوم، بينما ذهبت جنائن بابل المعلقة مع الريح، رموزاً للاجدوى آمال الإنسان وفناء فنون السلام. أما جلجامش، الرمز الأول للإستبداد، فلم يترك أثراً، باستثناء عدد من الرقم الطينية المنقوشة بالمسمارية التي يصعب فك شفرتها، رغم أن المتبقي من نص ملحمته يجسد تراث الطغيان الذي تأسس في الرافدين عندما حاول جلجامش أن يكون رجلاً خارقاً، معبداً الطريق لسلسلة متواصلة من الطغاة القساة مذاك. لذا ارتبطت تشكلات الطاغية المبكرة، إلهاً أو نصف إله، بالصروح المرتفعة كما كانت عليه الحال بالأهرامات في مصر والزقورات في الرافدين، كناية عن آصرة الإتصال بين الطاغية الأرضي وبين إرادة السماء، الكامنة هناك فوق السحاب. وبالمناسبة، تشير الأساطير إلى حكاية تفيد بأن الإمبراطور الكلداني، نبوخذ نصر، حاول التحليق في السماء عالياً بالقرب من فضاء الإلهية. لنلاحظ، في هذا السياق، أن الكلدانيين هم الذين اسسوا الفلك والأبراج، من الناحية التاريخية.

تنبع المفارقة من حقيقة أن الإمبراطوريات الحديثة قد تجاوزت

الحضارات القديمة العظيمة (السومرية والأكدية والبابلية والكلدانية والآشورية والمصرية) لأن الأخيرة حضارات طللية مندثرة ومنسية ولأنها غدت موضوعات تواريخ جامعة لغبار الزمن. وهكذا، طمس العنوان التعميمي الدوني، «الشرق الأوسط»، أسماء جميع هذه الحضارات.

إنه لمن الطريف أن نلاحظ أن بقايا العمارة الطللية العملاقة من هذه الحضارات القديمة قد وظفت من قبل الرسامين المستشرقين على نحو يهدف إلى التجسيد الصوري للتناقض بين الإنسان الشرق أوسطي المعاصر المقزّم عمداً، وبين صروح الفن والعمارة العملاقة القديمة، إذ يظهر الرعاة وراكبو الجمال المعاصرون في هذه اللوحات الفنية صغار الحجم، خاصة عندما يصورون بالقرب من آلهة نينوى المجنحة العملاقة التي نحتها أجداد هؤلاء الأفراد المقزمين اليوم. إن الميل الأوروبي الإستشراقي لتحجيم أفراد شعوب الشرق الأوسط الآن إنما تجلى على نحو موافق للفكرة الدونية التي أدامتها وأشاعتها الذهنية الإمبراطورية الأوروبية؛ إذ إنها تطفو، على نحو تنقصه الكرامة الإنسانية، على صفحات المرتحلة هاريّت مارتنو Martineau ضمن كتابها (الحياة الشرقية: حاضراً وماضياً) ١٨٤٨م، حيث تطلق هذه الكاتبة الإنكليزية العنان لأمنيتها الغريبة في أن يبتلع فيضان النيل جميع المصريين المعاصرين الذين كانت تشاهدهم في سياحتها، لأنهم (حسبما ترى) لا يمكن قط أن يكونوا أحفاد المصريين القدماء. برأيها، ينتمي المصريون القدماء لعنصر إثني مختلف عن عنصر المصريين المعاصرين. لذا تجدها تقتنص كل فرصة سانحة من أجل لوم الإسلام لأنه، برايها المتحامل، هو الذي جمّد المصريين في حال متواصلة من «الطفولة»، غير قادرين على النمو والإرتقاء إلى مستوى أسلافهم القدماء[١١].

لم تتجسد هذه الفكرة الدونية عن شعوب الشرق الأوسط في أدب

الرحلات فقط، كما جسد كتاب مارتنو أعلاه ذلك، إذ إنها إستقرت في قعر العقل الأوروبي عندما قرر تقسيم الإقليم على نحو إعتباطي عبر إتفاقية «سايكس/ بيكو» السيئة الصيت التي أمضاها وزيرا خارجية بريطانيا وفرنسا سنة (١٩١٦م) لتفتيت الإقليم وإضعاف شعوبه كي تكون سهلة الإنقياد أو الإدارة: هكذا تم «تقريم» بلاد الرافدين وإعادة إنتاجها إلى «العراق»؛ أما سوريا (وهي أصلاً كامل الإقليم الممتد بين الفرات وسواحل البحر المتوسط)، فقد تحولت إلى دولة سوريا اليوم، بعد أن فصلت لبنان وإمارة شرق الأردن عن بلاد الشام الكبرى The Levant. أما فلسطين (التي كانت أراض لممالك الكنعانيين ويهودا وإسرائيل)، فقد وضعت تحت الإنتداب البريطاني. وقد تحولت بلاد الأناضول التي كانت تشكل قلب الإمبراطورية العثمانية، إلى جمهورية تركيا الحديثة، بينما تجزأت شبه جزيرة العرب إلى المملكة العربية السعودية واليمن ودول الساحل الغربي للخليج العربي. وقد عادت بلاد فارس للظهور بوصفها دولة «إيران»، بينما تم تفتيت كردستان الكبرى بين دول تركيا وإيران والعراق وسوريا حتى إختفت كلية. أما مصر والسودان، اللتان شكلتا إمتداداً جغرافياً وسكانياً واحداً بفضل نهر النيل، فقد تشظتا إلى دولتي مصر والسودان، والآن، دولة جنوب السودان. وكنتيجة، نزعت عملية التقسيم هذه عن أغلب شعوب الإقليم شخصياتها المتفردة في سبيل إقحامها سوية في تلك السلة المعروفة بـ«الشرق الأوسط» على نحو إعتباطي ومهلهل.

وكما لاحظنا أعلاه، وجدت الذهنية الكولونيالية الأوروبية التي أرفقت تطلعاتها الإستحواذية بحملة كبيرة للتنقيب عن آثار الحضارات القديمة العظمى عبر الإقليم، انه من غير المقبول للتمرير على الخيلاء الأوروبي هو تأسيس آصرة عمادها التواصل غير المنقطع بين حضارات

الأقوام القديمة التي كانت قد بنت تلك الحضارات الأولى، وبين شعوب الشرق الأوسط المستضعفة في العصر الحديث. وعلى نحو مناقض لما جرى في أوروبا، وبينما كانت هذه الآصرة مقبولة ومجازة مع اليونانيين والإيطاليين المعاصرين، بوصفهم سليلي قدامى الإغريق والرومان، لم يكن من المقبول قط التفكير بسكان العراق ومصر وفارس وسوريا وفلسطين، على سبيل ذكر القليل من اقوام الشرق الأوسط العريقة، شعوباً من ذات الدم الذي كان يجري في عروق أجدادهم القدامى. هنا تتصاعد قناعة مارتنو، المذكورة أعلاه، حول وجود عنصرين إثنيين مصريين، القديم والمعاصر، درجة بغضها المصريين المجايلين لها بسبب الإختلاط السلبي الذي تمثل بسريان الدماء العربية في العروق القبطية، حسب رأيها.

كان القرن التاسع عشر، هو العصر الذهبي لأسطورة التفوق الآري بحق. بقي هذا الشعور الذي يفيد بتواصل إثني/ ثقافي منقطع عن العالم، ثابتاً في قاع العقل الأوروبي، بعد أن عززته التجربة المباشرة للمرتحلين كما كانت عليه الحال في كتاب السير أوستن ليارد Layard الموسوم بـ(نينوى وبقاياها)، ١٨٤٩م. في هذا السياق، يقص هذا المنقب الآثاري «الرائد» على القارئ كيف أنه قد تقمص شخصية ابوية قوامها المدافع عن نسوة مساعديه ومستخدميه من الشغيلة المحليين الفقراء الذين كان يستأجرهم للعمل[١٢]. لذا، تجده يطلق يديه في معاقبة هؤلاء الرجال المساكين المأجورين بالضرب. وهكذا، تتجسد المفارقة نصف الأوروبية ونصف الشرق أوسطية، ذلك أن هذا المدخل المتعالي في التعامل مع شعوب الشرق الأوسط يتعمد قطع حبل الصلة بينها وبين تراثها القديم البديع، أي بينها وبين التواصل التاريخي بحد ذاته. كانت هذه الفكرة، الممررة على نحو ملتوٍ، فكرة أساس من منطلقات الخطاب الكولونيالي

الأوروبي الذي أراد ضم أو فرض الوصاية على الأقوام «غير الناضجة» و«غير المتحضرة» التي بدت للأوروبيين بحاجة للإرشاد لأنها تحررت متأخرة من هيمنة «الرجل المريض»، أي الدولة العثمانية. وقد خدم فصم الصلة مع تراث هذه الشعوب الثر القديم تبريراً لممارسة السلطة الكولونيالية عليها.

إن الحرية التي منحها العقل الأوروبي لنفسه عندما أطلق عنواناً تحجيمياً على هذا الإقليم الشاسع مشحونة بدلالات ذات صفة أبوية سلطوية متعالية على نحو يذكر المرء بما يفعل الآباء عندما يمنحون أطفالهم أسماءً عند ولادتهم. ليس هناك تعبير عن هذا الميل للتعالي أكثر وضوحاً من إدعاء المستشرق الشهير برنارد لويس Lewis بأن «التأثير الأوروبي والسلطة الأوروبية وأخيراً البحث العلمي الأوروبي وحدهم الذين أقنعوا سكان آسيا وإفريقيا بأنهم آسيويون وأفارقة»[١٣]. هذه اللغة تعني أنه ما دامت شعوب الشرق الأوسط بلا شخصية مميزة واعية بذاتها، فإن للأوروبيين حرية خلط هذه الشعوب ومنحها عنواناً عاماً من نوع «الشرق الأوسط»، تذكيراً بالمدخل البايولوجي لفصيلة «الثدييات» مثلاً، حيث تشمل الفصيلة الحيتان والقطط والبشر، من بين سواها من المخلوقات الثدية. كان رأي لويس أعلاه مكهرباً من الأصل لأنه جاء إستجابة منفعلة، لا تخلو من الضغائن، للإحتفالات الباذخة التي أقامها الشاه محمد رضا بهلوي لمناسبة الذكرى ٢٥٠٠ لتأسيس الإمبراطورية الفارسية[١٤].

تبدو مفارقة التسمية التي إعتمدها العقل الكولونيالي أعلاه إمتداداً لآراء عدد من مفكري الشرق الأوسط أنفسهم، بدليل عدم قدرتهم على تحديد هوية ما يسمى بـ«النهضة»؛ فيما لو أنها كانت عربية أم إسلامية، قومية أم دينية. يمكن تتبع هذا الإرباك إلى سقوط الدولة العثمانية وماتلاه

من صعود لما يسمى بـ«الحركة القومية العربية» التي تطلعت إلى محاكاة تجارب دول أوروبا القومية آنذاك، خاصة تجربتي الوحدة الألمانية، والوحدة الإيطالية. وقعت النخب العربية المثقفة آنذاك تحت تأثير التعريب من اللغات الأوروبية، لأنها لم تكن متيقنة مما تريد بسبب تواصل أثر أساطين النهضة المربك عليها، فكان السؤال هو: هل نسير على طريق العروبة أم الإسلام، بل كان السؤال الأكثر إرباكاً، هو: أية عروبة وأي إسلام؟

يبدو أن أساطين النهضة، وهم بالتحديد رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) وجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) وخير الدين التونسي (١٨٢٠-١٨٩٠م) ما كانوا ليميزوا خطوطاً واضحة المعالم تفصل بين الروحي والقومي. لذا سادت الغيمية حتى اليوم فأطلقت العنان للإستخدام المتبادل لبرامج الآيديولوجيتين الإسلامية والعروبية اليوم. ترك هذا الغموض المربك آثاراً سلبية بالتأكيد، فقد ركب كل واحد من التيارين الآخر، رديفين، في المراحل التالية منتجين خليطاً من اللايقين والإرباك لعدد من الأجيال الشرق أوسطية التالية، العربية خاصة.

وقد زاد الإختلاط درجة التوظيف الإنتهازي لكلا الآيديولوجيتين، على نحو لا مسؤول، من قبل الأنظمة التي حكمت بعد مرحلة الإستقلال السياسي في أغلب دول العالم العربي الفتية أثناء القرن العشرين، وما تلاه، وهي حال فاقمت من الضبابية وأوجاع عدم التيقن، للأسف.

أما بالنسبة لشيوع الفكر القومي العربي، فإنه لم يكن بالأصل ظاهرة محلية، إذ إنه كان فكراً مستورداً من أوروبا، كما لاحظنا في أعلاه، ربما بواسطة تركيا المجاورة كذلك. في القرن التاسع عشر، توافق الروح القومي volksgeist مع روح العصر zeitgeist، إذا ما إستخدمنا

الإصطلاح الألماني المفضل لكلا الروحين آنذاك. أما بالنسبة للوطنية البريطانية فإنها، تحت تأثير إحيائية بنجامين دزرائيلي Disraeli، إحتضنت حركة «إنجلترا الفتاة» Young Englandism التي كانت، إلى حد كبير، صدى قوياً لصعود الروح القومي الألماني الذي أشاع له مفكرون مثل شيلر Schiller ونوفالس Novalis وهيردر Herder والأخوين شليغل Schelgel، من بين آخرين. في مبادرة لمحاكاة صعود نجم الروح القومي وإتساع شعبيته، إجتمع عدد من الشبان العرب في مؤتمر بأوروبا (باريس، ١٩١٣م) للتعبير عن آمال العرب بكيان قومي موحد يجمع كل الشعوب التي تتكلم العربية، مكرسين صفتهم المحاكاتية عبر تأسيس جمعية «العربية الفتاة»، تتبعاً لخطى تركيا الفتاة كذلك، ناهيك عن الآمال القومية الناتجة عن الوعود التي قدمتها بريطانيا للشريف حسين، شريف مكة، بمملكة عربية، إن شارك بالثورة ضد العثمانيين.

هكذا إنطلق التيار القومي العربي الذي تفوق على سواه من التيارات السياسية الأخرى لمرحلة معينة درجة إغراق الجماعات الإثنية المحلية غير العربية في الشرق الأوسط وحرمان العديد منها من هوياتها القديمة عبر محاولة إذابتها وجرفها في تيار التعريب الذي راح يسحب كل شيء موجود على طريقه لعدة عقود. ولكن لولا الصحوات الإثنية التالية، لنزعت العديد من الجماعات هوياتها من أجل إحتضان الهوية العربية طوعاً.

إنه لمن المهم بمكان أن نلاحظ أنه مع الموجة العالية للتعريب في العراق على عهد نظام البعث (١٩٦٨-٢٠٠٣م) راحت الأقليات الإثنية غير العربية، ومنها المندائية وبعض الكرد والكلدانية والآشورية تدعي بأنها عربية من أجل بلوغ حداً أدنى من التوافق مع تيار «الحزب القائد» الشوفيني. وفي سبيل تشجيع الأكراد على الإنتماء لحزب البعث العربي الإشتراكي الحاكم، من أجل إذابتهم والقضاء على مطالبهم القومية،

راحت محركات إعلام الدولة تدور بأقصى سرعتها لإشاعة مفهوم مفاده أن العروبة ليست مسألة دم أو إنحدار سلالي، بقدر ما أنها مسألة ثقافة على سبيل إقحام الجميع في «ماكنة فرم» التعريب. يكفي أن تقرأ نصوصاً عربية وتطربك أم كلثوم لتكون عربياً بالثقافة! ولكن سرعان ما غادرت الدولة القومية هذا الجدل، لإعتماد جدل إثني شوفيني بامتياز مع نشوب الحرب ضد إيران.

المهم في سياق هذه المناقشة هو أن موجة القومية العربية نحت منحى شوفينياً في إزالة أو تجاوز تراثات الجماعات الإثنية غير العربية من أجل إستبدالها بعروبية مصطنعة بسبب الإنحياز للعروبي الذي كان في طور الصعود حقبة ذاك. تطورت «عملية التعريب» لتغدو غزواً آخراً، غزواً ثقافياً أكثر من كونه غزواً إثنياً، ذلك أنه يدعو إلى «بعث» الماضي الوسيط، أكثر من دعوته للتحديث. لم يترك هذا التيار الشوفيني شيئاً لم يمسه، حتى أسماء التقسيمات الإدارية للعراق (المحافظات) والمدن والناس، على سبيل المثال: محافظة الديوانية أصبحت «محافظة القادسية» ومحافظة الناصرية غدت «محافظة ذي قار» ومحافظة السماوة أصبحت «محافظة المثنى»، كما منع المسيحيون العراقيون الذين إعتاوا تسمية أبناءهم بأسماء قديسين مسيحيين من الإستمرار على نفس المنوال لإعتماد أسماء عربية فقط. حتى تعبير «العالم العربي» الشائع في الإعلام قد حرم لأن لفظ «عالم» ينطوي على التقسيم إلى دول؛ لذا إستبدل بتعبير «الوطن العربي» كمحاولة لتجاوز التشرذم إلى دول عربية مختلفة، لفظياً على أقل تقدير.

بهذا المعنى إقترف القوميون العرب خطأً مشابهاً لذلك الخطأ الذي إقترفته السلطات الكولونيالية الأوروبية التي إبتكرت عنوان «الشرق الأوسط»الموازي لعنوان «الوطن العربي» في هذه الحال، نظراً لتجاوزه

الأقليات الدينية في إقليم يمور بمثل هذه الأقليات. وهكذا أصبح في المتناول أن يفترض المرء أن تفوق الروح القومي العربي محلياً وازى وعزز مدخلاً تحجيمياً كولونيالياً عبر فرضه «بدلة جاهزة» أو «زياً موحداً» على كامل أقوام الإقليم، الناطقة بالعربية خاصة. كان الميل للتوحيد، المعكوس بالعناوين غير الدقيقة التي فرضتها الكولونياليات الأوروبية والتيار القومي العربي، خاطئاً في كلا الحالتين، لأن الأول كان أوروبي التمركز، بينما كان الثاني عربي شوفيني التمركز، وكلاهما كانا منحازين.

الفصل الثالث

المفارقة الثانية:
أي الطرق للشرق الأوسط

إنَّ الشعوبَ اقتُسِمتْ عَنوةً
للكنديينَ اقتسامَ السهام
ليس لها من أمرها ثالثٌ
أما الموالاة وإما الحُسام

*محمد مهدي الجواهري

أشرت سنة ١٢٥٨م نقطة تحول مفصلية في تاريخ الإقليم الذي نطلق عليه اليوم عنوان «الشرق الأوسط»، تعسفاً. عندما عصف هولاكو خان ببغداد العباسية مع جموع المغول الملتصقين على ظهور خيولهم في تلك السنة، لم يكن هولاكو وجمعه، اللاهث وراء الغنائم، يعي أن هذه هي لحظة السقوط المدوي لأكبر حاضرة كوزموبوليتانية في العصر الوسيط. لم تؤشر هذه المأساة نهاية الهيمنة العربية على عالم الإسلام بواسطة مؤسسة الخلافة، لأنها أشرت كذلك لجم الملكات الإبداعية لشعوب الشرق الأوسط بعد أن كانت وراء إطلاق المبادرات الثقافية التي إزدهرت لعشرات الأعوام إبان الحقبة المفترضة لإنشاء (ألف ليلة وليلة)، تلك الحكايات التي إنتشرت تلبية لحاجات مجتمعات متحضرة درجة توفر الوقت الكافي للتمتع بقراءة هذا النوع من ملاهي العواطف

المعتمدة الحكاية المثيرة، بغض النظر عن مسألتي غموض تأليف وتحقيق كتاب (الليالي العربية)، كما يسميه الغربيون، وما يتضمنه من مغامرات طريفة وحكايات مضحكة، منظمة بمجملها على نحو متسلسل بضمن القصة التأطيرية لسلطان، شهريار، يستدرج لسحر حسناء بارعة الجمال، شهرزاد، تبقيه عالقاً بالترقب من حكاية لحكاية كي تنجو بحياتها.

إن حقيقة التنافس بين الأقوام المتنوعة على عائدية أصول جوهرة الأدب الشعبي أعلاه، بين العرب والهنود والفرس والصينيين واليهود، من بين سواهم من الأقوام، إنما تشير إلى وجود تواصل ثقافي متداخل جغرافياً وسكانياً عبر إقليم واسع ومتنوع أشبه ما يكون بفكرتنا المعاصرة عن العولمة[1]، إذ ينبغي أن لا ينسينا هذا الأمر حقيقة مفادها أن العرب في هذا العصر لم يعودوا أولئك الفاتحين الصحراويين الأشداء، كما كانوا في عصر الفتوحات عندما إستخلصوا تفوقهم العسكري من بيئتهم الصحراوية الصعبة، ومن حماسة الإيمان الروحي الذي قاموا بنشره مذاك، إيمان إعتمد اللغة العربية، كما أعتُمدت اللاتينية في أوروبا حقبة ذاك، لإحتواء الأثمار الثقافية والعلمية الثمينة للشعوب أعلاه وأكثر، عبر حملة تعريب كبيرة رعاها خلفاء بنو العباس في بغداد تأسيساً على رؤيا إمبراطورية كونية يعولمها الإسلام مع اللغة العربية. من هنا جاءت إشارات العرب إلى الفترة العباسية «العالية» كعصر ذهبي لتاريخهم. لقد مزج الدين، زيادة على اللسان جماعات إثنية متنوعة سوية في بوتقة ثقافة العصر الوسيط. وكما لاحظنا وسنرى فيما بعد، تجاوز التفاخر العربي بالثقافة الوسيطة اليوم الدين واللغة، على سبيل التمدد الشوفيني التمحور نحو العرق، وهي حال أنتجت الكثير من الآثار السلبية بطريقة اسقطت العرب في غياهب صومعة عصبية إثنية بلا مرآة لمعاينة الذات ولا نافذة لمشاهدة الآخرين على نحو موضوعي.

فقد العرب، الذين لم يعودوا من دماء عربية نقية كما كانوا يدعون قبلئذ، المبادرة الثقافية بسبب فراغ القوة الذي تلى سقوط السلالة العباسية، حيث راحت قبائل بربرية شرسة حديثة الظهور، كالأيلخانيون وقبائل القره قوينلو والآقوينلو آنذاك، تمزق الإقليم بغاراتها. وقد مهدت هذه المرحلة المظلمة الطويلة الطريق للقبائل التركمانية البدوية الأخرى لتأسيس إمارة صغيرة في الشرق الجبلي للأناضول، مطلقة حملات توسع وضم عسكرية نحو الإتجاهات، مع عين ثابتة ترنو إلى القسطنطينية، أي إسطنبول العثمانية فيما بعد.

عندما ذوت قدرة العرب على الإبداع والإبتكار، وجدوا أنفسهم ضحايا سهلة الإستغلال: من قبل قبائل المغول والتركمان البدوية الجوالة التي إكتسحت الإقليم بحثاً عن الغنائم والنهب، أولاً؛ ثم من قبل الإنتهاكات العسكرية التي راحت تنطلق من الإمبراطوريتين الناشئتين آنذاك، العثمانية والفارسية، وهما الإمبراطورتيان اللتان لم ترقيا إلى نفس درجة سابقتهم، إمبراطورية العرب، في حقل العناية بتشجيع الإبتكار، ثانياً. يلاحظ الكاردينال نيومان تلك الفجوة في سياق محاولته قياس النقلة التاريخية من عناية الخلافة العربية بالإبداعي إلى لا مبالاة الترك بهذا النوع من الأنشطة المتحضرة والذكية، خاصة في المراحل المبكرة من تاريخ إمبراطوريتهم التي أطلقوا عليها لفظ «خلافة» فيما بعد، تعسفاً. لذا يعمد نيومان إلى قياس زاوية الهبوط الحاد من بغداد العباسية العربية إلى إسطنبول العثمانية التركية، حيث يكتب أن «الإسلام العربي... يمنحني تجسيداً معاكساً لما أعنيه بشعب ذي عمق داخلي»[٢]. كان مبعث هذا القول هو حملته التعبوية المضادة للعثمانيين على سنوات حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م). لذا، فإن موقفه المنحاز للعرب ضد الأتراك لم يكن سوى موقف سياسي مؤقت.

لقد نمت هذه المفارقة على نحو متواصل حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث ظهر تغير؛ «إذ تحول الإسلام من قوة حاثة للإبداعي والمبتكر إلى إيمان راكد تركبه الخرافة ويهيمن عليه ظل الله على الأرض»، أي السلطان العثماني مع من يخولهم من رجال الدين. من منظور معين، ركزت النسخة العثمانية للعالم الإسلامي على هرمية محبطة، خالية من الفضائل الفكرية للخلافة العباسية السابقة، مع نظرة دونية مفرطة للـ«ممتلكات العربية»، من بلاد الرافدين إلى الجزائر. والحق، كان تركيز العثمانيين الرئيس ينصب على الأقاليم الأوروبية صعوداً نحو بودابست وفيينا، الأمر الذي يمكن أن يلقي الضوء على نظرتهم الدونية للأقاليم العربية التي خصت بحملة «تتريك» هدفت، من بين أغراض أخرى، إلى فرض اللغة والثقافة التركية على العرب الموزعين على أقاليم شاسعة جنوب الأناضول.

في أزمنة الركود الثقافي التي جثمت على هذه الأقاليم العربية، إستهلك الشعراء إبداعيتهم الخيالية في التعامل مع قضايا تافهة من نوع التغني بما تمنحه المخدة من راحة، أو بإطراء متع المسبحة لأمثالهم من المنشدين العبثيين المتناثرين عبر الأقاليم العربية المترامية. لقد جايلت النهضة الثقافية للعرب، التي حدثت في وقت لاحق، التدهور السريع الذي أصاب «الرجل المريض»، ذلك التدهور المتوافق مع صعود نجم الثقافات والقوى الكولونيالية الأوروبية حيث إلتمعت في الآفاق أفكار الإستقلال السياسي واليقظة الثقافية للعرب من بعيد، فتبلور السؤال الأساس، وهو: أي الطرق نسلك للمستقبل، الطريق القومية العربية أم الإنبعاثية الإسلامية، أم الإشتراكية.

لم يحظَ الخيار الإسلامي بالكثير من التأييد في وقت كانت فيه شعارات الوحدة والرابطة الإسلامية، المرتبطة في أعماق الذهنية العربية

بسلاطين بني عثمان المبغوضين لأنهم الذين وظفوها على نحو إنتهازي من أجل تقوية تماسك إمبراطوريتهم المتهاوية. أعادت تلك الشعارات الإسلامية للذاكرة الجماعية حقبة مريرة من التسلط والإضطهاد العثماني. لذا، فقد بدا هذا الخيار إعادة لإنتاج التوظيف العثماني النفعي للإسلام كي يخدم أداة للحكم، بينما تواصلت الحروب الطائفية ضد المسلمين الشيعة في الذاكرة، مع إشارة خاصة إلى الحفاظ على التدين الإسمي في المركز، حيث حافظ السلاطين العثمانيون على عشرات الزوجات والجواري والمخنثين والعبيد، ذكوراً وإناثاً، بوجود «الخصونجي»[٣]، عضواً محترماً ضمن حاشية السلطان نظراً لخدماته القيمة في تعقيم الذكور من العاملين على خدمة النساء في «الحريم» من أجل تحاشي الزنا. كان «الخصونجي» البديل العثماني لحزام العفة chastity belt الذي إستخدمه ملوك أوروبا في القرون الوسطى.

لقد دل إخفاق فترة «التنظيمات» Tanzimat (١٨٣٩-١٨٧٦م) لحقن إكسير الحياة في أعضاء الإمبراطورية المتهرئة على أنه كان إخفاقاً مشوهاً للإسلام في أعين المسلمين داخل وخارج الإمبراطورية، خاصة وأن هذا الإيمان الروحي قد وظف على نحو لا مبدئي لخدمة أهداف سياسية طارئة ومؤقتة. وقد شكل هذا النوع من التوظيف المصلحي للدين مأزقاً لمستقبل الإسلام، إيماناً روحياً ونظاماً إجتماعياً للمسلمين كأمة، بسبب التطبيقات اللاإسلامية المنحرفة التي أحيلت إلى هذا النظام الروحي بعد أن إمتطاه طغاة بني عثمان في نهاية المطاف. ولكن على الرغم من إستغلال العثمانيين العواطف الإسلامية بنجاح نسبي في فلسطين وسوريا وبلاد الرافدين على سبيل تعبئة العامة ضد الغزوين البريطاني والفرنسي، إلّا أنها سرعان ما تلاشت وتبددت. وبدا الأمر وكأنه ينحي بلائمة جميع الأمراض، التي أضعفت وقسمت الإمبراطورية وأضرت بشعوبها التي

كانت سابقاً أجزاء من إمبراطورية لا تهزم، على الإسلام. هذا هو مبرر ردة الفعل العنيفة والإنفعالية ضد هذا الدين الذي إدعى العثمانيون تمثيله وحمايته لقرون أي قبل سقوط الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى. بالنسبة للترك إستحال رد الفعل الإسلامي العام إلى عدائية مستعرة مضادة للإسلام وللعرب ولغتهم: فبينما «خذل» العرب الترك بانحيازهم للـ«كفرة» الأوروبيين، أخفق الترك، الذين إدعوا تمثيل وإحتواء تراث إسلامي كامل، في الحفاظ والإبقاء على تركيا كقوة عالمية كبرى قادرة على صد أخطار كاسحة كتلك الأخطار القادمة من أوروبا، في نظر الأتراك الجمهوريين الحديثي الظهور هناك إذاك. وقد عد إعلان الشريف حسين، أمير مكة، العصيان على الترك لصالح البريطانيين (الذين وعدوه بمملكة عربية تحت ظل تاجه الهاشمي، بواسطة سفيرهم، لورنس العرب) أشد أنواع الخيانة العظمى التي أقدم عليها زعيم عربي. هذا وقد شكل تخلي الترك على عهد كمال مصطفى أتاتورك الفتي، عن الحروف الأبجدية العربية في الكتابة نموذجاً لرد الفعل العصابي المكهرب، إذ قرنت هذه الحروف بالإسلام، فمنع إستعمالها كما منع إرتداء الملابس الشعبية التراثية على الترك والكرد والعرب في الجمهورية التركية الجديدة التي، كما بدا واضحاً، قد قرنت الإسلام بالرجوعية. كان من الجلي أن صعود الروح القومي التوراني قد حفز ونشّط إلتزام العرب بروحهم القومي عبر مرحلة ما بعد الدولة العثمانية. وقد بدا من الأفضل بالنسبة للشعوب العربية المتحررة مؤخراً، وهي لم تزل تحت تأثير مركب نقص قوامه صلاتهم بالمحتلين السابقين (العثمانيون)، ثم بالمحتلين الجدد (البريطانيون والإيطاليون والفرنسيون)، تأييد الخيار القومي، ليس فقط بسبب تدهور الأوضاع السريع في فلسطين مع إندفاع اليهود من كل بقاع العالم إليها، ولكن

كذلك بسبب الشكوك في أن الخيار الإشتراكي كان غريباً بالنسبة لتقاليدهم القبلية والدينية الموصولة إليهم وراثياً. لذا تم النظر للخيار الإشتراكي طريقاً وسطى يمكن أن تحقق توازناً بين التقليد والتغيير، أي بين التراث والحداثة. لقد رغبت الدول الفتية بالنوع الجديد من الأنظمة الذي إختلقه المنتصرون الأوروبيون وقدموه أنموذجاً، كي لا يبقى شيئاً يذكر بـ«الخلافة العثمانية» التي بقيت رهن العصر الوسيط مع ما ينطوي عليه من سلطة طاغية شمولية عانى منها العرب لقرون عدة، برفقة سواهم من المسلمين غير الأتراك. للمرء أن يلاحظ، بهذه المناسبة، أنه في السنوات الأخيرة من هذا القرن (الحادي والعشرين) نشط إهتمام جديد من أجل إستعادة وإحياء الخلافة الوسيطة التي تؤيدها وتشيع لها جماعات الإسلام الجديد Neo-Islam الجذرية التي اخترقت كتلاً شعبية وشبابية كبيرة عبر الإقليم حتى أعلنت ما تسمى بـ«دولة العراق والشام الإسلامية» الخلافة على الأراضي الممتدة بين العراق وسوريا سنة ٢٠١٤م. لاحظ تداخل الإتجاهات المتغيرة لمثل هذه التفاعلات والأفكار، مع إشارة خاصة لإشاعة الترك فكرة مفادها أن العرب قد إستغفلوا من قبل الوافدين الأوروبيين من أجل خيانة إخوانهم المسلمين الترك، ممهدين الطريق لخسارة فلسطين لصالح اليهود. كانت تلك مؤامرة شيطانية، حسب خط تفكير الإسلاميين الجدد الذين يرومون لتأسيس دولة خلافة جديدة.

على سبيل إستذكار الإنزلاق السريع الذي شهده الشرق الأوسط منذ سقوط بغداد العباسية سنة ١٢٥٨م (حالاً رمزية)، سوية مع تراجع قدرة العقل العربي على الإبداع والإبتكار، لا يملك المرء إلّا أن يعتقد أنه في مرحلة الركود التالية فقدت شعوب الشرق الأوسط كذلك المبادرة الحضارية التي كانت سر تفوقها عبر العصر الوسيط. جاءت النقلة المؤلمة والمأساوية من التحول من حال «الإبداع» إلى حال «المحاكاة»

السلبية للنماذج الأوروبية الشائعة في كل مجال من مجالات الحياة تقريباً. وعلى نحو مشابه لما فعله الترك تحت قيادة مصطفى كمال أتاتورك حيث فضلوا تتبع خطى الفرنسيين والألمان، باشر العرب نموذج الدولة القومية الشوفيني، مع إشارة خاصة إلى التشبث بنموذجي بروسيا بسمارك والوحدة الإيطالية، مُثلاً يمكن محاكاتها من قبل العرب على سبيل إتحاد دولهم الحديثة التكوين لتأسيس «دولة عظمى» ذات شأن دولي كبير يمكنها من حفظ فلسطين وإنقاذها في ذات الوقت، باعتبار أن الأخيرة جزء لا يتجزأ من تلك العملية الوحدوية القومية الشاملة. كان هذا هو «حلم الدولة الكبرى» الذي إستثمره الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، من بين آخرين، لتعبئة العالم العربي حوله، قائداً ذلك العالم إلى هزيمة حرب الأيام الخمسة في يونيو، ١٩٦٧م.

في الوقت الذي صعدت فيه شعبية آيديولوجيا القومية العربية خلال حقبة ما بعد العثمانيين، بعد تحقيق الدول العربية الإستقلال السياسي خاصة، صار من الضروري للأقليات الدينية والإثنية التي كونت مع الأغلبية العربية موزائيك قلب الإقليم، أن تجد لنفسها موطئ قدم موائم للدور الذي يمكن أن يعرف هذه الأقليات في «مهرجان عجائبيات الشرق الأوسط» الحديث، دور يتوافق بدقة مع المسيرة الرئيسة لتحقيق الأهداف العربية في «الوحدة والحرية والإشتراكية» التي إعتمدها القوميون العرب جميعاً. لقد حدا بحث الأقليات المضني عن هوية وهدف بمتكلمي اللغة العربية من المسيحيين إلى تأييد الآيديولوجية القومية العربية بوصفها جزءاً من جهد لصد الأيديولوجية الإسلامية والتخفيف من غلوائها المحبطة لآمالهم التي سيّست الدين وتوجته برنامجاً للمستقبل. تلقي هذه الدافعية بين المسيحيين عبر الإقليم الضوء على تحمس هؤلاء للحركة القومية العربية، منظرين ودعائيين. لذا تجد ستة منظرين للقومية العربية، من

مجموع ستة عشر، ليسوا من المسلمين كما أنهم، على أغلب الظن، من أصول إثنية مختلطة. من هؤلاء يجد المرء الأسماء المهمة التالية: خليل السكاكيني (مسيحي فلسطيني) وأحمد زكي (كردي) وأمين الريحاني (ماروني لبناني) وجورج انطونيوس (مسيحي لبناني) وميشيل عفلق (مسيحي سوري) وقسطنطين زريق (مسيحي سوري) وشكيب أرسلان (دروزي لبناني). لقد جسد هؤلاء المندفعون للفكرة القومية العربية حاجة الأقليات الدينية لشيء من الإعتبار الإجتماعي والهوية الذاتية في عصر مفارقات لم يسبق أن خبروا مثله من ذي قبل.

أما على الجانب المعاكس لهذه الحاجة الماسة للتعريف بالذات وللإضطلاع بدور سياسي التي خصت الأقليات المسيحية، أيدت الأقليات اليهودية في الشرق الأوسط الحركات الشيوعية واليسارية قبل تأسيس إسرائيل وبعده، لأن الحركات اليسارية شمولية، تميل لتسوية جميع البشر على مستوى واحد دون تمييز على اساس الدين أو اللون أو العنصر. قد يكون من المناسب في سياق مناقشة هذه «المفارقة الثانوية»، ملاحظة أن عدداً لا بأس به من قادة الحزب الشيوعي العراقي كانوا من اليهود. وليس بأقل أهمية من هذه الظاهرة في هذا السياق، هو أن هؤلاء اليهود الشيوعيون أسهموا بحماس منقطع النظير لتأسيس «عصبة مكافحة الصهيونية» في العراق من أجل تجسيد موقف موحد يتواءم مع مواقف الفئات الإجتماعية الأخرى بقدر تعلق الأمر بالقضية الفلسطينية وتأسيس إسرائيل، ناهيك عن أهمية هذه «العصبة» لهم درعاً لحماية الذات من تهم الصهيونية.

وكما كانت عليه المعضلة مع بقية الأقليات، اسهم يهود العراق (المتبقين فيه من زمن السبي البابلي) ويهود سوريا وفلسطين ولبنان ومصر وإيران والمغرب وتونس واليمن وتركيا، في التعريف بأدوارهم ضمن «المسيرة الكبرى» نحو الإستقلال التي بوشرت على أنقاض الدولة

العثمانية وتحرر أجزائها الشرق أوسطية العربية من تركيا العثمانية. برغم أن الرؤيا القومية العربية تتناقض مع آمال اليهود لتأسيس دولة يهودية في فلسطين. وليس بأقل أهمية من ذلك هو أنهم ما كانوا ليجدوا موطئ قدم لهم في أي برنامج إسلامي يمكن أن يذكرهم بالتمييز الذي قاسوه عبر التاريخ الإسلامي، بوصفهم من «أهل الذمة»، ذلك الوصف الذي كان معتمداً طوال تواريخ الخلافات الإسلامية. وهكذا توسعت «سايكولوجية الشتات» إلى سوى اليهود من الأقليات الدينية والإثنية التي وجدت نفسها فجأة مجزأة ومعزولة عن أوطانها الأصل بسبب تأسيس دول الشرق الأوسط الجديدة حسب معطيات مصالح البريطانيين والفرنسيين في جهدهم لإستغلال الأقاليم المنفلتة من الإمبراطورية العثمانية. لقد تولدت تعقيدات هذه الحال المؤرقة والحديثة الظهور على أحوال الأقليات بشكل خاص لأنها شعرت بالتهميش بينما قطعت أوصالها بالحروب والعنف أو بالتنافسات الدولية بعد أن كانت تحيا متماسكة تحت ظل إمبراطورية واحدة. هذا هو ما يلقي الضوء على الشعور المتواصل بالخذلان والمرارة الذي يقاسيه الأرمن والبارسيين (الزرادشتيين) والمندائيين واليزيديين والآشوريين والشركس والكلدان، والكرد خاصة. لذا تبعت «ذروة» سقوط الإمبراطورية العثمانية، ذروة «نقيض الذروة» المتمثلة بتفتيت هذه الأقوام وتوزيعها بين عدة دول ناشئة.

بينما خذل الإبداع والإبتكار العقل العربي بسبب الفوضى والتدهور اللذين طالا قروناً بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨م وما تبع من توالي الظروف المحبطة التي قادت إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية، برز البرنامج القومي العربي عبر روح المرحلة الإنتقالية الجديدة نتيجة لسيادة روح المحاكاة على حساب روح الإبداع عبر القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن التالي. وقد جهز ضمور الإبداعي، إضافة على تأسيس

إسرائيل، الرجوعية المحلية ببؤرة ساعدتها على إستغلال وتعبئة الجماهير، مفتتحة مرحلة مظلمة جديدة إمتطاها القوميون العرب الذين جسدوا الطغيان بكامل قبحه، ثم برروا الدكتاتوريات التي إعتاشت وإزدهرت على عمليات صناعة وإزالة الأعداء المتواصلة من أجل إستغلال وعسكرة المجتمعات في هذه الدول التي قاست التعاسة، كالعراق ومصر وسوريا واليمن والجزائر وليبيا والسودان، من بين سواها.

وبينما قادت العسكرة إلى سيادة روح الغوغاء، إبتلعت الأخيرة الحريات الفردية والإبداعية لتغرقها بسرعة في مياه الأحقاد والفوبيات الساخنة، خاصة في سياق رهاب الأجنبي. ومع موجة البترودولار، عمدت الدكتاتوريات إلى توظيفه لحماية نفسها بأجهزة أمنية قاسية لا ترحم، إعتمدت العنف لإكمال دائرة الخوف التي خنقت الشعوب وكبلتها عبر دول الشرق الأوسط باستخدام ماكنة الإعلام والأجهزة الأمنية التي بقيت تدفع هذه الشعوب المقهورة للإستسلام للجهل والتخلف بوصفه نوعاً من الأمر الواقع. لم يكن البترودولار من المزايا المفيدة للشعوب المنتجة للنفط بسبب سوء إستخدامه من قبل الأنظمة الصديقة للغرب في الشرق الأوسط: لقد حقق البترودولار نوعاً غريباً من التضامن، وهو تضامن الطغاة ضد شعوبهم. إنه لمن الطريف أن يلاحظ المرء أن الأنظمة الجمهورية التي تبدو «تقدمية»، على السطح فقط، قد إنزلقت إلى التحالف مع الأنظمة الملكية «الرجعية» في سبيل محاربة الأعداء المشتركين، أي قوى الحرية والإستنارة والديمقراطية. ولأنها كانت ضحية أشكال الطغيان القابلة للتبرير، المدعومة بتعاون الدول الغربية الإنتهازية والنفعية، حافظت شعوب الإقليم على مسيرة منتظمة إلى الوراء، أي إلى صيغ الوجود الإجتماعي في العصر الوسيط، تلك الصيغ التي تمجدها الأنظمة التربوية والإعلامية السائدة، وهذه هي

الحال التي أحالت العرب من مجرد محاكين إلى مجرد أرقام ميتة في سوق الإستهلاك العالمية. في اليابان والصين، من بين سواها من الدول الصناعية، يتم وزن العرب في مقابل عدد السيارات وساعات الرسغ والملابس والأسلحة التي يستوردونها، لا يقيمونهم بإسهاماتهم في الحضارة البشرية، إن كانت هناك أية إسهامات. ولأنهم يفقدون شخصياتهم بهذه الطريقة ليصبحوا أرقاماً مجردة، تراهم يفقدون إنسانيتهم في منظور حسابات السوق العالمية.

أطلق صعود النزعة الإستهلاكية في الدول المصدرة للنفط بالشرق الأوسط آلية دكتاتوريات من نوع جديد نمت وإزدهرت على أساس اسلوب قيادة من نوع الجزرة والعصا، قيادة مشكلة ومقواة بالشعارات المخدرة من نوع تحرير فلسطين عبر حلم الوحدة العربية الذي يصعب بلوغه: فهو حلم غير قابل للتحقق كما يبدو، لأن أغنياء العرب الملكيين شكلوا لأنفسهم جبهة مع زملائهم من الطغاة الجمهوريين لصد موجات الغضب والتغير المنطلقة من الطبقات البائسة للعرب الفقراء في دول الفوائض السكانية كمصر والمغرب، من بين سواها. إنه لمن الطريف أن نلاحظ كيف إستحالت الحركة القومية العربية لتغدو شيئاً آخر في الوقت الذي راح فيه البترودولار يستخدم بالتعاون مع الغرب وبتوجيه من مستشاريه من أجل تحقيق أهداف لا صلة لها بالرؤى الأصل للحركة القومية العربية، كما تجسد ذلك عندما سحبت أقدام الرئيس صدام حسين لحرب مارثونية ضد الجارة إيران، أي عند تطبيق الخطة الغربية المعروفة بـ«الإحتواء المزدوج» Double containment، حسب المصطلح السياسي الغربي؛ ومن ثم عند توريطه في الكويت، حتى تم لجم صدام المتمرد الذي فقد رشده عندما إكتشف، بأنه قد إستغفل وإستدرج إلى حرب ضروس لثماني سنوات دون جدوى: فمن أجل أن يعوض وينتقم، تم

إستدراجه ثانية لإحتلال الكويت بعد إطلاق طاقات الضغائن الشيعية السنية عبر الحرب التي باشرها ضد إيران مسبقاً، قالباً الحلم القومي لبلوغ «أمة عربية واحدة» إلى كابوس طائفي تؤججه التنافرات القديمة الكامنة اصولها في القرون الأولى للإسلام[٤]. وبغض النظر عن شعارات التقارب وأنشطة التقريب الطائفي والوحدة الإسلامية، لم ولن يتم حل الصراع الشيعي السني قط في الظروف الجارية بعد أن تحول هذا الصراع إلى «الحدث» المركزي في تراجيديا مسرح الشرق الأوسط. للمرء أن يستذكر دائماً أن الحروب الطائفية كانت، تاريخياً، هي الأبشع والأكثر دموية لأن شرارتها تنطلق من أصول عاطفية تراكمية. لن يخفق أي تقييم للسياسات في الشرق الأوسط اليوم قط في إستمكان الصراع الشيعي السني محركاً يكمن في «قلب ظلام» هذه المرحلة المحبطة من تاريخ الإقليم، تاريخ يجتره مصاصو دماء يعتاشون على بقاء جرح الصدام الطائفي نازفاً من أجل بقائهم.

إنه لمن المهم أن نلاحظ أن الإندفاع نحو الحركة القومية العربية، المستوحى أصلاً من التجارب الأوروبية برفقة آثارها الشوفينية والنازية، قد إكتسح الإقليم في القرن العشرين بدفع من مفكرين وناشطين كان أغلبهم غير مسلمين أو من أنصاف العرب الباحثين عن أدوار مستقبلية لأنفسهم وللأقليات التي ينتمون إليها (كما أوضحنا ذلك أعلاه). بل أن الأكثر إثارة لإهتمام باحث التاريخ هو التحالف بين الحركات القومية العربية والمسلمين السنة، وليس الشيعة، وهي ظاهرة قادت إلى عزل الشيعة العرب الذين وجدوا أنفسهم مغتربين في طريق مسدودة مقفلة فجأة، خاصة في أزمنة الإحتكاك والخصومة مع إيران الشيعية المجاورة، تحت الدكتاتورية البهلوية ثم تحت الثيوقراطية الإسلامية من بعدها. لقد تعامل العقل الشيعي «المناور» مع هذه العقدة على نحو ملفت للنظر، إذ إمتطى بعض الشيعة موجة الحركات القومية العربية عندما

أسسوا حزب البعث العربي الإشتراكي في العراق وإحتكروا قيادة فرعه بسوريا لما لا يقل عن أربعة عقود بدكتاتورية مطلقة. تلخصت فكرة صدام حسين الرجوعية لعزل الأشياء عن بعضها ووضعها في نصابها عندما باشر الحرب ضد إيران الثيوقراطية بهدف إعادة الشيعة من عرب العراق إلى المذهب السني الذي يعتنقه عرب الخليج في محاولة لتحقيق حلم إمبراطورية إقليمية تحكم من بلدة تكريت، مسقط رأسه. ولأنها أطلقت شبح الطائفية من حبسه، دلت الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨م) على أنها كانت «أم الإنقسامات»، إذا ما قسنا على تعبير صدام حسين المفضل، «أم المعارك».

بينما برهنت الحركة القومية العربية على فاعليتها في إطلاق عواطف وغرائز الغوغاء الجماعية عبر دول الشرق الأوسط التي تعاني من زيادة أعداد السكان بوصفها أداة عسكرة مجربة من قبل الأنظمة الشمولية، فإنها برهنت على أنها لم تكن سوى غطاءً خارجياً للتمويه بالنسبة للدول الغنية بالبترول، قناع خارجي ينبغي على الحكومات إبقائه كي تبدو متوافقة مع الموجة العالية للقومية العربية في بدايات وأواسط القرن الماضي، خاصة في مصر والعراق وسوريا، أي في الدول التي شاركت بمشاريع وحدات فورية متسرعة وغير مخطط لها من قبل حكوماتها الشمولية. أما بالنسبة للأنظمة الغنية بالبترول، سوى العراق، فقد بدت هذه الوحدات الإندماجية «الثورية» لها تهديداً لإحتكارها الثروات التي إكتشفتها لها الشركات الغربية، ثم إستخرجتها من تحت أقدامها قبل عدة عقود. لقد إكتفت هذه الأنظمة ذات البنية القبلية بـ«الخدمات اللفظية» في سياق إطراء الوحدة العربية والتعاون والتضامن القومي لأنها كانت تعي مردودات إرتفاع موجة الثروات المفاجئة التي راحت تغمرها والتي يتوجب حمايتها من الفقراء وبقائها لها فقط، دون أن تقتسم مع

«الأشقاء العرب» المحتاجين في الدول العربية الأخرى. لم تكن هذه الأنظمة القبلية جادة في تأييدها الوحدة العربية، بطبيعة الحال؛ فقد كانت بنفس درجة جديتها لـ«تحرير فلسطين». قومية هذه الأنظمة كانت قومية لا تتجاوز حدود دور الإذاعة وبث الفضائيات.

لم توقظ الحركة القومية العربية الطائفية في دول الشرق الأوسط فقط، ولكنها برهنت على فاعليتها سلاحاً لصد الدعاية الشيوعية ولجم التيارات اليسارية التي نمت وقويت في ذات المرحلة. يمكن أن يحال هذا الدور المتأخر نسبياً للتنافسات بين الحركات القومية العربية نفسها لكسب ود الدول الرأسمالية الغربية. ولا يقل أهمية عن هذا، كان عمل هذه الحركات كمطرقة لا تتوقف عن الطرق على الحركات الإسلامية لعدة عقود، كما كانت عليه الحال في مصر الرئيس جمال عبد الناصر الذي تبعه، على نفس المنوال، محاكوه من القوميين في العراق وسوريا وليبيا واليمن، خاصة خلال حقبة الحرب الباردة. في هذه الحقبة، قدمت الحركة القومية العربية نفسها سلاحاً ذا حدين خدم عدة أغراض محلية وإقليمية ودولية؛ وقد إعتادت هذه الحركة أن تجد لنفسها الأصدقاء والرعاة الإقليميين والدوليين، هؤلاء الذين يدعمونها دائماً من العالم الخارجي. لذا لعبت هذه الحركة دوراً مهماً في تشكيل الإقليم وشرذمته كما يبدو اليوم: ممزقاً بين الماضي والحاضر، مفككاً وعاجزاً عن جسر الفجوة النفسية والثقافية التي تفصله عن بقية أجزاء العالم.

لقد صادفت تفاعلات إنسحاب العثمانيين ودخول القوى الغربية الشرق أوسطية مع سيادة ذهنية محلية يخترقها هاجس الحنين إلى الماضي، مرضاً، ويشلها الخوف من المستقبل ومن عوامل الإستحالة والتغير بدرجة أسقطت الإقليم في أيدي الحالمين من الرجوعيين، قوميين وإسلاميين.

الفصل الرابع

المفارقة الثالثة:

لعنة حلاّق بغداد

أعلمه الرماية كل يومٍ فلما إشتد ساعده رماني
أعلمه الفتوة كل وقت فلما طرّ شاربه جفاني

❖معن بن أوس المزني

وتنبري الطغمة عن طغمةٍ مثل العنوز إنحدرت من أكام
قاست مقاييساً بأضداءها وزورت كل معنى الكلام

❖محمد مهدي الجواهري

اشتهر «حلاق بغداد» في الفن الحديث بإسم «عبد الحسن علي بن بكّار»، وهو الحلاق الذي اشتهر بقدرته على جعل الشبان يبدون بدرجة من الوسامة أنهم يسحرون الصبايا ويسلبوهن لبابهن، كما يقدمه بيتر كوميليو Comelius في العمل الأوبرالي الألماني Der Barbier von Baghdad[1]. في الصفحات أدناه سأوظف حكاية حلاق بغداد بمعنى مختلف ولغرض محوّر مقارنة بالغرض الملخص أعلاه بعد ليّها قليلاً.

وكما هي الحال مع حكاية «حرامي بغداد»، لا بد لحكاية «حلاق بغداد» أن تجد لها جذوراً في بغداد العصر الوسيط، عاصمة الإمبراطورية

العباسية التي تستذكر اليوم كمدينة غنية إحتضنت موزائيكاً من الأقوام، ومن جميع أصحاب الحرف والإختصاصات، أي هؤلاء الذين جيء بهم، أصلاً، من جهات الأرض الأربع لبناء «المدينة المدورة»، بغداد. حتى هذه اللحظة، غالباً ما يتم التندر بالحلاقين في بغداد لأن أغلبهم فضوليين ومهذارين، يقحمون أنفسهم في مشاكل سواهم، خاصة عندما يستغرقون في لغوهم حد الخروج عن الموضوع، بل وأحياناً حد فقدانهم القدرة على التركيز على عملهم. بيد أن الأكثر خطورة من الحلاقين في نظر الوسيمين من الشبان البغاددة، وهو الحلاق المتدرب المبتدئ في المهنة الذي يحتاج للوقت والتدريب الكافيين لإكتساب المهارات الأساس لقص الشعر وتصفيفه، وهي حال تجعل هذا المتدرب بحاجة لعدد من الرؤوس الكثة كي يطبق عليها مهاراته غير المكتملة. يستمر هذا التطبيق المختل لعدة اشهر، مستهلكاً أكثر ما يمكن من «رؤوس الضحايا» حتى يتمكن ذلك الحلاق المبتدئ أن يجيد صنعته. لذا، كان من المهم للبغدادي المحترم الذي يهتم بهندامه وبذائقة الناظرين إليه أن يتأكد من أن الحلاق الذي يسلم له رأسه ليقص شعره ليس بمتدرب، كي لا يستدرجه الكلام حتى يخرب رأسه.

تنطبق حال «حلاق بغداد» هذه بشكل دراماتيكي على الحكومات التي تعاقبت على الحكم في دول الشرق الأوسط الفتية بعد سقوط العثمانيين حتى اليوم[٢]. إذا ما إرتجع المرء إلى ما سمي بمرحلة التنظيمات Tanzimat[٣] (١٨٣٩-١٨٧٩م) في التاريخ العثماني، فإنه لا يمكن أن يفلت من ملاحظة القلق الذي إنتاب النخبة العثمانية المثقفة والمتأثرة بأوروبا التي أكدت، بعد أن ورثت طرائق الحكم التقليدية المتخلفة على المستوين العسكري والمدني، على الإصلاحات، أو «التنظيمات» من أجل إزالة الأطر والسياقات الإدارية الوسيطة للحكم

لإستبدالها بأطر وسياقات أوروبية حديثة. ولكن بالنسبة لإمبراطورية متهالكة درجة تسميتها بـ«الرجل المريض» قبلئذ، بدا هذا مشروعاً واعداً يتطلب، ليس فقط التخلص من الذهنية الإدارية العتيقة مع كل ممارساتها، ولكن يتطلب كذلك موقفاً جاداً جديداً يفترض أن يختبر ويقيّم السياقات والتعليمات السابقة، خاصة تلك المفروضة على الولايات العثمانية البعيدة عن الأستانة، وهو موقف لا يمكن إلّا أن يتسبب بـ«صدام ولاءات» بين مؤيدي القديم وبين الإصلاحيين التقدميين.

ونظراً لأن هذا الصدام متوقع في كل إرتطام بين جيلين يمثلان تقليدين، فإن الخلاصة تستقر على صيغة توفيقية مؤسسة على التسامح، قوامها التنازلات، بعض من الصيغ التقليدية القديمة (المأخوذة من التعليمات السابقة التي يفترض إعتمادها الشريعة الإسلامية)، وبعض آخر من الصيغ الأوروبية الوافدة (ذات الصفة العلمانية الغربية). أما النتيجة النهائية الأخرى، وكما هو متوقع، فإنها تتبلور في فجوة يصعب جسرها تمتد بين الطبقة الإدارية البيروقراطية وبين عامة الشعب العصية على الإستجابة والإذعان، فعبر إقليم الشرق الأوسط: عندما يخدم المرء موظفاً في الحكومة، فإنه غالباً ما يعزل ويسقط في فخ الإغتراب في دواخل إنائه الإجتماعي.

وعلى سبيل إستذكار فرضيتي حول النقلة التاريخية التي عاشتها الثقافات الشرق أوسطية، من مرحلة الإبداع البغدادية الوسيطة إلى مرحلة المحاكاة الإسطنبولية، للمرء أن يباشر إصلاحات التنظيمات، سوية مع الإصلاحات التي قام بها محمد علي باشا في مصر كمؤشرات إضافية على إخفاق النزوع الإبداعي والإبتكاري الأصيل. وهكذا، خسر الإقليم المجاور لأوروبا مباشرة، المبادرة الثقافية، فغدا مجرد «مستلم» مؤنث سكوني ومستكين لما يأتي إليه من «الذكورية» الأوروبية العدائية.

والطريف يكمن في أن الإصلاحات أعلاه اسهمت في تكوين نخبة من التكنوقراط المحليين في الولايات، نخبة خدمت القوى الأوروبية الوافدة بعد سقوط الدولة العثمانية، بدلاً عن حفظ الولاء للدولة العثمانية، ناهيك عن تمزقها بين ولائين وذهنيتين، أي بين الأطر الإدارية العثمانية المتلاشية، وبين الأطر الأوروبية الجديدة الوافدة. لقد تشامحت الإدارات الكولونيالية أو المنتدبة الجديدة مع بعض معطيات الذهنية الإدارية العثمانية المترسبة السابقة بهدف تيسير إدارة الولايات العربية المنفصلة عن الإمبراطورية في الشرق الأوسط. وقد برهن الإعتماد الأوروبي على الطواقم الإدارية العثمانية السابقة على إشكاليته في الدول ذات الأغلبية السكانية الشيعية كالعراق لأن الإداريين كانوا عموماً من أهل السنة (إذ حرم الشيعة من المناصب الإدارية العامة تحت حكم العثمانيين). لم يحدث ذلك في سوريا ولبنان لأن الفئات المجتمعية الفاعلة حافظت على نفوذها عبر النقلة المؤلمة، من الهيمنة العثمانية إلى الهيمنة الأوروبية.

وهكذا جاء تواتر الحكّام العسكريين عبر دول الشرق الأوسط الفتية على نحو «مزمن»، تواصلاً لسلطة الولاة العثمانيين العسكريين الذين كانت ترسلهم الأستانة إلى الأقاليم العربية الشاسعة، حيث كان يراد لهم التدرب على صنعة الحكم والإدارة. وهكذا، إبتلت شعوب الإقليم عبر مرحلة العثمانيين ومابعد العثمانيين بطغاة بلا خبرة، خاصة في جمهوريات العراق والجزائر واليمن وسوريا وليبيا. لقد توالى على سدة الحكم في هذه البلدان أفراد أو عوائل أو تحالفات قبلية أو جماعات سياسية لم تكن متمرسة في فنون السياسة والإدارة لأنها لم تحظَ بالفرصة المناسبة لإكتساب المعرفة الإدارية. وعلى سبيل إختيار الوصف الدقيق، كان هؤلاء الحكّام المتوالون أشبه بحلاق بغداد الذي تنقصه المهارة.

لذا كان الحاكم العسكري العثماني السابق أفضل من الحاكم المحلي الجديد الذي جاء به الإستقلال السياسي، فالأول إرتكن إلى تقليد الإنكشارية القديم المنضبط، بينما لم يرتكن الثاني إلى أي تقليد بالمرة. حتى العوائل المالكة التي عينتها بريطانيا أو فرنسا لم تكن، أصلاً، أكثر من أسر لزعماء قبليين تعاونوا مع البريطانيين والفرنسيين من أجل هذه المكافأة. هذا هو ما يمكن أن يلقي الضوء على تنظيم المشايخ والمشيخات الوسيط الذي إعتمدته قبائل صحارى جزيرة العرب. أما مهندسو الإنقلابات العسكرية الذين قفزوا من العجلات المدرعة إلى القصور الرئاسية عبر أواسط القرن العشرين، فقد كانوا، على الغالب، ضباطاً مشاة برتب عمداء أو عقداء من أصول عائلية متواضعة، يجيدون صنعة الحرب، ولكنهم لم يكونوا قط حكّاماً يتمتعون بالحكمة والخبرة الكافيتان لإدارة شؤون العباد.

وهكذا غدت أوصال الإمبراطورية العثمانية المقطعة كيانات ضعيفة تجسد نماذجاً مؤسفة لسلطة الطغاة المطلقة التي توجب على أبناء شعوبهم أن يضلعوا بتحمل أعبائها برغم عدم خبرتهم، ولكن في إنتظار أن يتعلموا كيف يحكمون، كي يتم إسقاطهم حينئذ من قبل مجموعة أخرى من المتدربين الجدد، وهكذا دواليك. لقد بقيت هذه العجلة الشريرة تدور على نحو لا مجدٍ. وبسبب غياب التقاليد السياسية، برزت ظاهرة «الحكّام الرعاة» الطارئين على المدينة، هؤلاء الذين أشاعوا القيم البدوية على حساب القيم المدنية المتحضرة، تبريراً لجهلهم وللتخلص من تهم الإخفاق والسذاجة. كان أغلب قادة الإنقلابات العسكرية في الدول العربية من أصول ريفية أو شبه بدوية فقيرة متواضعة. أما طبقة «الوجهاء» الأرستقراطية السابقة التي تراجعت وأفل نفوذها مع غلق فصل الدولة العثمانية، فقد كان أعضاؤها النبلاء و«الإكبارية» من الملاكين

الذين يسكنون المدن، وليس الأرياف حيث تقع أراضيهم، أو أنهم كانوا من التجار الذين اتهموا بالرجوعية باعتبار تحالفهم «التقليدي» مع القوى الإمبراطورية الغربية الوافدة ومع العوائل المالكة الرجوعية التي دفعت بها تلك الإمبراطوريات للملك. لقد مهد هؤلاء «الحكّام الرعاة» الطريق أمام «القيم الجديدة» التي تناهت إلى «مرارة» أن تحكم القرية المدينة، وأن تقود قيم البداوة المجتمع المدني المتحضر. إنه لمما يستحق الملاحظة في هذا السياق، أن واحداً من هؤلاء الضباط المتنفذين في عراق ما بعد سقوط صدام، وإسمه خلف العليان، ظهر على شاشات التلفاز وهو يفتخر بأن زوجته أمية، «لا تحسن حتى كتابة إسمها»، دليلاً على أن عائلته «محافظة» (مقابلة على قناة العراقية الرسمية بثت يوم ٢٧ ديسمبر، ٢٠١٢م)، فيالها من مفارقة.

نحى مأزق الحكّام الرعاة، غير المدربين منحى مأساوياً مزمناً عندما راحت تتراكم لديهم الخبرة والمعرفة الإدارية وهم في السلطة، إلّا أنها سرعان ما تتعرض للإنقطاع أو للإزالة من آن لآخر بسبب الإنقلابات العسكرية المتواترة التي كان ينفذها ضباط جيش من أقرانهم، مع ما يستتبع ذلك من توزيع إعتباطي وثأري لمراكز القوة الحكومية وللثروة، حيث كان الضباط يتحالفون على نحو جماعات تمتاز بالفتوة وبالنزق، إعتماداً على روابط قبلية أو مناطقية أو حزبية من نمط الأحزاب السياسية التي إختلقوها أو إستعاروها بأنفسهم من أمثال الديماغوغيين الذين ذكرناهم في الفصل الثالث، بضمن سياق مناقشتنا للفكرة القومية العربية.

أما في سياق تنافس هؤلاء «الثوار» المزيفين الدموي على السلطة، فقد كشفت الأحداث أنهم كانوا دائماً مدفوعين بدوافع غريزية بدائية وبتعطش ساذج للتملك ولممارسة السلطة المطلقة، بإيحاء من المفهوم الشرق أوسطي القسري للسلطة الذي يتجذر في القرون الوسطى، ذلك

المفهوم الذي يفيد بأن الحكومة إنما هي السلطة الشمولية المطلقة، زائداً أنها مالكة الثروة الوطنية، لذا فهي ليست الخدمة العامة بالمعنى الحضاري قط. لذا، فإن للمرء أن يظفر بالفرصة ولا يدعها تفلت منه بالمرة. كما أن عليه الإستفادة منها وإستثمارها إلى أقصى حد ما دام قادراً على ذلك. لقد عد هؤلاء الضباط السلطة الحكومية غنيمة حرب، يستحقها المنتصرون فقط كي يستمتعوا بها ما داموا يؤمنون بشعار أن «الفائز يأخذ كل شيء»، على نحو حرفي. أما بالنسبة لسواد الناس الذين ركب هؤلاء الضباط المتعطشون للسلطة معاناتهم وشكواهم لأهداف أنانية، فيفرض عليهم الصمت بسهولة عبر الشعارات والوعود أو بالحديث عن مشاريع التنمية «الثورية»، إذ دل التاريخ المعاصر لإقليمنا هذا على أن الجمهور سهل الإنقياد والتعبئة بالشعارات الرنانة أولاً، وبالوعود والخوف ثانياً عبر وسائل الإعلام التي تحسن صناعة وتسويق الأعداء. على هذا النحو عمل حلاقو بغداد المهذارون في دمشق والقاهرة وصنعاء وعدن وطرابلس الغرب والجزائر وفي بغداد طوال عقود القرن العشرين وما تلاه بلا رادع ولا رقابة، بطبيعة الحال. على الرغم من ضعف قدراتهم على إدارة وسياسة الناس، فإنهم نجحوا في حكم شعوب الإقليم التعيسة بواسطة ما يمكن أن أطلق عليه عنوان «ثورات البقعة»، تهكماً، وهي الثورات المحدودة ضمن أسيجة محطات البث التلفزيوني والفضائي الدعائي الحكومي التي سبق أن قرأ منها «البيان رقم واحد».

إنه لمن المهم أن يلاحظ المرء أن هذا التقليد الشرق أوسطي، المشابه لما حدث في دول أميركا اللاتينية ودول إفريقيا الفتية كذلك، أي التقليد المتمثل بالحكومات المتعاقبة التي يمكن أن نسميها بـ«حكومات الضباط»، لم يكن فقط من معطيات تراث الإمبراطورية

العثمانية الثقيل، لأنه كان كذلك من رواسب تراث الإمبراطوريات الغربية التي كان يفترض مجيئها «لتحرير الشعوب»: «جئنا محررين، وليس فاتحين»، كما قال الجنرال مود Maud يوم دخول بغداد مع قواته، ١٩١٧م. إن فرض نظام الإنتداب على هذا النوع من مشاريع «دول المستقبل» الناشئة آنذاك كالعراق وفلسطين وسوريا، يسّر على لندن وباريس تسليم مناطق شاسعة لإدارة ضباط أحداث، بريطانيين أو فرنسيين: على سبيل فرض سلطتهم التعسفية عليها تحت عنوان «الحاكم العسكري»، ذلك أن إفتراضية نظام الإنتداب الأساس تتلخص في أن السكان المحليين عاجزين عن حكم أنفسهم بأنفسهم. لذا، توجب حكمهم وتدريبهم على الحكم حتى يتمكنوا من ذلك. وهكذا «منحت» مناطق شاسعة من قبل إدارة المستعمرات لضباط شبان متحمسين، تتراوح رتبهم بين «نقيب» و«عقيد» على سبيل إدارة هذه المساحات الشاسعة بما عليها من بشر وثروات. وتدل حكاية «بنت المعيدي» على ما منح هؤلاء الضباط من سلطة، درجة أن أحدهم إختطف شابة جميلة تسكن بالقرب من شط الحلة، فأخذها إلى بريطانيا واقترن بها ولم تعد لأهلها منذ بداية القرن الماضي.

ترك هؤلاء الحكّام العسكريون الأوروبيون إرثاً ثقيلاً على السكان المحليين قوامه إستذكارات مريرة عن الخشونة والقساوة والتعسف، الأمر الذي جعل السكان المحليين يستذكرون طرائقهم الظالمة التعسفية من آن لآخر، جزءاً من الذاكرة الجماعية للشعب. ولم يزل السكان المحليين يستذكرون الرائد «ديل» Dale الذي حكم «لواء الديوانية» (جنوبي بغداد) بعد عقود بسبب أوامره الإستفزازية وتعليماته التعسفية التي فرضها في الأماكن العامة، إذ إنه منع بموجبها اللباس التقليدي العربي، خاصة في أو حوالي مركز الحكومة هناك. لم تزل مثل هذه

الإستذكارات تديم دلالاتها عبر دول الشرق الأوسط لأن الضباط الوطنيين المحليين الذين تبعوا الحكّام العسكريين الأجانب، إستحوذوا على السلطة المطلقة ولم يقدموا نموذج سلطة حكومة أدنى طغيان أو عبثية. رفعوا الشعارات الأخاذة في «الوحدة والحرية والإشتراكية» لإستغفال الشعوب وإشباع تعطشهم للسلطة، محافظين على هيمنتهم عليها بشكل لا محدود في «جمهوريات» شهدت، لأول مرة في التاريخ السياسي، توارث السلطة من الأب إلى الإبن، كما حدث في حال آل الأسد في سوريا وما كان ليحدث في حالات صدام في العراق وحسني مبارك في مصر والقذافي في ليبيا وعلي عبدالله صالح في اليمن، لولا سقوطهم قبل تحقق أحلامهم في التوريث.

كمنت هذه المفارقة في قلب التناقضات التي حاصرت خطاب الضباط «الجمهوريين» لأنهم أسقطوا الأنظمة الملكية بوصفها غير صالحة لمواكبة التقدم الحديث ولأنها كانت من «صناعة» الإمبريالية لحماية مصالحها في كل واحدة من تلك الجمهوريات البائسة التي صنعوها. لقد إتهم هؤلاء الجمهوريون الأنظمة الملكية بالتحالف مع القوى الرجعية في الداخل ومع «الإمبريالية» في الخارج. ولكن لسوء طالعهم، إستجاب هؤلاء الضباط الثوريون أنفسهم للقوى الشمولية الرجعية المهيمنة على الشرق الأوسط، محولين دولهم إلى شبه ممالك، نظراً لبقاء الأنماط النفسية الجمعية الكامنة في طي الوعي الجماعي، وهي الأنماط التي ألهت حكّاماً لا يمكن تتبع إستثنائيتهم إلّا عبر محاولة قرن أنفسهم بعقيدة التوحيد التي خصّت التقاليد الدينية للأراضي المقدسة في الشرق الأوسط، فكان هذا ما إنطوت عليه أفكار «القائد الأوحد» و«القائد المعجزة» و«البطل المخلص» و«سليل الدوحة الهاشمية»، تعابير زينت قيادة دول الشرق الأوسط فقط، دون غيرها.

وعلى نحو موافق للطريقة التي شكلت لخدمة تنظيم القوى الأوروبية الكولونيالية الصاعدة للإقليم، فإن هذه الدول الجديدة المتموضعة في قلب الشرق الأوسط، بحدودها المصطنعة التي خطت على منضدات المقرات الكولونيالية بلندن أو بباريس، كانت تنقصها أسباب الإستمرارية والتواصل والثبات الضرورية لجميع الكيانات السياسية. وقد تسبب هذا الإعتباط وعدم الإستقرار بما لا نهاية له من النزاعات الحدودية، بل وحتى بالشكوك حول مديات قدرة بعض تلك الكيانات على البقاء متماسكة ومستقلة، دولاً. لقد تجسدت الحالة الثانية عبر ما فعله القادة العراقيون المتتابعون حيال دولة الكويت، إبتداءً من شكوك الملك غازي حيال الدوافع الكامنة وراء قرار بريطانيا بتكوين هذه الدولة/ المدينة، فاصلة إياها، كما كان يقول، عن أرض العراق في سبيل حرمانه من مخرج على البحر، أي على ميناء يطل على الخليج العربي. بدأ هذا التعقيد عبر برنامج دعائي أداره الملك غازي أثيرياً بنفسه من إذاعة وضعها في أحد قصوره في بغداد على سبيل أن يكسب شبان الكويت ويحثهم على المطالبة بالإنضمام للعراق بواسطة دعاية هذا البث الإذاعي. ومع سقوط الأسرة الهاشمية وصعود نجم الزعيم عبد الكريم قاسم، مؤسس الحمهورية العراقية، إستحالت دعوات العراق لضم الكويت إلى حملة دعائية كبيرة مدعومة بجيش من الباحثين عن الوثائق والمؤرخين الذين راحوا يصطادون كل قصاصة ورق قديمة تدعم ما يفيد بأن الكويت كانت، إدارياً، تتبع إلى ولاية البصرة أثناء الحقبة العثمانية. وتأسيساً على تطلعاته الإمبراطورية اللامحدودة، أحال الرئيس صدام حسين (حكم ما بين ١٩٧٩-٢٠٠٣م) الحملة الدعائية التراكمية إلى حملة عسكرية فعلية يوم ٣ أغسطس، ١٩٨٩م، إذ أمر القوات العراقية بغزو الكويت وإبتلاعها على حين غرة، عادًّا إياها «المحافظة رقم ١٩».

كانت إزالة صدام الكويت من خارطة العالم، زيادة على تطلعه إلى المناطق الشرقية من المملكة العربية السعودية الغنية بالبترول دلائلاً واضحة على الأسس الإعتباطية التي إعتمدتها القوى الإمبراطورية الأوروبية في بدايات القرن العشرين لصناعة أو إلغاء الدول في الشرق الأوسط. بينما جعلت صحراء الكويت الصغيرة، بعد التأكد من طوفانها على مخزونات نفطية أسطورية، دولة مستقلة، تم تفتيت الشعب الكردي الذي تمتد مناطق إستقراره من جنوب أرمينيا إلى شمالي العراق وسوريا وإيران، إذ قسم الكرد بين الدول أعلاه، بغض النظر عن حجمهم السكاني الكبير، ومدنهم المهمة وشخصيتهم الثقافية المتميزة. لقد غرست القوى الكولونيالية الأوروبية في دواخل دول الإقليم إختلالات إخفاقها المأساوي في المستقبل.

بالنسبة لطغاة مثل صدام حسين وزملائه في «نادي طغاة الشرق الأوسط»، وهم يجهدون أنفسهم، كمشرعين، ليقتربوا من مدار الألوهية، فقد تم تدبر الحكم جزافاً، إعتماداً على رغبات مؤقتة وقرارت فورية من وحي الحالات الطارئة والزائلة. عندما سئل صدام، مرة عن القوانين، أجاب: «ما القوانين؟ نحن الذين نصنعها». يمكن فهم هذا الإعلان بطريقتين: أولاً، أنه قد عنى أن القوانين يصنعها البشر من أجل البشر أصلاً؛ ويمكن أن يعني أن القوانين يمكن أن تصنع وتحور وتعدل وتزاد بحسب إرادة الدكتاتور الشمولي، على الطريقة البابلية. كمن اللفظ «نحن» وراء الغموض: فهل قصد به «أنا» أم «نحن البشر»؟

لقد خدم غياب قانون أساس، أي دستور دائم، أو غياب مبادئ أخلاقية وإنسانية صحيحة لتشكيل هذا الدستور إمكانية الطغاة في الشرق الأوسط لممارسة ألعاب «القوانين العرفية» وملاهي «الدساتير المؤقتة» على نحو متواصل. لذا تراهم يغيرون القوانين من آن لآخر تناغماً مع

ذبذبة الحكّام القادمين والحكّام المغادرين الذين تتابعوا على «إفتراس» شعوبهم السيئة الحظ والمستضعفة، غنائماً، في العراق ومصر وسوريا، من بين سواها من الجمهوريات «الثورية» التي تطلعت إلى إعادة توجيه «المسيرة الكبرى» نحو المستقبل الذي تراءى للعقيد القذافي عندما سطره في (الكتاب الأخضر)، ذلك الكتاب العصي على الفهم، والذي أراد له مؤلفه أن يكون بالنسبة للعرب مثل الكتاب الرئيس ماو تسي تونغ الأحمر بالنسبة للصينيين.

إن تتابع الحكّام غير المتمرسين على نحو متوال قاد إلى عدم الإستقرار والتقلبات والتغير المتواصلة التي منعت البناء التراكمي في مثل هذه الدول الفتية، كما تبلور ذلك في كل حقل حيوي من حقول الحياة المهمة، بالضبط مثل كثبان الرمال المتحركة في الصحارى العربية والأقاليم الجافة المحاذية لها، تواصل خضوعها لعواصف التعرية المنطلقة من الربع الخالي في هذا الإقليم غير المستقر.

لن تخفق دراسة التاريخ المعاصر لدول الإقليم في تجسيد الحكاية المحبطة التي كان قوامها البناؤون الذين يتبعهم الهدامون في الإستيلاء على السلطة على نحو يجسد «لعنة سيزيف» وقدره اللامجدي. تتجلى هذه العبثية في إستبدال الكتب المدرسية والمناهج الجامعية على نحو شبه سنوي كي تناسب تطلعات القادة الجدد وبرامجهم. لقد قدمت هذه البرامج التربوية الدائمة التغير والتحور أجيالاً مرتبكة من الشبان والشابات الذين تم توجيههم وإعادة توجيههم على مدى سنوات قليلة من قبل تربويين قصيري النظر يخدمون كداعمين لأنصاف الآلهة المتموضعين على قمة هرم الدولة، مبرهنين على بقاء لعنة «حلاق بغداد» منذ العصر الوسيط.

الفصل الخامس

المفارقة الرابعة:

أي إله للشرق الأوسط: الطاغية ظل الإلوهية

أين من يستطيع التسلق إلى السماء؟ الآلهة فقط هي التي تحيا للأبد مع الشمس المجيدة؛ ولكننا، بشراً، أيامنا معدودة ومنجزاتنا نثر الرياح.

❖ملحمة جلجامش

خليفةُ اللهِ على عرشِهِ — أضحى أجيراً لعروش الطُغام
عَمامةٌ لُفَّتْ على سَوْأةٍ — لها بخزيٍ باض فيها دِمام
وهامةٌ يأنفُ من حَمْلِها — ذو نخوةٍ أو أصيدٌ أو هُمام
يا عبدَ حربٍ وعدوَّ السلام — يا خزيَ من زكّى وصلى وصام
يا سُبَّةَ الحجيج في عَمْرةٍ — بين الصفا وزمزمٍ والمُقام

❖محمد مهدي الجواهري

لم تتجسد رغبة الطاغية في تقمص الألوهية على نحو صادم ومشحون بالدلالات بقدر تجسدها يوم قدم الرئيس المخلوع صدام حسين نفسه على شاشة التلفزيون العراقي الرسمي، مصحوباً ببضعة رجال، بضمنهم رجل دين معمم وخطاط، وهم يحتفون بإكمال عرى آصرته التي لا تنفصم مع سلطة الرب، بعد أن خط الخطاط نسخة من

كتاب الإسلام المقدس، القرآن الكريم، محبراً النص بدم صدام حسين. وبينما إفتتح رجل الدين المعمم اللقاء الإحتفائي المتلفز باستهلال تبريري قصير في إطراء مبادرة الرئيس ودوره، حامياً للإيمان، فإنه لم ينسَ أن يؤكد على الإيمان الإسلامي الراسخ بأن القرآن هو كلام الله المباشر، غير المنقول عنه وغير المفسر له. لذا، عد هذا المنجز «المبتكر» الأول من نوعه في التاريخين الإسلامي والكوني، باستثناء «منجزات» الحكّام الذين قدموا أنفسهم لرعاياهم آلهة أو تجسيدات للآله على نحو صريح مباشر، كما كانت عليه حال أودن Odin الذي عده توماس كارلايل Carlyle الأول بين أبطاله العظماء الإثني عشر في معرضه المسلسل لعظماء التاريخ بكتابه الموسوم - (في الأبطال وعبادة البطل والبطولي في التاريخ)[١].

إذا ما شاء المرء تجاوز التقاليد الرافدينية والمصرية القديمة التي أخطأت الملوك أرباباً، للمرء أن يلاحظ أن الرئيس صدام حسين، بفعله هذا، إنما كان يحاكي نموذجاً أكثر مباشرة زمنية منه، بقدر تعلق الأمر بتأليه الطاغية لأن الخلفاء الذين توالوا على الحكم بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) تشبثوا بقيادة موحدة للدين والدولة في آن واحد، فمنحوا أنفسهم ألقاباً من نوع «ذي الولايتين»، أي رئاسة السلطتين، السلطة الزمنية والسلطة الروحية.

ولكن مع التدهور السريع الذي إنتاب مؤسسة الخلافة الإسلامية بعد صعود السلالة الأموية في دمشق (سنة ٦٦١م)، رفض المسلمون الشيعة الإعتراف بسلطة الخلفاء، لأن الأخيرين راحوا يزدادون ضعفاً وعلمنة على نحو متسارع[٢]. لذا أسس الشيعة مؤسسة بديلة لإدارة شؤونهم الدينية والروحية بعيداً عن سلطة الخلافة أسموها «الإمامة» التي قرنت بشخوص الأئمة الإثني عشر المعصومين من نسل الإمام علي (كرم

الله وجهه)[٣]. من هنا جاءت التسمية «الإثني عشرية» التي إكتسبوها قياساً بسواهم، كالشيعة «الخمسية» و«السبعية»، إعتماداً على عدد الأئمة الذين تعترف بهم تلك الفرق الشيعية المتنوعة.

وقد إستفز هذا الرفض الشيعي الإعتراف بسلطة الخلفاء كل من الأمويين وبعدهم العباسيين، لذا فقد أكد الخلفاء على سلطتهم الدينية، وفي المقابل إضطهدوا الشيعة بلا رحمة كلما بدت منهم علامة تمرد. ثمة طريقة أخرى إعتمدها الخلفاء للتوكيد على سلطتهم الدينية تمثلت باعلان الحروب الدينية ضد الدول غير المسلمة المجاورة (غزوات الثغور) لدولة الخلافة بذريعة الدفاع عن حياض الإسلام، «دار الإسلام» ضد الغزوات الآتية من «دار الكفر». كانت هذه إحدى الطرائق المناورة التي إعتمدها الخلفاء للتوكيد على أنفسهم أمام الرعية على أنهم ما زالوا يضطلعون بتمثيل وحماية الدين والدفاع عن معتنقيه في سياق مشهد عالمي متنوع الأديان. كان ذلك عالماً صوره الخليفة وكأنه ذو طبيعة ثنائية القطبية متشكلاً من قطبين متنافرين فقط: الإسلام وأعداء الإسلام!

إنطوى التقسيم الإسلامي لعالم القرون الوسطى إلى نصفين متصارعين تلقائياً على أن حكّام إقليم الشرق الأوسط ذو الأغلبية المسلمة، زيادة على سواه من المناطق الإسلامية المحاذية له إنما ترزح تحت سلطتي الخليفة من الناحية العملية، بغض النظر عن التنوعات العقائدية الموجودة في دواخل الأقاليم والمجتمعات المتنوعة. لذا بدا توكيد الخليفة سلطته المطلقة على المؤمنين مبرراً لأن الدين في تلك الحقبة الوسيطة كان هو المحرك الأساس الذي يدور الآليات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية. كانت سلطة الدين أهم بكثير من سلطة الدولة الزمنية من الناحية العملية. كان ذلك عالماً ديني التمركز بامتياز.

بينما تواصلت جهود الخلفاء للجمع بين السلطتين دون إنقطاع عبر

مرحلتي الخلافة «العربية»، الأموية والعباسية (٦٦١-١٢٥٨م)، تكرر ذات الجهد للجمع بين السلطتين على نحو أقوى وأكثر إصراراً مع ظهور خلافة الترك العثمانيين وهيمنتهم على القلب العربي المسلم للشرق الأوسط.

وفي سبيل فرض السيطرة الكاملة على الولايات العربية جنوبي آسيا الصغرى (تركيا اليوم) بهدف جمع الضرائب والتجنيد لإستخدام تجنيد العرب والمسلمين عامة في الحملات العسكرية العثمانية إلى دواخل أوروبا (شمال وغرب الأناضول)، غدا مهماً للعثمانيين إكتساب السلطة الدينية ومن ثم إستعراضها وممارسة جبروتها السلطة الدينية التي يتمتعون بها، خاصة وأن الخلفاء العثمانيين لم تتوافر فيهم الشروط والمؤهلات الأساس المبكرة للخلافة. في المراحل السابقة، كان من الشروط الأساس هو أن يكون الخليفة عربياً، بل ويفضل أن يكون قرشياً، أي منحدر من قبيلة النبي محمد (ﷺ).

لقد كمن هذا العائق الذي يفترض أن يكون تقليداً قانونياً وراء إصرار الخلفاء العثمانيين على حل هذه العقدة (لأنهم ليسوا عرباً ولا قرشيين)، الأمر الذي جعلهم شديدي التحسس حيال هذا الموضوع. لذا فإنهم لم يكتفوا بتوظيف رجال دين بهدف إيجاد مخرج شرعي يبرر إكتساب الترك لأسمى عنوان في الدولة الإسلامية، أي عنوان «خليفة»، كما أنهم حاولوا إقناع رعاياهم بفكرة مفادها أن الخليفة أو السلطان التركي هو، في الحقيقة، ظل الله على الأرض. قد يكون هذا الإدعاء رد فعل مفرط المبالغة ضد شكوك العامة في شرعية هيمنة الترك على الخلافة، أي على أعلى منصب في الدولة الإسلامية. لذا فقد ثبّت الخليفة العثماني الشهير، سليمان القانوني، الإدعاء بأنه كان مرآة الربوبية على الأرض في ختمه: «أنا سليمان، ظل الله على الأرض، أمير المؤمنين، خادم

وراعي الحرمين الشريفين». وبلغة تكرس سلطته المطلقة على الأقوام ذات الأغلبية المسلمة في الشرق الأوسط، أضاف: «أنا سيد دمشق وحلب، سيد القاهرة وسيد المدينة وسيد القدس وكل بلاد العرب واليمن»[٤].

وعلى سبيل عرض تركة تراث سليمان القانوني الثقيلة على حكّام دول الشرق الأوسط المعاصرين، للمرء أن يتفحص لقب «أمير المؤمنين» الذي يخص به ملك المغرب، ولقب «خادم الحرمين الشريفين» المعتمد لملك العربية السعودية ولقب صدام حسين المفضل «قائد الجمع المؤمن»، من بين سواها من الألقاب التي إستوحاها أو حورها بلاغيو الحكّام المعاصرين في سبيل تسويقها إلى الجماهير الفقيرة المسكينة.

أما في جمهورية إيران الإسلامية، فيتطور جدل الحكم برمته من علاقة ثيوقراطية متبادلة بين الدولة والدين تحت «إرشاد» سلطة الفقيه العليا التي يمكن تتبعها إلى الرفض والتجاوز الشيعي لمؤسسة الخلافة مذ تبوأها أفراد لا ينحدرون من آل بيت النبي (ﷺ). لذا يمكن فهم نظرية الخميني المعروفة بـ(ولاية الفقيه) باعتبارها تمثل إعادة التشكيل الشيعية للربط بين السلطتين لأن ما يسمى بـ«المرشد الأعلى» يدعي إكتساب سلطته المطلقة من الخلافة الإسلامية الأصل، كما جسدها الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) الذي حكم فعلياً لبضعة أعوام حسب. لذا تمكن قراءة نظرية الخميني بوصفها محاولة جادة، ربما هي الأولى من نوعها، لإعادة التشيع إلى قمة قيادة الحكومة الإسلامية بعد أن خسرها الشيعة قبل قرون لحظة إغتيال الإمام علي (رضي الله عنه) وهو يصلي، غدراً، بسيف أحد الخوارج، باستثناء الفترات القصيرة لأنظمة الحكم الشيعية التي ظهرت عبر العصر الوسيط[٥]. لا تنبغي قراءة رأي علماء الشيعة في هذا النوع من الثيوقراطية بوصفها حال إنتهازية أو مؤقتة لأنها ترتكن إلى التشبث بظهور إمام غائب (هو المهدي، الإمام الثاني عشر) في

لحظة غير محددة من المستقبل بعد غيبة طالت قروناً. يجعل هذا المعتقد المهدوي الرؤيوي المهدوي القوي حكومة الفقيه مجرد خطوة على أعتاب «الظهور»، وهي مرحلة إنتقالية تستبق ظهوره العظيم ليؤسس «حكومة الله» الحقة على الأرض، إذا ما إستعرنا تعبير شيرل برنارد Bernard وخليلزاد Khalilzad في دراستهما المهمة المنشورة سنة ١٩٨٤م(٦).

يعرّف ميشيل عفلق، أبرز آيديولوجيي حزب البعث العربي الإشتراكي، الحزب الذي حكم العراق وسوريا لعشرات السنين، دور حزبه باعتباره يدعم نوع من العروبة السائدة على نحو يمكن أن يقارن بالشوفينية النازية، ذاهباً إلى أن الإسلام إنما هو روح العروبة وأن العرب هم مادة الإسلام. وهكذا، يؤسس رأيه الأيديولوجي على إخضاع الإسلام للعروبة باعتبار أن الأخيرة وجدت قبل ظهور الأول. بالرغم من أنه مسيحي بالولادة، عمد عفلق إلى التأكيد على عدم الإقلال من شأن الإسلام بوصفه عنصراً من عناصر «الروح العربية»(٧). لذا تجده يقدم سابقة لإخضاع الدين للروح القومي العربي خاصة في العصر الذهبي لبروز «الروح القومية» في الإقليم volksgeist، إذا ما إستعرنا مرادفها الألماني، على سبيل تمهيد الطريق للدكتاتوريات البعثية التي إستولت على آليات الدولة في العراق (١٩٦٨-٢٠٠٣م) وسوريا (١٩٦٣-؟)، متجاوزة الحقائق الديموغرافية والطائفية التي أنتجت معطيات غير متوازنة: حكومة تقودها الأقلية السنية في العراق ذي الأغلبية الشيعية؛ وحكومة تقودها الأقلية العلوية في سوريا ذات الأغلبية السنية، وهي مفارقة أخرى.

نظراً لعد الدين عنصراً مساعداً يرفد الحركة القومية العربية بصيغتها البعثية، فإنه غدا معرضاً للتوظيف اللامبدئي والإعتباطي الذي تم عبر العقود التالية من حكم نظامي البعث المتنافرين في بغداد ودمشق، حيث كان الدين يستخدم لأهداف طارئة وزائلة. في بداية ستينيات القرن

الماضي، عندما رفع البعثيون وزملاؤهم من القوميين العرب (الناصريون) شعاراً للتعريف بأنفسهم، نصه «الإسلام ديني، محمد نبيي والبعث طريقي» بهدف صد الموجة العالية للحركات الشيوعية تحت درجة حرارة الحرب الباردة من خلال التوكيد على إلتزام البعث بالدين، وإتهام الشيوعيين بعدم الإكتراث به عاديهم ملحدين، زنادقة في غمار بيئة إجتماعية عربية محافظة.

أطلق هذا المنطق التوظيف الإنتهازي للإسلام، ذلك التوظيف الذي تصاعد أثناء حكم صدام حسين (١٩٧٩-٢٠٠٣م) عندما إضطهد الأغلبية الشيعية في العراق ليلة إندلاع الحرب المارثونية بين العراق وإيران (حرب الخليج الأولى ١٩٨٠-١٩٨٨م)، إذ إنه أعدم عشرات من أعضاء حزب الدعوة الإسلامية في كل مرة يستفزه بها الإيرانيون أو يشنوا هجوماً ضد مواضع الجيش العراقي على الجبهات، عميقاً داخل حدود إيران. وعندما نقل صدام نظرته السامة من إيران إلى الكويت ودول الخليج العربي (السعودية والبحرين والإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان)، فإنه عمد إلى اللجوء إلى خطاب إيران الإسلامي المزوق بالدعوة لتحرير فلسطين، في محاولة لكسب ود الإيرانيين ولجعل عملية ضم الكويت تبدو جزءاً من مواجهة حاسمة ضد الشيطان الأكبر، الولايات المتحدة وحلفائها الإمبرياليين. ومن أجل سحب اقدام إيران الثيوقراطية لموقف مرائي مراهناً على إمكانية مسيانها حربه ضدها، تمسك صدام حسين بنشر التدين في العراق، معلناً ما أسماه بـ«الحملة الإيمانية الشاملة». لم يكن هذا التدين المفاجئ ذا فائدة لأن الإيرانيين زادوا عناداً لئلا تمحى إنتهازيته من ذاكرتهم من أجل تجاوز خطابه الطائفي المضاد للتشيع في سبيل إستحصال الدعم المالي والإستراتيجي من دول الخليج العربية لإدارة الحرب ومواصلتها ضد إيران. ولأنه كان واعياً بثقل الأغلبية

الشيعية السكانية ضمن مكونات شعبه، تلك الأغلبية التي كان شبيبتها هم الوقود الحقيقي لتلك الحرب العراقية الإيرانية المارثونية، فإنه ما لبث وأن إستدار لمغازلة الجماعات الوهابية كي يزعج الإيرانيين ويحصل على المزيد من الدعم من دول الخليج العربية. لقد قدم ميشيل عفلق لصدام سابقة في الإستخدام الإنتهازي للإسلام وللعواطف الدينية حيث وظّف الإسلام على اساس من طريقة «الحبوب المغطاة بالسكر» للترويج للعروبة البعثية التي كانت علمانية في الأصل، مستحضراً «العلاقة العضوية» بين العروبة والإسلام التي سبقت الإشارة إليها. وعلى سبيل الإمتنان والتقدير لقدرته على الإبتكار، إستحال عفلق مسلماً على حين غرة، حيث أعلن نظام صدام حسين من على شاشة التلفاز الرسمي هذا «الإعتناق» السري للإسلام الذي لم يكن عفلق المتوفي مؤخراً يرغب بإعلانه لتجنب الإتهامات بالإنتهازية، حسب بلاغيات ذلك الإعلان الرسمي! لذا تمت عملية إعادة بناء قبر ميشيل عفلق على نحو معماري يبدو أشبه بمرقد إسلامي مقدس.

تؤشر هذه السياسات المتقلبة الإستخدام الإنتهازي الثاني للدين، أي ذلك الإستخدام الذي يستغل العواطف الطائفية بين المسلمين على أساس من قاعدة «فرق تسد» لتحقيق أهداف مؤقتة وأنانية. عندما إنتهت الحرب ضد إيران (١٩٨٨م)، بقي من أسماهم صدام حسين بـ«الخونة» العرب الذين أبدوا شيئاً من التردد لتعويض «تضحيات صدام» بما لا يقل عن نصف مليون من شبيبة العراق الذين قتلوا في ميادين القتال أو في ميادين العمل السياسي الأخرى. لذا تم تدوير ماكنة الإعلام على نحو معاكس هذه المرة من أجل تقديم من أطلق عليهم عناوين «العملاء» و«الخونة» الذين يحكمون في الجزيرة العربية، ليس فقط عرباً مزيفين، ولكن كذلك كمسؤولين عن «بيع» فلسطين لـ«الصهاينة»، إذا ما إستخدمنا ألفاظ ماكنة

الإعلام المفضلة آنذاك. لقد قصد لهذا الجدل أن يمهد الطريق نفسياً وتعبوياً لإحتلال الكويت، بكل تأكيد.

ربما تمخضت خطة حرب «الإحتواء المزدوج» الأميركية بين العراق وإيران Double containment عن سحب الشرق الأوسط برمته عدة قرون إلى الوراء، أي إلى الزمن الذي أشرت الخلافات الطائفية فيه نهاية ما يسمى بـ«العصر الذهبي» للدولة العباسية. لقد مدت تلك الحرب الطويلة هوة ساحقة ومظلمة بين الشيعة والسنة درجة أنها أبقت كامل الإقليم في حال من التحجر الذي يعكس الجمود، وهي حال كان قدرها أن تستهلك طاقات الإقليم وثرواته في جدالات لا مجدية. لو تفحص المرء الصراعات السياسية في الشرق الأوسط الآن، فإنه لا يخفق قط في ملاحظة أن الضغائن والعصبيات الطائفية الشيعية السنية هي التي تهيمن على المشهد برمته. وللمرء أن يتتبع كل صراع محلي إلى جذوره ليكتشف أن الصراع الطائفي الذي تضرب جذوره في خلافات القرون الوسطى هو الذي يهيمن على اللاوعي الجمعي المعاصر ثم يوجه جماهير الشرق الأوسط بشكل متعامي نحو مجاهل متاهة لا مخرج لها: فالحرب «الباردة» الجارية اليوم بين الساحلين الشرقي والغربي للخليج العربي، بضمن احتكاكاتها الخفية غير المعلنة وحرب الجوامع بين غوغاء جوامع السنة وغوغاء جوامع الشيعة في الباكستان والحرب ضد الحوثيين الشيعة في شمال اليمن والصدامات المتكررة بين الميليشيات في المدن اللبنانية كطرابلس وإبادة عوائل كاملة في العراق، وأخيراً، حرب الدعاية الساخنة بين رجال الدين المسلمين السنة ومكافئيهم من رجال الدين الشيعة في أروقة «المجلس العالمي الأعلى لعلماء الدين»، جميعها تشترك بصفة ذاتية التدمير العالية التكاليف التي قوامها جدالات ماضوية لا مجدية طواها الزمن، عمادها خلافات غير قابلة للحل اليوم. يمكن إحالة هذه الحال المؤسفة المتمثلة

بهذا النوع من الصراعات اللامجدية لسياسات أجهزة الحكومات المركزية عبر الدول المحورية في الشرق الأوسط لأنها تختبئ خلف الطرق التي تعتمدها الأنظمة التي إستولت على سلطات الحكومات، ليس فقط بمساعدة القوى الكولونيالية الأوروبية، ولكن كذلك بدعم التحالفات العائلية والطائفية المستفيدة، خاصة وأن هذه التحالفات هي التي تضمن بقاء أو إطالة بقاء الأنظمة الحاكمة على سدة الحكم ما دامت هي لا تصطدم بمصالح القوى العظمى. وعلى هذا الأساس، غدا من الواضح أن الإشتراك باللعبة الطائفية، ولو على نحو خفي، برغم إعلانات الشجب لها، قد دل على أنه أداة فاعلة، ليس فقط من أجل التعبئة والعسكرة، بل كذلك من أجل إدامة الهيمنة على السلطة التي تحكم شعوباً مبتلاة بالجهل والإنقياد المتعامي، شعوب تمتطيها عواطف طائفية غير قابلة للعقلنة حسب معايير عصرنا المختلف هذا. يعني هذا أن ما يسمى بـ«الربيع العربي» لم يكن عودة للحياة بالنسبة للعرب، كما يوحي لفظ «ربيع»، وإنما هو يعني دبيب الحياة في خلافات العصر الوسيط الميتة لأهداف سياسية. لنلاحظ الطبيعة الثأرية لهذه الجدالات الطائفية متجسدة في المبادرة المضحكة التي قامت بها «نقابة المحامين العراقيين - فرع النجف» لمحاكمة قتلة زعيم شيعي ثائر إسمه زيد بن علي علنياً بالرغم من أنه قد توفي سنة ٧٤٠م. عقدت هذه المحكمة الرسمية، المتأخرة كثيراً للأسف، ثم عرضت على فضائية «تلفاز كربلاء» يوم ٢٨ ديسمبر ٢٠١٢م.

من بين الطرائق الفاعلة التي إعتمدها حكّام دول الشرق الأوسط لبسط سلطتهم على شعوبهم ذات الأغلبية المسلمة كان الإدعاء بالإنحدار من الدوحة الهاشمية أو العلوية، أي من عائلة النبي محمد (ﷺ) عبر إبن عمه وزوج إبنته، الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام). هذا ليس موضوع ملكية

وراثية، ولا هو تبرير لغرض نيل السلطة المطلقة، كما يبدو للآخرين سطحياً، ولكنه إضافة إعتبارية مهمة لجبروت السلطة إعتماداً على قيمة «أهل البيت» في نفوس عموم المسلمين من خلال ضم نبي الإسلام وأبناء أسرته إلى آلية إدارة السلطة. ولكن للأسف، تحول هذا الإدعاء إلى موجة عامة جارفة لم تستثن أحداً من المواطنين فيما بعد، لأن المواطنة غالباً ما تتبع خطى القيادة التي تشكل أنموذجاً للإعجاب والمحاكاة. في العراق، وعبر عقدي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي، تحولت موجة توثيق الإنتساب إلى السلالة العلوية الهاشمية الشريفة إلى نوع من الحمى. وقد تصاعد الإندفاع العام لتوثيق شرف الإنتماء إلى الدوحة العلوية درجة الظهور غير المتوقع لمهنة مربحة درت على أصحابها من الأموال أكثر بكثير مما تدره سواها من المهن، باعتبار معطيات قانون العرض والطلب، وهي مهنة «النسابين»: فاستجابة لطلب السوق تضاعف عدد النسابين الذين يفترض بأنهم قادرون على تتبع جذور شجرة سلالة العائلة إلى الإمام علي (كرم الله وجهه) كي تحظى تلك العائلة بصفة الشرف توارثاً. وقد زادت قوة إندفاع وحرف هذه الموجة بسبب «الخوف» من تهمة «التابعية» (أي التابعية لأصل غير عربي، خاصة إيراني)، قبل وأثناء الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨م)، وهي تهمة كانت كافية لتسفير المرء أو العائلة برمتها، بعد حرمانه وحرمانها من كافة حقوق المواطنة، إلى إيران. هكذا تم حرمان الآلاف من أطفال المدارس والشبان من الجامعات وتم طرد المئات من الوظائف العامة بسبب أصولهم الإيرانية، ناهيك عن مصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة. وقد شكلت هذه السياسة القصيرة النظر فرصة ذهبية للدجالين، المجهزين بكتب الأنساب وبشجرات العوائل وجداول الأنساب المزيفة، من أجل إفتراس الأسر الغنية المرعوبة من تهديد التسفير ومصادرة

الأموال عن طريق تحقيق اصولها العربية، بل والعلوية على نحو خاص من خلال إستلال شجرات عوائل مهيأة مسبقاً، مرفقة بـ«شهادات» مكتوبة وموقعة وموثقة، شهادات لا يمكن لأحد أن يشكك بها أو أن يناقشها. بدأت هذه الحمى اصلاً مع تصاعد شوفينية نظام صدام اثناء الحرب ضد إيران، بالرغم من البحث عن الأصول لم يكن مجهزاً بدوافع وإرهاصات «اليكس هيلي» Haley عندما ألف روايته المهمة (الجذور) The Roots.

تكشف الظاهرة الشوفينية أعلاه تخلف كل من الحاكم والمحكوم لأنها تبحث عن الأمجاد في سجلات الموتى الجامعة لغبار الزمن وليس في الإنجازات المشرقة للأحياء. وهي تجسد كذلك عودة القيم الوسيطة التي لم تعد فاعلة في العصر الراهن. لا تستطيع هذه المجتمعات أن تطلق نفسها من مكبلات الماضي لتدشن حقبة جديدة لأناس شجعان يتوثبون إلى الأمام. إنه لمن المفيد أن نلاحظ في هذا السياق أن أكثر الدول العربية في الجزء الآسيوي من العالم العربي تعاني، بل وتديم أنظمتها معضلة مطابقة تخص تأصيل المواطنة؛ أي فيما إذا كان الفرد العادي (من غير الأسر الحاكمة) مواطناً أصيلاً لذلك البلد حسب القيود القديمة والعثمانية، أم أنه غريب تم «تطبيعه» في وقت لاحق. من هنا جاءت فكرة ما يسمى بـ«شهادات الجنسية» الغريبة التي إبتكرتها الحكومة العراقية خلال خمسينيات القرن العشرين بعد إسقاط الجنسية عن يهود العراق، ثم عبر ما تلاها من عقود. ولما صارت «شهادة الجنسية» شرطاً مسبقاً لوطنية الفرد واصالته تحت ظل حكومة البعث، فإنها قد تركت آثاراً ظالمة على «مشكلة البدو» الرحل (المواطنون الذين لا يمتلكون الوثائق التي تدل على إنتسابهم لدولة بعينها)، أي هؤلاء المنتشرين عبر صحارى دول الخليج العربية في المناطق الحدودية المتداخلة خاصة. وليس بأقل أهمية من ذلك هي المشاكل التي تسببها حركات هذه القبائل البدوية

العابرة للحدود الإقليمية بحثاً عن الكلأ والماء منذ أقدم العصور. وقد دلت هذه المشكلة على أنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للأنظمة بقدر تعلق الأمر بالحركة الموسمية لهذه القبائل عبر الأراضي الغنية بالبترول بين المملكة العربية السعودية وقطر، وبين العراق والكويت والسعودية، إذا ما شاء المرء تحديد بعض معالمها، علماً بأن حكومة الكويت قد اسقطت الجنسية عن عدد من مواطنيها العام الجاري، ٢٠١٤م. في الأردن وسوريا ولبنان، تأخذ هذه المعضلة شكلاً مختلفاً حيث هاجر لهذه الدول آلاف الفلسطينيين النازحين بحثاً عن الملجأ والإستقرار، بعد أن طردهم اليهود وحلوا محلهم في القرى والبلدات الفلسطينية قبل أواسط القرن العشرين. وما زال هؤلاء اللاجئون يشكلون معضلة معقدة تعيق محادثات وجهود السلام في هذا الإقليم غير المستقر، ناهيك عن تعقيدات التعامل معهم كمواطنين «درجة ثانية» في الدول التي لجأوا إليها.

لذا يضطر المرء أن يخلص إلى أن الشرق الأوسط إنما هو إقليم «الشتاتات»، إذا ما قبل هذا اللفظ بمثل هذا السياق، لأن تاريخ الإقليم يتشكل، جوهرياً، من حركات نزوح وهجرات سكانية جماعية متكررة لا تنته، لأقوام كبيرة قدر لها أن تكون أمماً ذات شخصيات ولغات متفردة بآلهتها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها بعد أن تطورت على مسار الزمن وعبر ظروف تاريخية خصتها وعبر الإنجازات والتعاسات المتتالية لأمم عظمى بقيت وزال بعضها، كالسومريين والأكديين والآشوريين والإسرائيليين والفرس والفينيقيين والكرد والعرب والبابليين والترك، من بين سواها من الأمم التي تداخلت تقاليدها الروحية وتفاعلت بعضها ببعض على نحو متواصل عبر الأزمنة المتتالية بينما جُفرت «رسائل الدم» السرية على نحو أنماط نفسية أسطورية جمعية في عروق هذه الشعوب غير المحظوظة وغير القادرة على تحرير نفسها من أحلام الأسلاف المحفوظة والمدامة

من قبل طغاة لا إله لهم سوى إله البقاء في السلطة، طغاة تتبعوا خطى أجدادهم القساة صعوداً حتى جلجامش الذي جعل الناس يستنجدون بإله «أوروك» (العراق)، مشتكين،

من إلاهة جعلته قوياً كثور متوحش، فلا أحد يمكن أن يصد ساعديه القويتان. لم يبق ولد مع والده، لأن جلجامش هذا يأخذهم جميعاً؛ فهل هذا هو الملك، راعي الشعب؟ الذي لا تستثني شهواته عذراءً فتتركها لعاشقها، ولا إبنة لمحارب ولا زوجة لنبيل[٨].

لأن قدرها التعاسة المتواصلة، لم تعد شعوب الشرق الأوسط قادرة على التمييز بين الرب الجبار العليم وبين أنصاف الآلهة أو أنصاف الآلهة من سلالة جلجامش.

الفصل السادس

المفارقة الخامسة:

الدولة نقيض للثقافة

أيَّ مَحَلٍّ أرْتَقي   أيَّ عَظيمٍ أتّقي
وَكُلّ مَا قَدْ خَلَقَ الله   وَما لَمْ يُخْلَقِ
مُحْتَقَرٌ في هِمّتي   كَشَعْرَةٍ في مَفْرِقي

❖المتنبي

عشق العقيد الراحل معمر القذافي، دكتاتور «الجماهيرية» التي حكمها على نحو شمولي مطلق لثلاثة وأربعين عاماً، الحياة والتقاليد البدوية بشكل إستثنائي، عارضاً لها ومتفاخراً بها عبر جلسات تأمل متلفزة عبر الضواحي المتصحرة للمدن الليبية الساحلية، تلك المدن التي لا تزيد عن إمتدادات صحراوية تتداخل مع أذرع ضواحي تلك المدن، ومنها العاصمة، طرابلس الغرب، أو سواها من المراكز الحضرية. وتعبيراً عن هذا الإفتتان بالبداوة، ثابر القذافي على الحفاظ دائماً على خيمة بدوية مصنوعة من وبر الجمل حيث كان يتعمد إستقبال ضيوفه من الشخصيات الكبيرة والوفود الرسمية الأجنبية فيها، مؤكداً على تصوير كل تفصيل، مهما كان صغيراً للخيمة وللإستقبالات والمراسيم التي تجري بداخلها. جسدت هذه الخيمة التي إشتهرت على مستوى

عالمي لهذا السبب (رمزاً للذهنية البدوية ولذلك النمط من الوجود الصحراوي الذي يطفو بلا هدف عبر مدار لا زمني) «مشيخة»[١] القذافي المتميزة التي أوحت بها له لا نهائية الصحارى. واحدة من فوائد الخيمة، لا ريب، تمثلت في سهولة حملها ونقلها ونصبها خاصة وأن سكان الخيمة يمكن أن يقسموا فضاء الخيمة الداخلي بقطع من نفس نسيجها البدائي إلى عدة أقسام لتشكيل حجرات منفصلة في الداخل، كما أن لهم حرية توسيعها وتصغيرها بحسب إحتياجاتهم المتغيرة. زد على ذلك إمكانية نصب الخيمة بسرعة حيثما وجد الإنسان البدوي الماء لنفسه والكلأ لقطعانه. وكما كان يفعل البدو قديماً، عمد القذافي إلى رفض فكرة النزول في المساكن الراقية التي كان يقدمها له مضيفوه الأوروبيون في زياراته الرسمية لعواصمهم، كما تجسد ذلك عندما زار القذافي روما، عاصمة الدولة التي سبق وأن إستعمرت ليبيا. عندما خيم القذافي خارج قصور روما الإمبراطورية الفاخرة، مفضلاً الخيمة على الإستجابة لرغبة مضيفه الذي لا يقل عنه غرابة أطوار، سلفيو برلسكوني، فإنه حاول إطلاق خطاب ثقافي على سبيل الإقلال من شأن أبهة المستعمرين السابقين لبلده، وهو ما أكده على نحو مثير للملاحظة والتندر من خلال الصور الشخصية الكبيرة الحجم لمناضلين ليبيين ثبتها على صدره وهو ببزته العسكرية المفرطة التزويق. وعلى نحو يذكرنا بصديقه السابق، الجنرال عيدي أمين، حاول القذافي أن يستفز مستضيفيه الأوروبيين ليؤكد لمواطنيه داخل ليبيا على قوة مشاعره الوطنية من خلال هذا النوع من «الحركات» غير المسبوقة. تتجسد المفارقة في أن تشبث القذافي بمثل هذه العروض الإستعراضية لم يكن بذا أهمية كافية بالنسبة لزملائه من الحكّام العرب خاصة في دول الخليج العربي، بدليل أنهم سرعان ما أيدوا ثم دعموا التمرد على سلطته بصراحة وبقوة، ذلك التمرد الذي أنهى عهده بقتله،

ولكن بمساعدة طيران حلف الناتو سنة ٢٠١٢م. كان من المهم بالنسبة للقذافي وعنايته بالعروض شبه المسرحية هو الإيحاء بأنه قائد تأملي قادر على إطلاق شذرات العبقرية الآيديولوجية والثقافية، كتلك «الشذرات» التي جمعت في صفحات (الكتاب الأخضر).

كانت إستقبالات العقيد القذافي المسرحية لضيوفه محاولات لتصنيف الذات في صنف من الصنفين الأساس للطغاة الذين حكموا الدول العربية لما لا يقل عن ثمانية عقود لأنهم كانوا أما ضباطاً في الجيش، من نوعه هو، أي من هؤلاء الذين إستولوا على السلطة باحتلال البلاط الملكي وإذاعة البيان الأول عبر دار الإذاعة، أو أنهم كانوا من شيوخ القبائل الذين أحالتهم القوى العظمى إلى ملوك أو أمراء، مبادرة تقدير من تلك القوى لتعاونهم وتنسيقهم معها.

يبدو أن القذافي كان يرغب بأن يظهر وكأنه «مختلف قليلاً» عن نمطي الطغاة أعلاه باعتبار غياب صلتهم بـ«قضايا العقل». هم يمكن أن يكونوا ضباطاً مشاة أشداء، أو شيوخاً كرماء يطعمون الضيف، أو صقارين ذوي بصر قوي أو حداة جمال صبورين؛ ولكنهم لا يمكن قط أن يكونوا فنانين او مفكرين مبدعين. لذا إعتمدت سلطتهم على إدارة الهيمنة المحكمة على دفق البترودولار الأسطوري المترافق مع التوظيف غير الرحيم للعنف الذي قدمته أجهزة وأدوات أمنية قاسية ذات إمتيازات إستثنائية تضمن لها بقاء الوجود الإجتماعي القديم والمتخلف الذي إمتطاه هذا النوع من أولي الأمر فسيروه حسب أهوائهم.

أضحى النموذج المفترض للحاكم العربي المسلم، كذلك الذي أطلقت عليه لفظ «ذي الولايتين» في المفارقة الرابعة، رجلاً له الهيمنة المطلقة على شؤون الحرب وشؤون السلام في آن واحد، وهي الفكرة الجوهرية المهيمنة على هؤلاء الحكّام. هذا النموذج الشمولي يضم

نموذج «الآمر»، آمر رجال السيف ورجال القلم في آن واحد. لقد أوحت الشواخص الوسيطة بهذا النموذج درجة الهيمنة على عقول هؤلاء الحكّام لأنهم أرادوا أن يبدون «فلتات» زمانهم التي لا مثيل لها. إذ بينما هم يحصلون على أرفع المراتب والنياشين العسكرية فجأة بوصفهم مخططين إستراتيجيين ومحاربين أشداء عبر البث التلفزيوني المحلي، فإنهم يحاولون، في الوقت ذاته عرض طبائعهم الأكثر رقة على الجمهور: في مجالات مساعدة الفقراء ومعاونة الضعفاء والعناية بحقوق المرأة. هم التجسيد المثالي لفروسية القرون الوسطى، فلأن الفارس كان يحاول دائماً أن يكمل «ديكوره» المبهرج عبر رعاية الشعراء والكتّاب، تراهم يثابرون على إظهار مراحل حكمهم بوصفها مراحل إزدهار ثقافي ذهبية شهدت تشجيع الأنشطة الثقافية. من هذا المنطلق، جاءت المهرجانات الثقافية والمراكز البحثية والجوائز النقدية الكبيرة المحلاة باسماء الطغاة الذين يتكرمون بإطلاق أسمائهم الشخصية على الجامعات والمهرجانات والمسارح والجمعيات والمجمعات السكنية والمكتبات، من بين سواها من المشاريع والشواخص الثقافية أو التربوية التي تشهدها عهودهم السعيدة.

لو شاء المرء أن يعّرف السجايا المتعددة الجوانب لطاغية من طغاة الإقليم، فإن عليه أن يواشجه بفكرة «ظل الله» التي سبقت مناقشتها في الفصل السابق لأن الشراكة مع الربوبية تمنح «البطل الوطني» المتميز صفات إستثنائية ترفع من شأنه أكثر فأكثر فوق مستوى سواد الناس. من منظور معين، ينطوي هذا الإيحاء الملحاح والمتعمد على إمتلاك الطاغية وعكسه لوظيفتي الألوهية، الثواب والعقاب. الثواب يظهر الطبيعة الطيبة للحاكم، بينما يظهر العقاب الطبيعة القاسية غير الرحيمة له. جسّد صدام حسين سلوكيات فروسية القرون الوسطى المستوحاة من أجواء حكايات

(ألف ليلة وليلة) خلال حرب السنوات الثماني بين العراق وإيران من خلال الطلعات العسكرية، التي قام بها بالقرب من خطوط النار محاطاً بآلاف من رجال الحماية، إذ تصاعد الأمر درجة إعدام ضباط أو جنود «خونة» فوراً لأنهم لم يتمكنوا من إظهار ما يكفي من البسالة في العمليات العسكرية ضد «قطعان المجوس»، حسب ألفاظ إعلام نظامه، من الجنود الإيرانيين الذين راحوا يهاجمون الخنادق العراقية. يشاع أنه صادف، مرة، ضابطاً شاباً كان متعاطفاً مع العدو الإيراني «المسلم»، فتردد هذا الضابط المسكين في القتال بما يكفي من العنف و«الإستبسال»، لذا أمر صدام حسين بربطه بصاروخ سكود أرض - أرض وإطلاقه إلى العدو الذي كان الضابط متعاطفاً معه، قائلاً له: «إلتحق بهم إن كنت تحبهم!» قصد لهذا النوع من البطش والقساوة أن ينتشر بين الجنود والمواطنين العراقيين بسرعة بوصفه جانباً من جوانب القيادة العسكرية المثالية، حسب المعايير التي كانت سائدة في العراق عبر ثمانينيات القرن الماضي. لقد عمد الإعلام، بمعاونة الأجهزة الإستخبارية، على مقاربة قصص القساوة المخيفة مع صور صدام حسين وهو يذرف الدموع المتكررة التي كانت تظهر عبر شاشات التلفاز الرسمي في خطاباته، مستذكراً الجنود العراقيين الذين فقدوا حياتهم في غمار حربه على إيران. لقد تم إعتماد هذا النوع من التكتيك العسكري والنفسي عبر ماكنة وسائل الإعلام، جهداً يسهم في صناعة صورة القائد الملونة.

لقد إشترك طغاة آخرون في إستثنائية صدام حسين المفترضة بالميدان العسكري، إذ عمدوا إلى تذكير مواطنيهم بـ«الطبيعتين» المختلفتين للقائد التاريخي الذي كان قاسياً على نحو «بطولي» ورحيماً على نحو «بطولي» في آن واحد. بقي الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠م) يلوح بسيفه ذي الحدين على شاشات التلفاز، متوعداً بتقديم

الإسرائيليين طعاماً لأسماك البحر المتوسط، حتى قدم لمصر والعالم العربي، على نحو بطولي، واحدة من أكثر الهزائم إيلاماً في تاريخ مصر والعالم العربي سنة ١٩٦٧م.

ينطبق هذا الجنس من البطولات كذلك على الرئيس السوري السابق حافظ الأسد (١٩٣٠-٢٠٠٠م)، إذ إنه عد خسارة مرتفعات الجولان للإسرائيليين نصراً عظيماً عبر إحتلال لبنان ووضع هذا البلد الجميل المتنوع رهينة في قبضته لعقود. هناك دائماً وجهان للحاكم الشمولي في الشرق الأوسط، لأنه يبقى من رواسب أو تجليات شخصية «السلطان» النزق والمزاجي الذي تمور به حكايات (ألف ليلة وليلة).

قد يكون مهماً أن نلاحظ أن هذه الطبيعة المزدوجة للطاغية الشرق أوسطي تكون دائماً بدرجة من قوة الإشعاع أن قبسات منها تنعكس على أبنائه أو إخوانه وأقاربه وسواهم من أفراد قبيلته على نحو تلقائي، وهي حال تبرر له تسمية هؤلاء الأقارب للوظائف العامة والحساسة. لا نقاش في أن أقارب الطاغية يكونوا أكثر وطنية وأكثر كفاءة من سواهم من المواطنين لتسنم هذا النوع من الوظائف المهمة بناء على قرابتهم من الطاغية، أي من مصدر الإشعاع.

إن إشعاع الطاغية على أقاربه وإكتسابهم من «ومضاته» لا يمكن، بطبيعة الحال، أن يغمط الحقيقة النهائية المطلوب إيصالها للجمهور، بأنه هو فقط الذي يتفوق على الجميع مقارنة بالآخرين دفعة واحدة. وعلى سبيل إستذكار إحدى بلاغيات رأي أحد سكرتيري صدام، يكون صدام هو (القائد المفكر)[٢]، جزءاً من ديماغوغيات عهده، إضافة لكونه «الرئيس القائد» والقائد العسكري الملهم والبعيد النظر.

عندما سمي صدام حسين رئيساً منتخباً، مرة أخرى، عن طريق «إستفتاء على رجل واحد» لثالث فترة رئاسية من سبع سنوات متتالية،

أشر عزت الدوري، نائبه الذي لا يقل عنه ثباتاً الإحتفال البرلماني الخاص بهذه المناسبة باهدائه سيفاً وقلماً، رمزان لإزدواجية جوانب فروسية العبقري القادم من القرون الوسطى. وكاستجابة للهدية، ألقى صدام حسين نظرة سريعة على القلم وسلمه لمرافقه؛ ثم لوّح بالسيف عالياً أمام المشاهدين الذين كان جلهم من المسؤولين الحكوميين المهمين والقادة العسكريين وأعضاء حزب البعث من الكادر المتقدم، وكأنه يريد أن يدق رقابهم، كان هذا التلويح علامة تحذير تذكر هؤلاء المشاهدين المهمين أعلاه بمصائرهم إن هم أخفقوا أن يرقوا إلى ما يريد.

هناك قادة آخرون في دول الشرق الأوسط عبّروا عن هذا النوع من عقد النقص عن طريق الإصرار على إضافة لقب «دكتور» على أسمائهم كلما ظهرت على نشرة الأخبار أو في المناسبات العامة، علماً بأن هذه الظاهرة تعد من خصوصيات الإقليم التي لا يشترك معه بها أي مكان آخر. إنه لمن المهم للغاية بالنسبة للطغاة التأكيد على تميز شخصياتهم المتحضرة والمتعددة المواهب. لقد تواصل التوكيد الملحاح لتقديم الذات، ليس كقائد واعٍ للثقافة حسب، بل كذلك كشاخص ثقافي متميز بنفسه كذلك، درجة مفاجأة الجمهور بنشر رواية أو ديوان شعر على شكل كتاب أنيق، متكامل التجليد والتذهيب، كي يزيد الطاغية من تعقيد الإستيعاب وشائكية الإستقبال الشعبي العام لهذا النوع من القادة الرومانسيين، مع شيء من صفات «البطل البايروني» the Byronic hero الكامن في دواخل كل واحد منهم. ينبغي للمواطنين أن يكونوا على أهبة الإستعداد دائماً لمثل هذه الومضات العبقرية المفاجئة التي لم يسمع أحد بها فيما سبق، خاصة وأنها تبقى تنطلق من تلك العبقرية غير الناضبة من آن لآخر. تحت حكم صدام حسين، إعتاد العراقيون على رؤية جانب جديد أو غير مكتشف من شخصية «القائد الضرورة»: فقد فوجئوا في أحد الأيام

بالقدرات الجسمية للطاغية، عندما تحدى صدام حسين الرئيس الأميركي، بيل كلينتون، فيما إذا كان الأخير قادراً على عبور نهر دجلة سباحة كما فعل صدام ذلك أمام الكاميرات، محاطاً بعشرات من رجال الحماية؛ وفي مناسبة أخرى، فوجئ العراقيون بـ«القائد التاريخي» فارساً وهو يفتتح عرضاً عسكرياً ممتطياً صهوة حصان. هذه التذكيرات المتكررة باستثنائية الشخصية وتفوقها هي من أسرار الإبقاء على السلطة، لأنها تنطوي على الخلاصة التي تفيد بـ«إني الأنسب والأقوى والأكثر حكمة والأكثر رقة». وبقدر تعلق الأمر بالسجية الأخيرة أعلاه، أظهر صدام مرة تفصيلاً خفياً عن شخصيته، عاشقاً رومانسياً رقيقاً، عندما فوجئ المثقفون العراقيون والعرب عامة بـ«رواية» سيروية قصيرة تسرد قصة حبه، من تأليف «كاتبها»، وهو إسم قلمي لكاتب مجهول. هذه الرواية أو المغامرة العاطفية لا تتسبب بفضيحة لرجل متزوج مثل صدام في عالم لم يزل حبيساً بخيالات (ألف ليلة وليلة) التي تمجد تعدد الزوجات و«الشخصية الدونجوانية»، نظراً لإستثنائية شخصيتها المركزية المغامرة.

هكذا يعتقد الحكّام الشموليون أنهم يسهمون في المخرجات الثقافية المتحضرة لشعوبهم بذات الطريقة التي يقتسمون بها ثروة الأمة مع تلك الشعوب. لذا لا يكون تقديرهم العالي للأنشطة الثقافية ورعايتها شيئاً مفاجئاً، محاكاة لسابقيهم من حكّام العصر الوسيط الذين كانوا يضعون قصائد المدح التي تطريهم على الميزان لمكافأتها بما يساوي وزنها ذهباً، تقديراً للتملق والرياء[٣]. في تلك القرون الوسطى، كان دور الشعراء أشبه بدور الصحفيين والإعلاميين من مشكلي الرأي العام اليوم، الأمر الذي أوجب كسبهم من قبل الملوك والأمراء، خاصة عندما يتنافس على الفوز بهم ملوك أو أمراء آخرين. يمكن لقصيدة في هجاء الملك أن تقلب حظوظه رأساً على عقب. يحكى أن شاعراً كان قد سمع بأن الأمير سيزن قصيدته

ذهباً كمكافأة لمدحه، فعمد إلى حفر كلماتها على صخرة ثقيلة ليقدمها للأمير كي يكافئه بما يساوي وزن الصخرة من الذهب. قد يكون مناسباً أن نلاحظ في هذا السياق، أن آخر وزراء صدام للثقافة، السيد حامد يوسف حمادي، قال: «ولم لا نفعل ذات الشيء مع الشعراء والكتّاب والمفكرين اليوم؟» بمعنى أن نكافئ أعمالهم بما يساوي أوزانها من الذهب الصافي. ولا يدري المرء فيما إن كان هذا إستفهاماً حقيقياً أم بلاغياً، لكنه يعكس تواصل ذهنية الرعاية الوسيطة. ولكن، لسوء الطالع، لم يكن بوسع هذا الوزير أن يحقق ذلك بسبب العقوبات الإقتصادية التي كانت تفرضها الأمم المتحدة على العراق عقب حرب ١٩٩٠م.

لا تشبه إدعاءات الطغاة بالتفوق الثقافي وبالإستثنائية الفكرية قط إدعاءاتهم بالتفوق العسكري لأن النوع الأول من الإدعاءات يتسبب بالكثير من ردود الأفعال السلبية. هي تثير أعصاب نخبة المفكرين التي تزدري العبث بفضائها من قبل دخلاء دكتاتوريين. لذا تزداد التوترات والشكوك المتبادلة حتى تهيمن فتشكل العلاقة بين الدكتاتور والنخبة الفكرية، خاصة وأن دولة الدكتاتور دائمة الوعي بأن أهمية صلتها بالثقافة تنبع من الإجابة على سؤال: «معها» أو «ضدها»؟ بدون خيار ثالث. هذا هو سبب الإنشقاقات المتكررة وغير المتوقعة للكتّاب والفنانين الذين يختفون فجأة، ثم يظهرون على حين غرة في مقاهي المدن البعيدة كلندن وباريس وكوبنهاكن حيث يبقون هناك، منشدين منفردين في فضاءات غير مأهولة.

عندما إنطلقت ما تسمى بـ«النهضة العربية الإسلامية» من تأملات المفكرين الذين سبقت الإشارة إليهم، عدت الحداثة مسألة تكنولوجيا وتمدن وتطوير آليات الدولة الإدارية، مع عين دائمة التركيز على النماذج الأوروبية التي بقيت مثلاً لدول ومفكري الشرق الأوسط على

حد سواء. كانت الحداثة بالنسبة لأساطين النهضة كانت كذلك مسألة متعلقة بالعقل وبتثقيفه، ليس فقط من خلال العناية بالتراث الوسيط، ولكن كذلك من خلال محاكاة وإكتساب عادات تفكير من الشواخص الثقافية الأوروبية الأجنبية. قادت هذه المحاولة الأخيرة إلى أنشطة الإستلام والهضم وإعادة إنتاج الفكر الغربي المعاصر الذي كان يحظى بالتقدير العالي بوصفه العمود الفقري لتقدم أوروبا. من هنا إنطلق التيار المحاكاتي الكاسح الذي شمل الدوائر الفكرية عبر الشرق الأوسط بمساعدة حركة الترجمة والتعريب السابقة الذكر. ولكن، في نهاية المطاف، تفوقت نزعة المحاكاة حتى طغت لأنها عدت أفضل الطرق للتعلم عبر مرحلة تاريخية طويلة شهدت عقم الإبداع. قد تتجاوز المحاكاة حدودها كما كانت عليه الحال في بعض الأقاليم عندما إستهلكت وأطفأت أكثر مصادر الإبداع والإبتكار بصعودها وطغيانها. على الرغم من أصالته الفكرية، إدعى السيد جمال الدين الأفغاني، في مناظرته الشهيرة مع آرنست رينان Renan، أن التدخين هو أحد أسباب تفوق العقل الأوروبي في عقلنة المسائل المجردة وفي الميزات التأملية. أشر هذا المفهوم الخاطئ الإرباك الفكري في الشرق الأوسط مع الإستفهام المضني حول أسباب تقدم الأوروبيين أسرع وأكثر «منا»؟ لقد تواصل هذا القلق على نحو ملحاح عبر الفترة العثمانية، إذ كان على الأفغاني معاناة نزق ونزوات السلاطين والأمراء المزاجيين في الشرق الأوسط الذين كانوا يستضيفونه، ثم ما يلبث الشك أن يراودهم بقيامه بأنشطة سرية ضد أمنهم. بقي الأفغاني كذلك، بينما راح يتنقل من بلاط لآخر، حتى لفظ المسكين أنفاسه الأخيرة حزيناً من مرض عضال غامض أصاب فكيه وبلاعيمه بسبب التدخين المفرط، على أغلب الظن. يجهزنا إرتباك الأفغاني حيال أسئلة التطور والتقدم بلمحة مفيدة حول أزمة المفكر العربي أو المسلم عبر

القرن التاسع عشر عبر الشرق الأوسط، خاصة وأن هذا المفكر قد تخندق ضد إستبداد السلطة. وقد بقي الأفغاني تحت المراقبة أينما ذهب على نحو متواصل كما كانت تساء معاملته من آن لآخر لأنه كان يغير شخصيته وآرائه وهويته كلما إنتقل من عاصمة في الإقليم لأخرى، ومن منفى إلى آخر، مستعدياً كل واحد تقريباً من طغاة عصره في نهاية المطاف. لسوء الطالع، يتوجب على المفكرين الأحرار في الشرق الأوسط أن يناوروا متحركين من مخبأ لآخر حتى تحضرهم المنية دون ترك أثر لمواقفهم الحقة ولشخصياتهم الحقيقية. عندما إلتحق الأفغاني بالمحفل الماسوني في مصر، فلا بد من أنه كان يعتقد بأنه سيرتقي فوق الهويات الثانوية للدين والعنصر والموقف السياسي، إلّا أن ذلك لم يجدِ نفعاً. حتى هذه اللحظة ليس هناك من يستطيع أن يجزم فيما لو أنه كان شيعياً أم سنياً أو حتى مسلماً بالمعنى التقليدي للفظ. كان هذا هو مأزق الإنتلجينتسيا في إقليم تمتطيه التناقضات والدكتاتوريات والخرافات والأحلام والكوابيس. لذا فإن عقلاً ذكياً كعقل الأفغاني نحى منحى متلوناً يشبه الحرباء[٤] للتخلص من التصفية الجسدية أو الفكرية. وباعتبار هذا المعنى، وبحسب علاقته المكهربة مع جميع مراكز سلطة الدولة في عصره، جسد الأفغاني سابقة واضحة المعالم لأزمة المفكرين العرب، أي لأسطورة سيزيف الوجودية التي تؤشر لا جدوى جهد التناغم مع الذات ومع المجتمع والدولة. إستبق الأفغاني إغتراب الذين ظهروا من بعده من المحاكين والمتمردين والتابعين الذين قدر لهم أن يعانوا.

عندما إكتسبت دول الشرق الأوسط الفتية الإستقلال السياسي الذي أنتجه لها المنتصرون الكولونياليون الأوروبيون بعد الحرب العالمية الأولى، إنطلقت حكومات هذه الدول في برامج محاكاة متتبعة خطى جمهورية تركيا الجديدة التي ولدت بعد سقوط الدولة العثمانية، إضافة

على تتبع خطى الأنظمة الأوروبية الشمولية، وهي حال أبقت على أزمة المفكر الشرق أوسطي مستعرة دون حل أو تغير. بدا من المهم بالنسبة للأنظمة الحاكمة في دول الشرق الأوسط الحديثة الولادة أن تشكل النخب الثقافية على مرامها وفقاً لمتطلبات النظام القائم وتفضيلاته، خاصة في العالم العربي الذي إعتمد رسمياً موقفاً قومياً كان متناقضاً مع تطلعات النخب الثقافية الأكثر نزوعاً لليبرالية. لذا زاد توتر هذه النخب القلقة.

هذه هي العلاقة الإشكالية التي أوجبت على الأنظمة مأسسة الثقافة ونظم التربية على ذات المنوال الذي تتبعه عندما تضع خطط الزراعة والعناية الصحية والخدمات البلدية، من بين سواها من القطاعات المهمة في «بدلة جاهزة»، مع المخصصات والميزانيات لكل مؤسسة منها. ولأن النخبة الثقافية غالباً ما لا تستجيب للصيغ المفروضة من الأعلى، كان لزاماً على الأنظمة الشمولية أن تراقب وتخترق النخب الثقافية أما عبر التجسس أو بالرشوة، إذ راحت تعين مثقفين منتقين يؤيدونها في الدوائر العامة التي تدير ذلك الإبتكار الشرق أوسطي الخاص المسمى بـ«الثقافة الموجهة» التي يفترض أن تخدم أغراضاً وطنية ودينية وتربوية عامة، بحسب التبريرات التي كانت قد استدينت من تجربة «الرايخ الثالث» وما شاكله من أنظمة شمولية. لذا لم يكن صعباً قط إيجاد وتسويق التبريرات الضرورية لوجود أو لفرض منظور واحد للحياة يشترك به الجميع تحت عنوان سياسات «الثقافة الموجهة» غير القابلة للنقاش أو الإعتراض، تحت شعار «نفذ، ثم ناقش»، خاصة في أزمنة العسكرة والحروب التي كانت دوماً يسيرة الإختلاق والإعلان لتعبئة الجمهور لها: الحرب ضد الإستعمار، والحرب ضد الأمية والحرب ضد الرجعية والتخلف والحرب ضد إسرائيل، وأخيراً الحرب ضد إيران الشيعية. لا

ريب في أن عسكرة الثقافة في العراق قد شوهت الثقافة العراقية لأن بلاغيات الحرب ومصطلحاتها لا بد أن تزحف نحو الأنشطة السلمية التي لا صلة لها بالأسلحة النارية، كما كانت عليه الحال في «المعركة» ضد الإقطاع، ناهيك عن التعبير «المدهش» الذي وظفه البعثيون ببغداد، وهو تعبير «التنمية الإنفجارية»، لتعزيز «الثورة الزراعية»! كانت تلك جميعاً حروباً ومعارك وثورات عنيفة توجب على الجمهور دخولها ببسالة كي يبقى الشعب متأهباً لأنواع المواجهات على نحو متواصل، مستذكراً بأنه إنما يؤدي دوراً إستثنائياً تحت أضواء التاريخ الساطعة. كان الإيحاء للمواطن والجمهور بالعمل في ميدان معركة أو أجواء حرب متخيلة أو ثورة، وليس في جو طبيعي سلمي، ليس بمهمة هينة لأنها تتطلب ماكنة إعلام تعبوية هائلة الحجم تختص بالدعاية القادرة على إعمام التنويم المغناطيسي الجماعي بإدارة بلاغيين أذكياء، متمكنين من اللغة ومن فنون الإقناع.

في مصر والعراق وسوريا عبر عهودها الجمهورية، إعتمدت الدولة الآيديولوجية القومية العربية، ليس فقط لمحاكاة الدول القومية في أوروبا، ولكن كذلك للإبقاء على دافعية «تحرير فلسطين» فاعلة. ولكن لسوء الطالع، شجع هذا الإتجاه وكرس شوفينية شبه نازية في وقت كانت فيه إسرائيل تعزز من كونها دولة كاملة المعالم. لقد خدم الوجود الدائم لثمة «عدو» الأنظمة القومية على نحو كبير لأنه جهزها بالتعبئة التي هي بأمس الحاجة إليها لأغراض متعددة، منها عسكرة المجتمع وتبرير فرض الأحكّام العرفية وفرض قوانين الطوارئ، ناهيك عن أهمية صناعة العدو في تبرير الإخفاقات الداخلية والخارجية. في العراق، على عهد الرئيس السابق أحمد حسن البكر الذي رفع شعار «كل شيء من أجل المعركة» (أي، المعركة ضد إسرائيل)، تجسد الأمر على نحو أنه قاد

إلى حرف الثقافة عن أغراضها السلمية السامية، وهي حال تسببت بظهور أشكال متنوعة من «أدب الحرب»، ليس لإشاعة ثقافة السلام وفضائلها كما كان عليه أدب الحرب في أوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولكن لتغذية الكراهية والضغائن على مختلف أنواعها، الدينية والعنصرية والطائفية. كان تأثير حمى الحروب بدرجة من القوة في قوته التشويهية درجة أن الإنسان العربي لم يعد يرقد في فراشه ليلاً دون تحسس خنجره الشخصي مخبأ تحت وسادته، خشية أن يكون هدفاً لهجوم عدو ما في أية لحظة! إنه إنذار دائم. وقد قادت العواطف المضادة لليهود (جزءاً من عمليات صناعة الأعداء المتواصلة)، ليس لنزوح آخر اليهود من دول الشرق الأوسط إلى إسرائيل، ولكن كذلك إلى الحذف الأحمق لجزء مهم من الثقافة التي أنتجها الكتّاب والفنانون اليهود الذين أسهموا كثيراً في تشكيل ثقافات الشرق الأوسط خاصة في العراق ومصر وسوريا. كان لزوماً على هذه الأنظمة القصيرة النظر تجاوز أسماء يهودية مهمة، أما لأنها أسماء يهودية واضحة المعالم، وإما لأن اليهود أسهموا بقوة في الحركات اليسارية والشيوعية. اليهودي الوحيد الذي تجاوز إختبار الشوفينية العمياء في العراق كان المؤرخ الشهير والباحث التوراتي الراحل المرحوم الدكتور أحمد سوسة الذي سبق أن أعلن إعتناقه الإسلام. لقد تجاوز سوسة موجة الأحقاد والضغائن بسبب اعتناقه الإسلام، ثم توفي بسلام في العراق محاطاً بالمجلدات التي ألّفها وبابنته، المرحومة الدكتورة عالية أحمد سوسة وببعض الأصدقاء، علماً بأن الأخيرة قد فقدت حياتها بتفجير إرهابي إستهدف مقر الأمم المتحدة ببغداد.

حوالي سنة (١٩٨٤-١٩٨٥م) وأثناء إستعار الحرب العراقية الإيرانية، ساء حظ كاتب هذه الأسطر بتجربة رعب من تجارب «جمهورية الخوف»[٥]، إذا ما إستعرنا تعبير الكاتب العراقي سمير

الخليل حول عهد حزب البعث (١٩٦٨-٢٠٠٣م)، إذ إنه إستلم أمراً إدارياً يقضي بوجوب إفراغ جميع المكتبات الأكاديمية العراقية من المطبوعات ذات الصلة بالفرس أو بالإيرانيين، ومنها مكتبة قسم اللغة الإنكليزية العملاقة بكلية الآداب حيث كان الكاتب مدرساً آنذاك في ذلك القسم. وبطبيعة الحال، كانت المكتبة المصادرة والمنقولة أصلاً، من كلية الحكمة (الأميركية) ببغداد، تحتوي على أعداد كبيرة من المؤلفات الإستشراقية المهمة، التي شملت أعمالاً يمكن (بطريقة أو أخرى) أن تؤل بأنها مضادة للعرب أو صديقة للفرس (يعتمد الأمر على طريقة القراءة والتفسير). عدت مهمة تصفية هذه الكتب «واجباً وطنياً» خص به الأساتذة الشيعة فقط. والهدف كان هو التأكد من عدم وجود أي مطبوع من النوع المحابي لإيران أو للإيرانيين، حتى وإن كان تاريخاً لرحلة. كانت تلك تجربة مرعبة بحق، لأنك إن صادف وأن مرّ عليك كتاب فيه ما يحابي الإيرانيين سهواً، دون عزله للمحرقة، فإنك تكون عرضة للإتهام بالخيانة في «زمن الحرب»! وعلى سبيل حفظ النفس وحمايتها من هذا النوع من التهم القاتلة آنذاك، إضطر المفتش إلى «إعدام» مئات الكتب الثمينة، ومنها تواريخ ودراسات ثقافية ومصادر أساسية وأخرى ثانوية وكتب إرتحال نادرة، من بين سواها من المطبوعات المهمة. حتى لو وجد المفتش خارطة كتبت عليها عبارة «الخليج الفارسي» توجب عليه إزالتها وإرسالها إلى الـ«هلوكوست» الثقافي. إنه لمن الطريف أن يلاحظ المرء أن كراهية نظام صدام حسين للعجم لم تستثن كتّاباً وشعراء عرباً مهمين. لقد عزلت واحدة من أعظم جواهر الأدب العربي في العصر الوسيط، (رسائل إخوان الصفا)، إذ تم منعها من التداول، بينما تم منع شعر «بشار بن برد» بسبب ما نسب إليه من آراء «شعوبية»[٦] منطوية على إنحياز للفرس. محمد مهدي الجواهري، الشاعر الذي يعده النقاد ومؤرخو الأدب آنذاك، واحداً

من أعظم شعراء العربية، وقع ضحية للغضب المضاد للفرس على إفتراض أصوله المختلطة العربية والفارسية. وهكذا إضطر «شاعر العرب الأكبر»، كما كانت عليه مأساة الأفغاني لقضاء أغنى سني حياته وأكثرها إنتاجاً متنقلاً عبر المنافي، بالرغم من عده «أمير شعراء» عصره. وإضافة على الجواهري، إختار عدد آخر من الشعراء العراقيين حياة الإغتراب هروباً من الإضطهاد وتجنباً للنقمة، ومنهم مظفر النواب وسعدي يوسف وبلند الحيدري وأحمد مطر وعبد الوهاب البياتي، من بين آخرين. كانت قائمة المفكرين المغتربين طويلة بحق عبر سنوات حكم حزب البعث (٣٥ سنة بالتحديد).

لقد خلق الرصد والضغط المستمرين على المثقفين والمفكرين من قبل الدولة في العراق، كما في سواه من دول الإقليم، تناقضاً صارخاً للإدعاء بأن الدولة تدعم الثقافة في وقت كانت فيه الفجوة بين إدعاءات الدولة بدعم لا مشروط ولا محدود للثقافة، من ناحية، وبين الحقيقة المعاكسة تتسع مع غياب الحرية. لم يكن من الصعب بالنسبة لشخصيات ثقافية مغتربة ذات أصوات عالية، كتلك التي أشرنا إليها أعلاه، إيجاد رعاة لها خارج الوطن، خاصة وأن كسب مثل هذه الأسماء كان مهم بضمن أجواء «الحرب الباردة» غير المعلنة بين الأنظمة الحاكمة في دول الإقليم، العربية منها بالتحديد. يمكن معاينة هذه الظاهرة كصدى تاريخي لإغتراب المفكر العربي وإقتلاعه عبر القرون الوسطى، أي مذ قضى المتنبي (الذي يعده البعض أعظم شعراء العربية على الإطلاق) أغلب حياته متنقلاً من راع لآخر لإستخلاص أفضل ما يمكن منهم جميعاً. لأن كل واحد من أنظمة الشرق الأوسط يدعي بأنه واحة للثقافة، إتبع الشعراء والكتّاب العرب خطوات المتنبي وسواه من أسلافهم في القرون الوسطى، مستثمرين الإدعاءات المذكورة أعلاه ومستغلين

معطيات «الحرب الباردة» بين الأنظمة المتنافسة. لقد شكلت ظاهرة حركية المتنبي، التي حاكاها مثقفو العصر الحديث المتقلب على نحو متواصل بالإنتقال من عاصمة لأخرى، نوعاً جديداً من البداوة، «بداوة االمفكر» الشرق أوسطي التائه في الهوام لوحده فقط. لعنته الأبدية هي لعنة «أوزيروس» Ahasuerus، اليهودي التائه[٧].

عندما قام الرئيس المصري السابق، أنور السادات (١٩١٨-١٩٨١م)، بزيارته التاريخية للقدس (١٩٧٧م)، إتجه عدد كبير من الأدباء والصحفيين والفنانيين المصريين إلى بغداد إحتجاجاً على الزيارة، لأن نظام العراق البعثي أطلق حملة مضادة للسادات، بعد عقد قمة عربية لشجبها، لإستثمار المناسبة وللحلول محل مصر كقيادة للعالم العربي، ولكن فجأة، غادر أكثر هؤلاء المفكرين والفنانين المعارضين العراق (إحتجاجاً كذلك) لينقلبوا على نظام حكمه لحظة إستلام الرئيس مبارك السلطة في مصر بعد عملية إغتيال السادات فجأة أثناء إستعراض مسيرة عسكرية من قبل ناشطين إسلاميين.

بغض النظر عن التوتر المتواصل بين الدولة والثقافة في دول الشرق الأوسط، تبقى الأولى متشبثة بمظهر رعاية الثقافة، ولكن رعايتها ليست رعاية لا مصلحية، لإعتبارات البقاء في السلطة. من هنا إنطلقت الإستعراضات الملحوظة والسخية بين حكّام الإقليم المتنافسين لإستضافة الأنشطة الثقافية وأسابيع الفن والمراكز الفولكلورية والمهرجانات الشعرية، ومنها أنشطة يمكن أن تغطي عاماً كاملاً من العروض الإحتفائية والدعوات والمأدبات المكلفة. يتجاوز هذا النوع من الإستعراضية الحدود المنطقية في بعض الأحيان: فحسب بيان صحفي نشره موقع العربية الإخباري يوم ١٧ أكتوبر، ٢٠١٢م، تم الإحتفاء بحضور «ضيوف السجادة الحمراء» مهرجاناً سينمائياً فنياً في دبي، ومن

هؤلاء الضيوف ممثلين أميركان، بـ«هدايا ثمينة» ذات ماركات تجارية باهضة، كما تمت إستضافتهم في فنادق راقية كي يستريحوا ثم لينزلوا للتسوق «مجاناً»، لإقتناء أية مادة يرغبون بها من السوق الحرة بلا مقابل نقدي[٨]. يجسد هذا الخبر، ليس فقط تلك النزعة الإستعراضية التي أشرنا إليها أعلاه، ولكن كذلك كيف يمكن للبترودولار إبتياع النتاجات الثقافية والشواخص المشهورة في صحارى جرداء لا تمت بصلة لهوليوود قط.

لا ريب في أن أصول التوتر بين سلطة الدولة وسلطة الثقافة في دول الشرق الأوسط تعود إلى محاولة السلطة في العصر الوسيط ترويض وإستخدام السلطة الثانية لأهداف سياسية. وهكذا، يزداد التوتر بين السلطتين عندما يعبث الطغاة في حقول الفنانين والمفكرين. أما الظاهرة الأكثر خطورة فإنها تتجسد في الإستخدام التعسفي من قبل الدولة لفائض البترودولار على أساس سياسة «الثواب والعقاب» على طريق أقصى إستغلال للعبقرية الفنية والثقافية المستنيرة. وهكذا، يسمو التنافر بين القطبين أعلاه فوق الزمن وتقلباته، فيواصل وجوده، ممتداً نحو الحاضر من الماضي ثم إلى المستقبل منطلقاً من جذور قديمة تضرب في تربة القرون الوسطى.

الفصل السابع

المفارقة السادسة:

لصوص بغداد: الدولة مضاد للمعارضة

أنا بالحكومة والسياسة أعرف أؤلام في تفنيدها وأعنف
علم ودستور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف

معروف الرصافي

لا يخدعنك هتاف القوم بالوطن فالقوم في السر غير القوم في العلن

معروف الرصافي

لا ريب في أن الأمر سيبدو من عالم اللامعقول إذا ما سمعنا أن سياسياً معارضاً أميركياً أو سويدياً يطلب اللجوء السياسي في أية من دول الشرق الأوسط. لا بد أن يظهر مثل هذا الخبر للسامع، لو كان ممكناً، قادم من عالم «السيريالية»، بمعنى أنه خبر خارج حدود قدرة الإنسان على ترتيب الأشياء في مواضعها على نحو معقول حسب نظام منطقي يرتكن إلى خلفية معرفية بأحوال دول إقليم الشرق الأوسط غير المستقر حيث تبقى الديمقراطية الحقة «أنباء من اللامكان»، لو إستعرنا أحد عناوين أعمال الشاعر الإنكليزي وليام موريس Morris. ولكن من الناحية الثانية، ليس من قبيل الغرائب أن نسمع عن نشطاء المعارضة السياسية من دول الشرق

الأوسط وهم ينظمون تظاهرة أو يعقدون مؤتمراً للمعارضة ضد حكومات بلدانهم الشمولية في أحد فنادق ستوكهولم أو لندن، باريس أو أوسلو وبحماية من شرطة ذلك البلد الأوروبي. الفكرة الكامنة وراء مقارنة المعقول باللامعقول طي المقاربة أعلاه تقبع على حقيقة مفادها عدم وجود ديمقراطية ناضجة في أغلب دول الشرق الأوسط. وإذا كان هناك ثمة شك في هذا التعميم أو ثمة من يدعي بعكسه، فإنها تكون ديمقراطية منقوصة ومعاقة حينئذ. الديمقراطيات في هذا الإقليم مكتسبة، أولاً، ومختلة أو ناقصة، ثانياً. هي أما أن تتجاوز مكوناً ديموغرافياً من السكان، فتكون جزئية، أو واقعة فريسة لهيمنة الحكومة أو للقوى الدينية أو القبلية المتنفذة، وكلاهما قوى رجوعية قادرة على فرض المحدوديات والتوازنات التي تضمن الأطر التقليدية المتوارثة التي تخدم مصالحها وتمنع الجذري من التغيير.

تنبعث واحدة أخرى من القضايا التي تختبئ خلف هذا الإخفاق في الرؤيا الديمقراطية من الحقيقة المؤلمة التي تفيد بأن السياسة في دول الشرق الأوسط الحديثة لم تمارس قط كعمل مدني سلمي. تمارس السياسة كلعبة قوى وإستغلال نفوذ لمنافسات مميتة وعداوات دموية تحت عنوان «القوة على حق» Might is Right التي يعتد بها في دول الإقليم حيث يسود قانون الغاب، أي قانون «البقاء للأقوى» الآن وإلى ما لا نهاية. ناهيك عن إختلالات ممارسة الديمقراطية ستاراً لتغطية أنواع الإضطهاد والتمييز، من بين سواها من الرذائل.

ولأن القوة في هذا الإقليم لا صلة لها بالجدليات المدنية المتحضرة، فإنها تبقى أسيرة هيمنة الدولة، فيما لو كانت تلك الدولة تدار من قبل طاغية واحد أو حزب سياسي «قائد» منفرد أو من قبل فئة، أو فئات سكانية متحالفة برباط مصلحي معين أو مجموعة من الجماعات

التي تلتقي على المصالح الفئوية المشتركة مثل مصالح قبيلة أو عشيرة أو عائلة أو إتحاد طائفي. وغالباً ما يتم بلوغ السيطرة الطويلة المدى على الحكومة وإدامتها بمساعدة الأذرع الفولاذية للجيش أو «للأجهزة الأمنية». أما «الأمن»، في هذا السياق الإستثنائي للإقليم، فإنه يعني أمن هؤلاء الذين يهيمنون على السلطة (الحكومة)، وليس أمن الدولة أو الشعب عامة كما هو معروف في الديمقراطيات الحقة. ولسوء الطالع، فإن الفئة التي تسيطر على الحكومة في أغلب دول الشرق الأوسط غالباً ما تصبح، عملياً، المالكة المطلقة للثروة وللموارد الوطنية، مكونة إحتكاراً أنانياً مخادعاً يتنكر وراء عناوين من نوع «المصلحة الوطنية» أو «القطاع الإشتراكي» العام، وهي عناوين شائعة عبر هذا الإقليم المعذبة شعوبه، في دول الإقتصاديات الوحيدة الجانب المعتمدة على عنصر رئيس واحد كالنفط لتدوير الإقتصاد. في مثل هذه الحال المغلقة النهائية، تتوج الحكومة كأكبر الرأسماليين؛ بينما يستحيل هؤلاء الذين يسيطرون عليها إلى نخبة من «الإقطاعيين الجدد» neo-feudal lords، مشكلين مركباً غريباً من تحالف رأس المال والإقطاع، مركب يتحدى نظرية كارل ماركس في (رأس المال) ويدحضها. الإقطاعيون الجدد يعدون أنفسهم مالكين للأرض وكل ما يدب فوقها وما يكمن تحت سطحها، أكان حياً أم غير حي. لذا يخص هذا النوع من إقطاع الشرق الأوسط الجشع المشروع الخاص بنظرة دونية، لأن الأول هو الذي يستولي على الحكومة ويستحوذ على موارد الأمة. هذا نوع فريد من الإقطاع المركب الذي يكبر ويتضاعف حجماً وإنتفاخاً وترهلاً من خلال المدخولات الأسطورية المتواصلة الآتية من تصدير النفط الخام بالأساس. وكما لوحظ في أعلاه، يضطر القطاع الخاص أن يتقهقر ليغدو عاملاً إقتصادياً مساعداً يكمل صورة الثروة «غير العامة» للأمة. هذا هو ملخص

طريقة إدارة الثروات الوطنية وطرائق توزيعها غير العادلة في أغلب دول الشرق الأوسط، النفطية خاصة، حيث تحافظ الجماعات القابضة على آليات الحكومة على قيم إقطاعية وسيطة تدعم بقاءها متحدة ومستحوذة، قيم رجوعية ومصالح أنانية مشتركة، بلا أدنى شعور بواجب إقطاع العصر الوسيط الحق نحو من يحيا على الأرض من عامة المواطنين. من هنا، جاء العبث بالثروة أو الإستخدام الإعتباطي للموارد الوطنية من قبل هؤلاء الذين يهيمنون على الحكومة، إذ تتفاقم هذه الإعتباطية اللامسؤولة وتنمو درجة شعور تلك الفئات المتنفذة بحرية إعلان الحروب ومصادرة الممتلكات وتقديم التبرعات والهبات السخية دون محاسبة أو مراقبة.

وعلى سبيل بلوغ هذا النمط من الهيمنة الشمولية للحكومة وإدامتها، يغدو مهماً لمثل هذه الأنظمة الشمولية أن تطور نوعاً من البطولة المزيفة sham heroism، كتلك التي ناقشها توماس كارلايل Carlyle في «الكتاب الثاني» من مجلده (الماضي والحاضر)[١]، حيث يكون «البطل المنقذ» مبرراً في توظيف كل أداة ممكنة لفرض النظام، حتى العنف والقسر والإبادة، في سبيل تحقيق أهدافه لتصحيح مسار الجماعة وتطوير «مواطنة مذعنة» تقدس هذا النوع من البطولة. ولكن لسوء الحظ، تبتعد «نظرية البطل»[٢] عند كارلايل كثيراً عن البطولة المزيفة والأنانية للدكتاتوريات أو للجماعات الحاكمة في دول الشرق الأوسط. قد يقود الإختلاف مع رأي «الأقدر والأكثر حكمة» من «أبطال» حكومات الشرق الأوسط إلى نتائج خطيرة، خاصة عندما يقتنع هؤلاء «الأبطال» أنهم ملهمون، يستخلصون سلطتهم وحكمتهم من ينابيع الألوهية أو بتخويل السلطة الدينية، كما لاحظنا في المفارقة الرابعة أعلاه. لذا يغدو الإختلاف أو الإعتراض على ما تفعله السلطة ضرباً من

الكفر. إذا ما رفض المرء أو الجماعة إرادة الطاغية أو تمرد عليها، يعد فعله أو فعلهم رفضاً لما يمثل الطاغية، خاصة عندما يخط الطاغية القرآن الكريم بدمه أو عندما يعد نفسه حامي حمى المقدسات. النقطة الأساس في هذا السياق تتمثل في إدعاء «الإلهام» الذي يضع الطاغية في سلة واحدة مع الأنبياء المعصومين والصالحين تحت عنوان «القائد الملهم»، إذا ما إستذكرنا واحداً فقط من ألقاب صدام حسين المفضلة في بث الإعلام.

لو قرأ المرء القرآن الكريم فإنه لا بد أن يلاحظ تواتر الآيات الخاصة بالثواب والعقاب التي تشكل الجدل المركزي لصراع الخير والشر ولنتائج الإقدام على فعل كل منهما، وهو جدل جميع الكتب المقدسة، بطبيعة الحال. ومع هذا، فإن أكثر آيات القرآن الكريم وقعاً وتعلقاً بالذاكرة هي تلك التي تصف، بدقة وتفصيل مرعبين، أهوال النار والآلام التي تنتظر العصاة والمشركين والكفار والأشرار وغير المؤمنين الذين لا يتمسكون بالملذات الموعودة للخيرين والمتقين في جنة الخلد لأنهم يختارون الدنيا بدلاً عن الآخرة في سياق بحثهم عن الملذات الدنيوية والحسية الفورية المباشرة في الدنيا، بل وربما لأنهم لا يصدقون ما جاء في الكتب المقدسة.

بالنسبة للمسلم، يبني الخوف من النار جداراً بين ذاته الخيرة وبين الرذيلة. أما المنطق التالي، فهو مبسط على نحو كاف لإستيعاب ابسط الناس، حيث يجب على المؤمنين والمتدينيين أن يلتزموا بقواعد لعبة قدسية الحاكم وأمنه على نحو دائم ومطلق، باعتبار أن طاعة أولي الأمر فريضة في الإسلام. لذا فإن عدم طاعة المسلم للحاكم «ولي الأمر» يعد من الخطايا التي لا تغتفر، خاصة في المجتمعات ذات الأغلبية السنية، ربما لأن الحاكم، بحسب فلسفة التسيير، يعد قدراً مكتوباً على المرء، فعليه إبتلاعه مذعناً، سوية مع إبتلاع سواه من معطيات «النصيب»: «فالمؤمن

مبتلى»، كما يقولون. هذا الإذعان الإلزامي لإرادة الحاكم ما دام الحاكم يدعي الإيمان بالإسلام هو الذي ضمن تواصل الحكومات غير العادلة المتتالية لمدد طويلة. إنها فقط أخلاقيات التمرد الشيعي[٣]. هي التي توجب الثورة ضد الدولة غير العادلة والسلطة الظالمة حتى لو كانت مسلمة أو تدعي الإسلام، وهي حال تضيف شيئاً من اللون أو المعنى لفكرة الإذعان المشروط، وليس الإذعان المتعامي. لذا سمي الشيعة «روافض»، كناية عن «الرفض». ومن هنا جاءت الصفة الشيعية السائدة بين حركات المعارضة في العالم الإسلامي. لأن الشراكة مع النبوة أو الألوهية محصورة عند الشيعة فقط في النبي (ﷺ) والأئمة المعصومين من نسل الإمام علي وفاطمة الزهراء، إبنة النبي (ﷺ)، فلا يمكن لأي حاكم أن يدعي بأنه مقدس أو نصف مقدس، حسب المنطق الإسلامي الشيعي الذي يمجد الثوري بدلاً عن الراضخ والمستكين. ولكن عبر دول الشرق الأوسط ذات الأغلبية السنية، تتم ملاحظة التوازي بين السلطة الدينية والسلطة الحكومية، حيث يمرر خطاب العقاب والثواب لفرض الإرادة الدكتاتورية تأسيساً على التوازي أعلاه. لأن الخوف مزروع في دواخل المواطن منذ نعومة أظفاره، ومبرر بواسطة نظم التربية ووسائل الإعلام، فإنه يندمج مكوناً اصيلاً لا بد منه في النفس وفي أنماط السلوك الجماعي الحياة اليومية لمجتمعات الإقليم حتى يستحيل الخوف مع مرور الزمن رهاباً مرضياً، فيطفئ جذوة الإبداع ويلجم منابع الإبتكار.

وبالقياس والإستدلال الذي تستوعبه أغلبية المواطنين، تغدو ضوابط السلطة الحكومية ذاتية التبرير باستثمار التوازي أعلاه، اي التوازي بين الرب ورب الدولة أو رب الأسرة، لتمرير خطابات الثواب والعقاب على سبيل إستخدام كل وسيلة ممكنة لحكم مواطنين بهذه الدرجة من الهوان والضعف على سبيل التيقن من فرض حكم مطلق، بتوظيف التقنيات

المهيأة في الدين لصناعة الخوف وغرسه مسبقاً أولاً، ثم باستخدام أدوات العنف الفاعلة، ثانياً[٤]. الخوف والعنف هما أكثر الأدوات فاعلية للإبقاء على السلطة بأيدي هؤلاء الذين يهيمنون عليها في دول الإقليم. الخوف من السلطة نصف المؤلهة، يعد السور الأول لحمايتها من المنافسين والمتسابقين والطامعين والمحتجين، بينما يعد العنف السور الثاني، باعتباره أنجع الوسائل المباشرة للقضاء على المنافسين والمعارضين ولتهدئة المحتجين والشكائين للإقلال من غلوائهم.

لأن الإستيلاء على السلطة التنفيذية غالباً ما يتحقق، ليس عن طريق التقاليد المدنية، ولكن عن طريق الوسائل القسرية القوة، يكون من المنطقي أن تعد السلطة في نظر الذين يستولون عليها، منتزعين إياها من سابقيهم، «غنيمة» ينبغي الإستمتاع بها من قبل «المنتصرين» إلى أقصى حد وتوزيع مكاسبها بينهم. هذا، أصلاً، هو قانون الحرب والغزوات الصحراوي وليس قانون التمدن. أما السؤال المهم التالي بالنسبة للذين يقنصون السلطة، فيتركز على كيفية المحافظة والإستمتاع بهذه «الفرصة التاريخية» وإستخلاص أكثر ما يمكن من العبر والفوائد منها لأطول مدة ممكنة، بصرف النظر عن قوانين التغير المتواصل الكونية غير القابلة للمقاومة. وهكذا تتحول السلطة الحكومية إلى مجرد مسألة كيف يمكن الإستيلاء عليها لإستغلالها، وليست مسألة خدمة عامة؛ ثم تأتي مسألة توظيف ميزة الإستيلاء من أجل الهيمنة على السلطة لقطع الطريق أمام المنافسين، أما باللجم العنيف أو بالبتر. وهنا يلعب الإعلام، مشكلاً للرأي العام، دوراً داعماً للقائمين على السلطة، مشكلاً للرأي العام، لأنه يعكس صورة المنافسين الأشرار «المشيطنين» الذين يرومون إلى الإستيلاء على السلطة أو إلى المشاركة بـ«مأدبة السلطة الحكومية». وهكذا يتم تشويه المنافسين بوصفهم معارضين أشرار، أو عملاء للأجنبي أو خونة يستحقون

أقسى العقوبات بسبب مؤامراتهم المظلمة التي تتعارض مع «مسيرة التقدم» والمصالح العامة للأمة. لذا تنتج تعبئة الضغائن والعدائية ضد المنافسين والمعارضين الكثير من الآثار النفسية لدى الجمهور، خاصة عندما تنفذ بهم العقوبات القاسية وتقدم على الملأ من قبل الحكومات على نحو متعمد من أجل تكريس الخوف ونشر الرعب مما تتسبب به «الخيانة» وعدم الوفاء للحاكم أو للحكّام «العادلين».

أثناء حكم الزعيم عبد الكريم قاسم العراق (١٩٥٨-١٩٦٣م)، خرج الشيوعيون (الذين كانوا يتمتعون بأعلى موجة من الشعبية آنذاك) إلى الشوارع في تظاهرات كبيرة، داعين إياه: «إعدم، إعدم». هم أرادوا منه أن ينفذ أحكام المحكمة العسكرية بالإعدام على منافسيهم السياسيين، أي القوميين والبعثيين الذين حاولوا إغتياله وهو يمر في طريقه اليومية إلى وزارة الدفاع، «عرين الأسد». على الرغم من أن قاسم أظهر شيئاً من التردد في الإستجابة لمطالب الشيوعيين، مفضلاً العفو على سفك الدماء، لأنه لا بد وان وقع تحت تأثير فكرة أنه هو الوحيد الذي يمكن أن يتصرف بحياة هؤلاء الأفراد، مانحاً أو منهياً حياتهم في ذات الوقت. ولكن على الرغم من الدفع نحو الأحكام القاسية، فإن هذا الخيال لم يسيطر عليه درجة توقيع قرارات الإعدام. وفي نهاية المطاف، إنتهى به الأمر شخصياً للإعدام على أيدي نفس الجماعات المعارضة التي أعفى عنها، حيث قدم ذلك درساً لتلك الجماعات بعد إستيلاءها على السلطة من بعده، درس يختزل قضية بقاء وتواصل النظام بالقبضة الحديدية لإدارة لعبة الخوف والعنف التي تواصلت فيما بعد. لم يكن الزعيم قاسم دكتاتوراً ماهراً، لأن تجنبه سفك الدماء قاد إلى سقوطه الدموي وإعدامه بلا رحمة (قدم الإنقلابيون له صوراً معدوماً على شاشات التلفزيون الرسمي مساء يوم ٩ فبراير ١٩٦٣م)، علماً بأنه سبق أن أعفا عنهم. تم

إستيعاب درس الزعيم قاسم، سوية مع دروس سواه من الحكّام «المتسامحين» من قبل الجيل التالي من الضباط الإنقلابيين الذين أدركوا جيداً أن الإستمرار على سدة الحكم يرتهن بالقساوة واللارحمة والهيمنة المطلقة على الأجهزة الأمنية. من هنا جاءت ظاهرة حكومات الطغاة المتتالية المستطيلة العمر، من صدام حسين في العراق (١٩٧٩-٢٠٠٣م) إلى حكومتي الأسد، الأب والإبن (١٩٧١-؟)، عبر حكم مبارك في مصر (١٩٨١-٢٠١٢م) وعلي عبدالله صالح باليمن (١٩٧٨-٢٠١٢م) ومعمر القذافي (١٩٦٩-٢٠١١م)، من بين سواها من الحكومات «الجمهورية»، إسماً، التي أسسها قادة إنقلابات ما لبثوا أن عبروا عن تقديرهم العالي للأنظمة الملكية على نحو ضمني عندما نصبوا أو حاولوا تنصيب أبناءهم في قصورهم الرئاسية. وقد أخفق هؤلاء جميعاً في هذا الجهد لتنصيب أبنائهم «خلفاءً» للرئاسة باستثناء الرئيس السوري حافظ الأسد الذي توجب على نظامه تجاوز التقليد الجمهوري الرئاسي برمته بواسطة تعديلات دستورية إضطلع بها البرلمان الراضخ لسلطة حزب البعث السوري الحاكم.

بينما بدت «مملكنة» الجمهوريات التقدمية وكأنها تسير قدماً بلا رادع، شكراً لأدوات الخوف والعنف المذكورة أعلاه، توجب على الأنظمة الحاكمة إقتلاع الجماعات والأحزاب المعارضة ودفعها إلى البحث عن ملاجئ «طوعاً» خارج البلاد، من أجل الإفلات من الإرهاب الذي سبق أن صممته لهم الأجهزة الأمنية والقمعية في أوطانهم، ومن أجل إنقاذ أقاربهم من رعب الإضطهاد ومشاكل الإستدعاءات للتحقيق المتكررة بسببهم. هذا هو الخيار الذي عمدت إليه المعارضات بإرادتها من أجل نجاة كوادرها. كان طلب المعارض اللجوء خارج البلاد من «الأخبار الجيدة» بالنسبة للحكومات الشمولية التي عكست غاية الإحتقار

لقيمة المواطنة، وبضمنه إحتقار المواطنين من أصحاب الكفاءات العلمية الرفيعة الذين كان يفترض أن يبقوا في بلدانهم للإسهام في تقدمها. خفف نزوح الجماعات المعارضة من بلدانها في الشرق الأوسط إلى دول أوروبا خاصة، من صداع رأس ضباط الأمن والمخابرات والبوليس السري، لأن عملياتهم «الأمنية» قد غيرت من طبيعتها، من التجسس والتعذيب إلى مجرد إصدار أكبر عدد من جوازات السفر لهؤلاء المعارضين الذين قدموا طلبات للسفر للخارج أما «للسياحة» أو «للتجارة» أو «للدراسة». أدركت الأجهزة الأمنية قواعد هذه اللعبة على نحو أفضل من «المناضلين» المعارضين الذين قدم هربهم من ساحات العمل الوطني أكبر خدمة لهؤلاء القائمين على الأجهزة البوليسية. الطريف في الأمر هو أن قصص عمليات الهروب هذه لم تزل تسرد على نحو متكرر من قبل أفراد المعارضات في منافيهم وملاجئهم بوصفها «أفعال بطولية» تمكنت من إستغفال الأنظمة الشمولية، بينما كان العكس هو الصحيح!

على الرغم من أن هذا النوع من الحالات حدث في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية وإسبانيا فرانكو والإتحاد السوفيتي السابق، من بين سواها من الدول الشمولية الأخرى، فإن ظاهرة طرد المعارضة إلى الخارج قد نحت منحى مختلفاً عبر دول الشرق الأوسط بسبب خصوصيتها، إذ بدت عملية طرد قوى المعارضة وكأنها تمت بالتعاون والتنسيق مع الدول التي إستضافت المعارضين. وبعكسه، كيف يمكن للمرء أن يفسر جهود إستقبال دول مثل السويد أو بريطانيا أو الدنمارك أو هولندا لمئات أو أكثر من كوادر الحزب الشيوعي العراقي، من بين سواهم من المعارضين خلال مرحلة حكم صدام حسين. يبقى إستقبال الدول الأوروبية وكرمها لأعداد كبيرة من عناصر المعارضة العراقية، خاصة بعد سقوط جدار برلين، من الغوامض التي تتطلب الرصد والتحقق على نحو دقيق. في حال الحزب

الشيوعي العراقي (ICP)، كان الأمر أشبه ما يكون وبخروج الحزب برمته على حين غرة من الساحة التي يفترض عمله فيها (العراق)، ليعاود الظهور فجأة في مقاهي مدن أوروبية مثل مالمو وأمستردام، لندن وباريس، حيث نسي الشيوعيون العراقيون دروس «البيان الشيوعي» وكتاب كارل ماركس (رأس المال) ونضالات «الرفاق» فهد وصارم وسلام عادل، من بين سواهم من الزعماء، للإستمتاع بالرفاه والمساعدات التي تقدمها الرأسمالية الأوروبية! ويبدو بأن دول الشرق الأوسط غالباً ما ترحب وتقدر المبادرات «الإنسانية» التي تقدمها كوبنهاكن وباريس وستوكهولم، بوصفها مبادرات حسن نية للصداقة الحقة التي، ربما، يمكن أن تكافأ أو تقايض بالنفط الخام.

قبل بداية حراك ما يسمى بـ«الربيع العربي»، لم تبق أي من جماعات المعارضة الأساس تعمل في إنائها الطبيعي كي «تناضل» ضد الطواغيت والدكتاتوريات، مفضلة مواقفاً إنهزامية لتجنب الإرتطام بالأنظمة الشمولية القاسية. ولكن حيث راح «الربيع العربي» يفتح مكامنه حتى الآن، يجد المرء نفسه مضطراً لمساءلة الطرائق التي تأملتها ووظفتها هذه الجماعات المعارضة لـ«إنقاذ» أوطانها من قبضات الأنظمة الشمولية، وهي «تناضل» من خارج أوطانها، أي من حيث تموضعت في الفنادق أو المساكن والشقق الفاخرة في ضواحي المدن الأوروبية حيث تم تجهيز أفرادها وعوائلهم بجوازات سفر جديدة، إضافة لتلك الأصلية التي حصلوا عليها من أوطانهم. وقد برهنت الجنسيات المزدوجة على إتاحة إمتيازات لا محدودة لهؤلاء «الأبطال الوطنيين»، حيث يمكن لكل منهم أن ينتزع جلده ويغيره في مطارات العراق، على سبيل المثال، حيث يمكن أن يعين وزيراً أو سفيراً بعد سقوط النظام السابق، بينما يمكن أن ينقلب فوراً إلى مواطن بريطاني أو هولندي ذي أصول أرستقراطية قادر على إبتياع

أفضل الأملاك في الأحياء الغنية من المدن البريطانية لحظة هبوطه في مطاراتها. هو يرنو إلى التعبير عن الإمتنان للذين إستضافوه عندما كان لاجئاً مشرداً خالي الوفاض.

كما أشرت أعلاه، يضطر المرء للشك بامكانية وجود دوافع إقتصادية تكمن خلف «ملاحم» كرم الضيافة الأوروبية عند إستضافة المنفيين من معارضات دول الشرق الأوسط والإنفاق عليهم، خاصة معارضات الدول الغنية بالنفط لأنها غالباً ما تحظى بترحيب خاص، توقعاً لإمكانية إستلام هؤلاء المنشقين يوماً للقيادة المستقبلية في «دول المنشأ» الذي هجروه، أي الدول التي تنقصها التقاليد السياسية المؤسسة التي لا ترى خطوطاً واضحة المعالم للفصل بين المعارضة والحكومة عبر هذا الإقليم غير المستقر حيث يكون كل شيء ممكناً حرفياً، بضمن تقلبات الهيمنة على السلطة، كما كانت عليه الحال في عراق ما بعد حرب ٢٠٠٣م، حيث صنع المعارضون السابقون من أصحاب الجنسيات المزدوجة ثروات أسطورية، مستغلين الفساد الذي أفشوه في العراق، ثم عادوا إلى أوطانهم «الجديدة» في الدول الأوروبية حيث إكتسبوا جنسياتها في أوقات سابقة. في هذه الحالات، يتواصل شعور قوي بالثأر والإنتقام في تفكير وسلوك هؤلاء الذين أطلق عليهم هنا عنوان «لصوص بغداد»، توافقاً مع ما إعتاد العراقيون عليه كذلك، لأنهم إنتزعوا حصصهم من الغنيمة ثم إنسلوا سراً هاربين إلى حيث كانوا «يناضلون» ضد نظام البعث في شوارع ومقاهي وبارات المدن الأوروبية. لقد برر خوف جماعات المعارضة من بطش حكومات الشرق الأوسط، خيار هروبها للخارج وسوغ لها التخلص من جحيم العمل السياسي في أوطانها الأصل، وهو خيار دل على أنه مفتوح للخلاف والجدل البيني، زيادة على وصفه بالسلوك «الخياني» في أحيان كثيرة. يأتي الجانب الخياني

للهروب من الساحة الوطنية «للنضال السياسي» من الإنعزال الذي عانته هذه الجماعات بسبب إمكانية الجزء الثري منها لتحقيق النقلة العابرة للحدود باتجاه الحرية في العالم الغربي.

إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار بقاء الأنظمة البوليسية في الإقليم لعقود، كما كانت عليه حال تلك الأنظمة التي تواصلت لأكثر من أربعين سنة، يقدم اللاجئون السابقون الذين إكتسبوا جنسيات جديدة، فصاروا من حملة الجنسيات المزدوجة، مفارقة نادرة تستحق التندر في أحيان كثيرة. أما في حال عراق ما بعد صدام (٢٠٠٣م والسنين التالية) جسد هذا النوع من السياسيين المعارضين، سابقاً، نموذج الـ«علي بابا»[٥] للإنتربول وسكوتلانديارد، نموذج جديد من اللصوص والمختلسين تجاوزت إختلاساتهم مليارات الدولارات الأميركية. شكراً للزئبقية وللسيولة التي أتاحتها الجنسيات المزدوجة لهؤلاء اللصوص. كان هؤلاء من قادة المعارضة السابقة الذين بقوا تحت ضغط نفسي إنتقامي طوال عقود، فقاموا بالتعبير عن هذا الضغط على نحو ثأري من خلال إستحلاء السحت الحرام. لقد أطلق هؤلاء، في الحقيقة، فصل «فرهود» (نهب) جديد من تاريخ العراق الحديث، وهو فرهود يتابعه يهود بابل خارج العراق اليوم بالكثير من الإهتمام والمرارة، مستذكرين «الفرهود» الذي وقعوا ضحايا له سنة ١٩٤١م من قبل الغوغاء[٦]. تنبغي مراجعة الفرهود الذي أصاب اليهود آنذاك، ليس كحال منفردة في تاريخ العراق لأن مدينة بغداد الغنية قاست سلسلة من حالات «الفرهود»، إبتداءً من فرهود سنة ١٢٥٨م عندما إستباح هولاكو خان وجنده بغداد، وعبر عدد من حالات «الفرهود» التي إستمرت على نحو متقطع حتى سنة ٢٠٠٣م عندما أطلق سقوط نظام صدام حسين الغوغاء من الجياع والمضطهدين نحو المصارف والمكاتب الحكومية والمتاحف كي ينهبوا محتوياتها ويفرغونها جميعاً من

كل ما له قيمة مهما كانت بسيطة، ناهيك عن فرهود الكويت الذي أمر به صدام حسين. إذا ما راجع المرء تاريخ بغداد كسلسلة من أحداث «الفرهود»، فإنه لا بد وأن يتمكن من فهم اصول ودوافع لصوصية وفساد أفراد المعارضة السابقة، وهم يبتلعون كامل ثروة الدولة بشراهة منقطعة النظير باعتبار أن ما يجري هو حلقة جديدة من حلقات الفرهود في سياق سلسلة أحداث فرهود تاريخية. كانت هذه هي ذهنية من نوع «لا تفلت الفرصة»، بمعنى إظفر بما إستطعت ما دمت قادراً على النهب، تصديقاً للمثل الشعبي: - «بغداد مبنية بتمر، هدّم وكل خستاوي». هي ذهنية معبأة بأعباء تاريخية ثقيلة قوامها عواطف الإنتقام والجشع الأعمى التي ولّدت أرقاماً أسطورية، بين ليلة وضحاها، فاجأت الصيارفة الذين يراقبون حسابات «المعارضين» الموجودة ببنوك أوروبا عن كثب، حسابات كانت محتوياتها النقدية متواضعة قبل إنطلاق «الديمقراطية العراقية الناشئة»، ولكنها سرعان ما تضاعفت ملايين المرات على حين غرة. وهكذا، تم نقل عبء «النضال من أجل الحرية» الذي كان هؤلاء يدعونه إلى المعانين الحقيقيين داخل الوطن الذين كان عليهم تحمل آلام سنوات حروب صدام حسين والحصار الناتج عنها، ثم آلام سنوات خلفائه «الديمقراطيين» فيما بعد. بقي المهرجون والماشون على الحبال في «سيرك الشرق الأوسط» الكبير هم المستفيدون النهائيون كما كانوا دائماً. في حال العراق، كان هؤلاء المهرجون هم الوزراء وسابقوهم ممن تولوا مشاريع الكهرباء والتجهيزات العسكرية والمواد الغذائية للبطاقة التموينية لعموم الشعب من بين أبواب لا تنفد خزائنها للسرقة نظراً لتخويلهم التوقيع على العقود بالمليارات من الدولارات أما مع شركات أجنبية حقيقية أو مع شركات خيالية (مزيفة)، ليس لها وجود على أرض الواقع. لذا، فقد كان هذا هو أقوى «فرهود» في تاريخ العراق المعاصر.

إنه لمن الطريف أن نلاحظ أن هذا النوع من المختلسين والنهابين الرسميين (أي المعارضين والمناضلين من أجل الحرية على سنوات صدام) قد منحوا العفو من قبل «رفاقهم» وأقرانهم القائمين على السلطة في العراق لأن هؤلاء «الرفاق»، هم الآخرون، في إنتظار فرصهم للمشاركة في «وليمة» عراق سنوات الفوضى بعد سقوط صدام. والطريف هو أن عدداً كبيراً من «لصوص بغداد» كانوا من المستفيدين من نظام صدام لأنهم كانوا، على عهده، قد أرسلوا إلى خارج العراق كدبلوماسيين أو طلاب بعثات «علمية» أو كمتدربين من العسكر أو كجواسيس للمخابرات العراقية، ثم إنشقوا فيما بعد لمختلف الأسباب، أو لإعادة تقديم أنفسهم في دول العالم الأخرى كمعارضين للنظام. في هذه الحال، ينبغي لتاريخ العراق المعاصر أن يخدم نموذجاً كلاسيكياً للسلوكيات المتناقضة ولعناصر المعارضة المتعطشة للسلطة وللثروات التي قتل بقاؤها لمدد طويلة خارج أوطانها ضمائرها. لقد ولّدت «لعبة الإختباء» التي تمرس عليها بعض شواخص المعارضة أثناء صراعها المضاد للنظام «نضالات» من نمط آخر، أي نضالات الـ«إخمط وإهرب» المضحكة أثناء سنوات «الرفاه الديمقراطي». لقد إختفى وزراء «تكنوقراط» فجأة بلا أثر، بينما شخصيات، تم إئتمان ثروات الأمة لديها بعد فتح أبواب الخزانة لها على مصراعيها، تلاشت في مطارات أجنبية أو من السجون، وهذه جميعاً مؤشرات تدل على الفجوات المتروكة في خزانة الدولة. لقد تمكن حتى الذين حكم عليهم وأدينوا قضائياً من هؤلاء اللصوص والمختلسين من إيجاد ثغرات للهروب من التوقيف «على ذمة التحقيق»!

تؤشر تجربة العراق المريرة الأخيرة، أي بعد إستبدال الدكتاتورية بديمقراطية المعارضين السابقين، أن الخيارين كانا مرّين بالنسبة لشعب مستلب، لا حول ولا قوة له، شعب أعمته معاناة القرون وأذله غياب

الثقافة الديمقراطية الحقة. يبقى العمل السياسي في العراق وفي سواه من دول الشرق الأوسط لعبة قوة خطيرة ومريرة قوامها عناصر العنف والخوف وسوء إستغلال السلطة وتوظيف الثروات، لأن العمل السياسي لم ينضج درجة تحول السياسة إلى نشاط مدني سلمي. وثانية، فإن هذه المحكات تدل على تواصل أعباء الماضي التي تمنع أغلب شعوب الإقليم من تخطي الحاجز النفسي الذي قوامه حلم الأسلاف اللامجدي لأنه يحجب قراءة حقائق الحاضر وإستشراف آفاق المستقبل الواعد بروح جديدة معطاء. في هذه الحال تغدو السياسة، بكل ما تنطوي عليه من نفاق وعنف وتقلبات، عائقاً بدلاً من أن تكون دافعاً للتقدم.

لقد دلّ غياب النضوج السياسي وعدم الإخلاص في العمل بالسياسة عند قطبي العمل السياسي، الحكومة والمعارضة عبر دول الشرق الأوسط، على أن القطبين ليسا سوى وجهان لعملة واحدة، خاصة بعدما تم إمتطاء الديمقراطية من قبل شكل من أشكال الرجوعية والتخلف. وهكذا غدت ذكريات الدكتاتوريات المجتثة من أحلام الحنين للماضي التي تلاعب خيالات الكثيرين، كما هي عليه الحال اليوم في العديد من دول ما يسمى بـ«الربيع العربي»، إذ تم تتويج البترودولار ملكاً، بينما تسلطت الفوضى، قانوناً، وتنكر الإرتداد الرجوعي بقناع الدين والتدين. وأخيراً، لا بد للمرء أن يعترف بحقيقة أن الديمقراطية لا يمكن أن تشترى من السوق العالمية، ولايمكن أن تكتسب في لمحة إعجازية خاطفة.

الفصل الثامن

المفارقة السابعة:

مسيرة العقل المتعرجة

الجهل هو الشيء الوحيد الأكثر تكلفة من التربية.

❖ *بنجامين فرانكلين*

التربية هي أفضل حماية للتحرر من جيش متأهب.

❖ *إدوارد إيفريت*

من بين المفاهيم الخاطئة المتنوعة التي أسهمت على نحو فاعل وطويل الأمد لإطلاق الحركة العكسية الرجوعية التي أبعدت عدداً من دول الشرق الأوسط عن إمكانيات التغلب على أسباب الإعاقة المانعة لتخطي الحاضر الراكد نحو المستقبل التقدمي، يتبلور في الموازاة، الحديثة الظهور والسائدة اليوم للأسف، بين التقدم وبين الدرجات العلمية العليا، بغض النظر عن الحاجة الحقيقية لتلك الدرجات لرفد برامج تنمية إقتصادية / إجتماعية متوازنة وشاملة، برامج متحررة من معوقات الرجوعية ومن عوائق التقاليد القديمة المتوارثة. يقدم هذا المفهوم الخاطئ للدرجات الأكاديمية العليا، مؤشراً أوحداً للمحاولات الدؤوبة التي بذلتها الحكومات والشعوب عبر الإقليم لمحو البقايا

الراسبة من تراث الإمبراطورية العثمانية الثقيل والمثقل بالروح التورانية، تلك الإمبراطورية التي حاولت فرض لغة تركية «عثمانية» على شعوب المنطقة عبر سياسة «تتريك» شاملة. لم يكن الهدف النهائي غير واضح بالنسبة للأقوام غير التركية داخل الإمبراطورية، مثل الكرد والأرمن والآشوريين والكلدانيين، وخاصة العرب الذين عرفوا بالإعتداد بلغتهم الآن وإلى الأبد، نظراً لأن جلّ ثقافتهم لفظية، ولأن المعتقدات الإسلامية تكرس روحياً تبريراً لذلك الإعتزاز. وللمرء أن يتذكر أن العربية، حسب المعتقدات الإسلامية، هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وسيرة النبي محمد (ﷺ)، ويؤمن المسلمون أنها لسان أهل الجنة.

أسهمت الروح التورانية (القومية التركية) أداة فاعلة في دمج وضم الأقوام غير التركية ثقافياً إلى النسيج العضوي العام لإمبراطورية كانت شابة متماسكة لم تكن تبدو قابلة للتفكك لقرون. ولكن في القرون المتأخرة من تاريخها، جاء رد الفعل عنيفاً من الأقاليم العربية في الإمبراطورية ضد النموذج القومي التركي للتربية، إذ فضل العرب النماذج القومية الأوروبية الوافدة التي كان يشيع لها التبشيريون ويؤيدها بعض أساطين ما يسمى بـ«النهضة»، باعتبار ما لعبوه من أدوار مهمة في خلق وتقوية العواطف القومية، وبعدها جاء دور الآيديولوجيات القومية العربية التي إعتمدت على رابطة اللغة أداةً ودافعاً، بديلاً عن التقليد الديني الذي تحفظه وتنقله اللغة. أما بالنسبة لأصحاب هذه الآيديولوجيات القومية العربية المتأخرين نسبياً فقد عدت اللغة العربية العمود الفقري لأمة واحدة يقطن سكانها إقليماً مهولاً عابراً للقارات، يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي.

ولكن إضافة على الأساس اللغوي للآفاق المستقبلية للأقوام

المتحدثة بالعربية عبر الإقليم، لا ينبغي للمرء أن يتجاهل الحركات الثقافية التي إزدهرت مع الإندفاع الكولونيالي الأوروبي نحو «خواء القوة» الذي راح يتبلور في الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى ثم بعدها. على الرغم من بقاء الثقافة العربية الإسلامية ثقافة مقاومة للنماذج الأوروبية الغربية الوافدة، إلّا أن مواقفاً فكرية جديدة ذات صلة باللغة القومية وباللغات القومية الأوروبية خاصة، أخذت تتطور وتشيع بين العرب على نحو سريع نظراً للتوهم بأن التكنولوجيا الأوروبية هي عين التقدم وان لغاتها الأوروبية هي المفتاح له، ناهيك عن التوهم الأخطر الذي قرن التقدم باللغات الأوروبية، وهو من الأوهام التي قادت إلى الإقلال من شأن العربية في أعين الذين يتكلمونها بوصفها لغة ترمز لكل ما هو تقليدي ورجوعي، تعسفاً. أما النخبة العربية المثقفة غير المتيقنة مما تريد، فقد إنقسمت على جماعتين متناقضتين بقدر تعلق الأمر بالتأثير الثقافي الأوروبي الوافد. الجماعة الأولى تمثلت بهؤلاء الذين يمكن أن نطلق عليهم عنوان «الإنغماسيين»، والجماعة الثانية هم هؤلاء الذين يمكن أن نطلق عليهم عنوان «الإنكماشيين». دعت الجماعة الأولى إلى إنتزاع الثقافة المحلية الماضوية على نحو نهائي وحاسم في سبيل إحتضان النموذج الأوروبي والجديد بتعام، بينما أظهرت الجماعة الثانية إلتزاماً إرتدادياً متعامياً بالتراث وبكل ما هو موروث. وفي كلتا الحالتين بدا الجميع حالمين عاجزين بسبب الإخفاق في فهم الحاضر وإستشراف المستقبل بذكاء كاف. كان المفكرون العرب ممزقين عملياً، بين معسكر المؤيدين ومعكسر الممانعين بقدر تعلق الأمر بالإستجابة للثقافات الأوروبية الوافدة.

بعد إنقضاء شبح «التتريك»، وأثناء مرحلة الموجة العالية للكولونياليات الأوروبية في الشرق الأوسط، أي تلك الموجة التي

سبقت ما يسمى بـ«مرحلة الإستقلال السياسي» لدول الإقليم، تواشج سؤال مقاومة الإمبراطوريات والمؤثرات الأجنبية الوافدة بقوة مع ما أطلق عليه عنوان «الغزو الثقافي»، الأمر الذي دفع شعوب المنطقة ونخبها الثقافية إلى تخيله وتضخيمه والمعاناة منه مذاك. أما الإنقسام أعلاه بين المؤيدين والممانعين فقد إستحال إلى قضية هوية وكرامة، كالعادة.

وبلغة مبسطة، فقد تم عد كل ما هو بريطاني وفرنسي موازياً لتفوق بريطانيا وفرنسا، خاصة عبر سنوات الهيمنة والإنتدابات ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث لم تكن الولايات المتحدة تلعب دوراً رئيساً في هذا الإقليم الإشكالي على نحو مباشر. في تلك المرحلة، تطورت قناعة راسخة بين أقوام الإقليم يمكن إختزالها بايمان قوي بتفوق، ليس فقط الثقافات الأوروبية، ولكن كذلك بتفوق الأنظمة التربوية الأوروبية. من هذه القناعة جاء الخضوع الذيلي الذي أبدته المؤسسات التربوية الشرق أوسطية للنماذج البريطانية والفرنسية على نحو متعام وعام. وقد تلى هذا الخضوع شكل من أشكال الخنوع والعبودية الإعتبارية للنماذج الأوروبية تعبيراً عن هذه الذيلية بالذات. في سنوات ما بعد الإستقلال، تصاعدت الذيلية الثقافية والتربوية المنبعثة من شعور داخلي عميق بالنقص وبالهوان درجة تقديس الثقافات الناطقة بالفرنسية أو بالإنكليزية، فعد كل شيء يأتي من بريطانيا أو فرنسا الأفضل بلا نقاش، أكان ذلك الشيء منتجاً أو خبيراً صناعياً أم زراعياً. وكان الأهم في ظاهرة تقديس الأوروبي يتمثل في المواطنين المحليين الذين قطفوا أولى ثمار مرحلة الإستقلال السياسي على شكل بعثات أكاديمية إلى دول أوروبا برعاية حكومات الدول الغنية. وقد شكل هؤلاء العائدون المحليون نخباً جديدة حلت محل الكادر العثماني القديم الذي

بدا بدرجة من التقليدية والشيخوخة، إنه لم يعد قادراً على تجاوز الشرخ الثقافي سالماً. لذا، إنتهى الأمر إلى ظاهرة تدعو للتندر، بحق: فتجربة الفرد في البقاء بأوروبا لبضعة سنوات بدت لأولي الأمر كافية لوضع ذلك الفرد درجة أعلى من مواطنيه في دول المنطقة.

إذا ما كانت هذه هي الطريقة التي تم بموجبها إستقبال الشبان العائدين من مدارس المدن الأوروبية، فقط لأنهم قد تناولوا «البطاطا الفرنسية المقلية» أو «السمك والبطاطا الإنجليزية»، يمكن للمرء أن يتخيل الكيفية والإحتفائية التي كان يستقبل بها خريجي أوكسفورد أو السوربون أو كامبردج في أوطانهم عند عودتهم. كان هؤلاء يعدون ويعاملون كمواطنين «متفوقين» ببساطة متناهية، مواطنين يستحقون تقلد أرفع المناصب العامة. عكست هذه الظاهرة «مركب النقص» الفاعل على نحو واضح المعالم من جانب حكومات ومجتمعات الإقليم؛ فاستثمرتها الحكومتان الفرنسية والبريطانية بذكاء، كميزات لهما في مرحلة ما بعد الكولونيالية.

قاد هذا «الغزو»الثقافي الأوروبي الحقيقي، إذا ما إعتمدنا هذا التعبير، إلى بلوغ «غسيل دماغ» جماعي مهول عبر الإقليم: فقد راح النمو والتطور يقاسان في هذه الدول النامية بعدد خريجي جامعات أوروبا، وهو معيار خاطئ تمت إدامته لعقود، ليس فقط بمفاهيم الشرق الأوسط غير الدقيقة للتنمية الإجتماعية والإقتصادية، وإنما كذلك بأفكار المتبصرين من الإداريين الغربيين الذين فطنوا للفوائد الإقتصادية لمواشجة برامج التنمية في هذه الدول الناشئة بالمؤسسات الأكاديمية الأوروبية منذ وقت مبكر[١]، درجة ان الدول الغنية بالبترول راحت تبدو في غاية الإمتنان لمقايضة مواردها النقدية الأسطورية بالخدمات الأكاديمية الأوروبية، البريطانية والفرنسية خاصة، بغض النظر عن مستوى المخرجات وكفاءاتها.

تعرض الإندفاع المتعامي لشباب الشرق الأوسط نحو حضور الصفوف الدراسية للأكاديميات الأوروبية لتحوير بسيط نسبياً في السنوات التالية حيث راح يتباطأ أثناء الحرب العالمية الثانية وما تلاها من تداعيات، خاصة مع تنامي الجبروت والتقدم التقني الأميركي على المستوى العالمي. «هل تتكلم لندن؟» Do you speak London?، لم يكن هذا سؤالاً بلاغياً قصد منه التندر بهؤلاء الذين تشبثوا بالخيال الذي يفيد بأن إنجلترا هي قمة العالم حقبة ذاك حرفياً، إذ راحت اللغة الإنكليزية تحرر نفسها من محدوديات «بريطانيا العظمى» في أعين عامة الناس عبر دول الإقليم. وراح العامة يكتشفون أقاليماً واسعة تقطنها أمم تتحدث بالإنكليزية في أميركا الشمالية وأستراليا والهند وباكستان ونيوزيلندا. بوصفهما لغتي تكنولوجيا وتربية، بدت كل من الإنكليزية والفرنسية وكأنهما تكتسبان أهميتهما مما تغطيان من مديات جغرافية وسكانية أوسع بكثير مما كان يعتقد. لم يعد من الضروري «للرجل المهذب» في الإقليم أن يكون خريجاً للمعاهد البريطانية أو الفرنسية فقط كي يكون بالكفاءة وبالمستوى اللائق في نظر الحكومات عبر دول الشرق الأوسط. وهكذا راحت شهرة «أبو ناجي» John Ball (بريطانيا) تتدهور مع صعود نجم «العم سام»، ثم مع صعود نجم الأخ «السوفيتي الكبير». لقد أظهرت المؤشرات الإحصائية التي قدمتها وزارات التعليم والبحث العلمي في هذه الدول مؤشرات تعكس الإتجاه الجديد لتنويع الدول التي كانت توجه إليها البعثات العلمية. ومع هذا بقيت الذيلية لبريطانيا وفرنسا موجعة لأنها وجدت مترسبة في ذهنيات الإداريين الحكوميين منذ عصر الإستعمار المباشر أو الإنتداب في هذا الأقاليم. قد يكون هذا هو سر العناية الفائقة التي خصت بها حملات تأسيس المعاهد الفرنسية والبريطانية في أكبر مدن دول الشرق الأوسط.

حوالي نهاية ستينيات القرن الماضي، لم تكن في العراق أكثر من أربع جامعات رئيسة، في بغداد والبصرة والموصل. أما الآن، فهناك حوالي ثلاثين جامعة، زيادة على عشرات الكليات والمعاهد التي أسست من قبل القطاعين العام والخاص لإحتواء الأعداد الكبيرة من خريجي الثانويات والأفراد الطموحين للتخصص في حقول لم تكن معدلات درجاتهم عندما أكملوا الثانويات تؤهلهم لدراستها. وهكذا حرف مفهوم «دمقرطة» التعليم العالي عبر أغلب دول الإقليم على نحو سلبي لأن التوجه صار كمياً وليس نوعياً، خاصة وأن الحكومات عدت التنمية والتقدم مسألة «أرقام» صماء فقط، أرقام تشبه الأرقام التي أربكت الطفلة «سسي جيوب»، «الفتاة رقم عشرين» في رواية ديكنز (الأوقات الصعبة). صار المهم عند المسؤولين عن نظم التربية والتعليم العالي هو الكم وليس النوع بقدر تعلق الأمر بالبرامج التعليمية في دول الإقليم، وهي حال قادت إلى تدهور مخيف بمستويات المؤسسات التربوية والجامعية الناشئة التي كلفت حكومات دول الإقليم أثماناً باهضة. بالنسبة لتربويين على معرفة دقيقة بمعطيات التردي، لم يبلغ مستوى خريجي أغلب الجامعات والكليات والمعاهد الخاصة التي أنشئت بالجملة فيما بعد مستوى خريجي الثانويات في العقود الوسطى من القرن الماضي، أي مستوى هؤلاء الذين إجتازوا الإمتحانات العامة فقط قبلئذ. هكذا صارت الشهادات الجامعية ديكوراً يشكل عبئاً حقاً على دوائر الدولة التي توجب عليها الإضطلاع بتوظيف أصحابها.

ونظراً لعده المؤشر الأدق للتقدم في أجواء التنافس الإقليمي والحرب الباردة بين بعض حكومات الشرق الأوسط، دل هذا الإفتتان القصير النظر والخاطئ بالكمية على حساب النوعية، خاصة بقدر تعلق الأمر بالبنى الأكاديمية التحتية (البنايات والمكتبات والمختبرات

والحواسيب والكوادر المختصة) على أنه ليس عائقاً بسبب إمكانية شراء هذه البنى بالمال، وبسبب توفر الأخير. ثمة مشاريع تربوية وأكاديمية هائلة لم تكن أكثر من «قفزات في الظلام» لأنها هدرت الكثير من الأموال، بلا مخرجات مضمونة بقدر تعلق الأمر بتأهيل الموارد البشرية. وقد جسدت النتيجة «إخفاق رؤيا» مرير بالنسبة لحكّام هذه الدول لأنهم أمروا بتمويل هذه البرامج التربوية بالجملة، معتقدين أن النقد يمكن أن يبتاع الإستنارة. وكنتيجة محققة، داومت الصفوف الدراسية على إنتاج خريجين غير كفوئين، بينما بقيت القطاعات الإقتصادية الحيوية تستورد الخبراء والمهندسين والأطباء والعمالة الماهرة، بل وغير الماهرة من دول أخرى في ذات الوقت الذي تحولت صفوف الدراسة المحلية فيه إلى مجرد «علب سردين» عملياً، حيث إحتشد الطلاب وقوفاً وجلوساً في الصفوف الصباحية والمسائية، متأهبين جميعاً لإقتناص الدرجات العلمية في سبيل التعيين في دوائر الدولة والإفادة من «مأدبة البترودولار» السخية. وقد إعتمدت هذه الأرقام الفلكية المهولة من الطلاب لتحقيق الطفرة التربوية «النوعية» على معلمين منهكين إستحالوا إلى «مكائن» تدريس بالمعنى الحرفي، بالرغم من تسميتهم «أساتذة»، تعسفاً. تحول هؤلاء «الأساتذة إلى أجهزة تسجيل تكرر ذات الصيغ والكلمات من صف دراسي للإنتاج الواسع» لآخر بضمن عجلة تراجع أكاديمية شريرة متواصلة الدوران قوامها التعليم والتربية المزيفة. كان يتوجب على هؤلاء «المعلمين» تكويم أكبر قدر ممكن من النقد في سبيل البقاء وتجاوز نسب التضخم العالية التي إبتلت بها أكثر إقتصاديات دول الإقليم. أما مشاريع هؤلاء «المعلمين» فلم تكن ذات صلة بالبحث العلمي أو بالتطوير التربوي، ولكنها كانت ذات صلة مباشرة بتكوين وزيادة رأس المال الخاص لأنها كانت مرآة لتوثبهم إلى تحقيق «النقلة الإجتماعية»، لو إستعرنا إصطلاحاً

دقيقاً من علم الإجتماع. لذا تبلور المستوى الهابط للبحث العلمي في جامعات الإقليم: فلم يعد الإبتكار أو البحث عن الأصالة بالنسبة لهؤلاء الباحثين سوى خطوات من أجل بلوغ أهداف أخرى لا تمت بصلة للمعايير العلمية والأكاديمية الحقة قط.

وكان الأدهى من بين معطيات «الإنتاج الواسع» لأنظمة التربية العربية يتجسد في أنه لم يكن من المقبول، بالنسبة للشبيبة المتعلمة في جامعات هذه الدول الغنية بالبترول، الخدمة في القطاع الحكومي العام بمناصب أدنى من منصب «مدير»، أي المدير الذي يخدم تحت إمرته عشرات المشتغلين المستوردين من الدولة الآسيوية أو الإفريقية. وقد أدركت الإدارات الجامعية في الدول الغربية الطلب المتصاعد القادم من دول الشرق الأوسط على هذا النوع من الشهادات «التجميلية» بسرعة، فغدت هذه هي الطريقة المثلى التي يتم بموجبها تدوير البترودولار عبر تبادلات الشبكة العالمية المعقدة التي يضبطها قانون العرض والطلب الأعمى.

لقد أسهمت الحصيلة النهائية للإندفاع نحو الشهادات الأكاديمية العليا، على نحو تراكمي، في إختلال التوازن في برامج تطوير الثروة البشرية في دول الشرق الأوسط، حيث ظهرت كتائب حملة الشهادات العليا (الماجستير والدكتوراه) مقابل تبلور فجوة نقص مخيفة في قوة العمل والكدح الأساس، ثم تبلورت فيما يسمى بكادر «الحلقة الوسطى» الضروري لتشغيل كل مشروع صناعي أو تجاري أو زراعي. من هنا برزت الحاجة لإستيراد العمالة الرخيصة بالجملة من قبل الدول الغنية بالبترول، من الأقاليم التي تعاني من فوائض نمو السكان للخدمة في كل شيء حرفياً، من تربية الأطفال إلى المشورة الإقتصادية، بل وحتى إلى الخدمة في القوات الوطنية المسلحة.

الطريف في الأمر هو حقيقة صادمة مفادها أنه، بالرغم من فائض شهادات الدكتوراه في هذه الدول، فإنها بقيت توظف الخبراء الأجانب (خاصة الأميركان والأوروبيين) لإدارة الجامعات والمراكز العلمية العديدة التي تفتتح هناك من آن لآخر، ناهيك عن الظاهرة الغربية المستجدة المتمثلة بافتتاح فروع للجامعات الأميركية والأوروبية الشهيرة في مدن مجاورة لصحارى الإقليم، إدانةً ضمنية للجامعات الحكومية الوطنية، الفاشلة.

قاد قبول وإستيعاب إندفاع العمالة الأجنبية إلى تهديد الهوية الوطنية للدول البترولية، بل حتى إلى تهديد اللغة العربية، وسيلة إتصال، لأنها تراجعت في التداول العام مقابل إندفاع الألسن الملتوية والملكونة للعمالة الأجنبية القادمة من دول الشرق الأقصى التي تتحدث بالإنكليزية، زيادة على ألسن بائعات الهوى الشقراوات القادمات من دول أوروبا الشرقية، الشيوعية سابقاً، إلى بعض مدننا، للأسف.

ومن ناحية أخرى، حل الدولار الأميركي محل العملة الوطنية في أجزاء واسعة من سوق التداول النقدي. واحدة من أكثر المشاكل المقلقة في أسواق الدول الغنية عبر الشرق الأوسط تتجسد في التغير الديموغرافي الذي برهن على أنه تغير لا يقاوم ولا يمكن عكس تياره لأن بعض حكومات هذه الدول غدت بدرجة من الإعتماد على العمالة الوافدة، أنها راحت تعجز عن إيقافها، بالرغم من أن هذه العمالة أخذت تغذي أنماطاً سلوكية وإجتماعية غريبة وممارسات جرمية غير متوقعة لم تكن معروفة بالنسبة للسكان المحليين من ذي قبل، ناهيك عن الإشكالات الثقافية واللغوية بالنسبة للأطفال العرب الذين ساء طالعهم لتعتني بهم مربيات من تايلاند أو الفلبين، فنزويلا أو سريلانكا.

وبسبب الأداء الضعيف لخريجي الجامعات، الذين يشكلون نموذجاً

صارخاً للبطالة المقنعة، نظراً لأنهم لا يصلحون لشيء عملياً، تصاعدت الحاجة لكورسات تقوية تكميلية من نوع «التدريب المستمر» In-service-training على نحو متسارع ومتصاعد. من هنا نبعت الحاجة لتأسيس معاهد ومراكز تدريب بقصد تفعيل هؤلاء البطالين وتجهيز الجهلة بالمتطلبات الدنيا لممارسة عملهم وتبرير مرتباتهم العالية. هذه الظاهرة تشكل إعترافاً ضمنياً بإخفاق رؤى ما يسمى بـ«دمقرطة» التعليم العالي في دول الإقليم وعلى هذا النحو الجارف.

تجسد المخرج النهائي لهذه العملية المتعامية المحمومة في إستبدال الأمية بنوع من «الأمية المقنعة» المعبرة عمن لا فائدة ترتجى منهم. وثانية، لاحظ المصدرون ومدراء الشركات الأجنبية هذا الفشل، فصمموا صادراتهم من التقنيات المعقدة إلى الإقليم على نحو مخطط يضطر المستوردين المثقلين بالبترودولار، للحاجة إلى كورسات خاصة للمتدربين القادمين من الشرق الأوسط الذين لا يتمكنون من أداء عملهم من خلال قراءة المنشورات الخاصة بشرح تقنيات التشغيل، من نوع "know-how" أعلاه لأنهم بحاجة للعروض «العملية» العينية في دول المنشأ التي أنتجت فيها التجهيزات المقصودة بالأصل. وهكذا يكمل البترودولار دورته العالمية كي يستقر في بنوك أوروبا في نهاية المطاف: فشكراً للمخزونات النفطية غير الناضبة التي أعادت توزيع مواردها النقدية تلقائياً وعلى نحو معولم وغير مباشر، من كوريا واليابان إلى أوروبا وأميركا الشمالية. إنه عصر العولمة بحق.

قاد الطلب المتصاعد لعنوان «دكتور»، بغض النظر عن التخصص والنوعية، الذي أبداه الصحفيون والممثلون وضباط الجيش وقوى الأمن الداخلي، بل وحتى الراقصون والراقصات، الذين رغبوا بتتبع خطى قادتهم، إلى ظاهرة فريدة في تاريخ التعليم العالي عبر العالم. صار هذا

العنوان بدرجة من الجاذبية والأهمية في دول الشرق الأوسط درجة أن رؤساء الدول راحوا يؤكدون على ذكره في كل مرة تجري فيها الإشارة إليهم وهم على سدة الحكم. أما بالنسبة للمتعطشين للدكتوراه المذكورين أعلاه، فهم دائماً بحاجة لهذا العنوان من أجل الشهرة الإجتماعية ومن أجل إصطياد الوظائف العامة الأرفع.

إنه لمن الطريف أن نلاحظ بأن التشبث بالتقدير الإجتماعي أو بالمزايا الحكومية من خلال الحصول على درجات عليا قد لوحظ من قبل طغاة الشرق الأوسط، فتم إعتماده أداةً من أجل خدمة مصالحهم على نحو فوري. يوظف هذا التشبث بالدرجة العلمية حالياً كأداة للثواب وللعقاب، ذلك أن توظيفه مصمم على نحو يناسب كل حال على حدة. ويأتي هذا الإستخدام الخاطئ كاضافة على توظيف أدوات توزيع الثروة التقليدية التي غالباً ما ينقصها الأساس المنطقي، باستثناء تفضيلات الطاغية والحلقة الضيقة المحيطة به. ولكن في نهاية المطاف، يبقى الطاغية فقط هو الذي يمسك بمفاتيح اللعبة: أن يقرر جعل الفرد غنياً أو مهماً. هذه هي خلاصة الرسالة النهائية.

وهكذا تتنوع أدوات الطاغية وتتحور من آن لآخر، ولكن الغرض النهائي يبقى هو سيادة وفرض إرادته المقلبة لحظوظ ولحياة الأفراد. في القرن التاسع عشر ظفر المفكر الأميركي رالف والدو إمرسون Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢م) بالطبيعة الحقيقية للحياة في هذا الإقليم، وهي تجسد الحياة التي تمتطيها قوة «النصيب» وحظوظ المرء مع السلاطين القساة، ملاحظاً ذلك على نحو مؤثر:

يغطس الغطاس شحاذاً، ثم يخرج من الماء وهو يحمل سعر مملكة بيده... في البلدان التي تنقصها المؤسسات الأمينة، يرغب كل فرد بامتلاك ما هو قابل للتحول[٢].

بطريقة أو بأخرى، يعود سلطان (ألف ليلة وليلة) المزاجي النزق، للحياة متجاوزاً رجات التغير التاريخي وخيالات الحكايات المتلاشية ليخرج علينا من قمقمه مجدداً في دول الشرق الأوسط المعاصرة بكل النزق والتقلب اللذين يقرنان بهذه الشخصية. لذا كانت ظاهرة الإستمرار غير المنقطع لحكومات لا يمكن قياس تواصلها على سدة الحكم بغير أطوال الأجيال وليس بالسنين. في هذا السياق الشاذ، يغدو من الواجب على هذا النوع من «الحكومات الأبدية» تطوير نظام تربوي يغذي هذا الشكل من الركود الذي يسمى عبر الإقليم بـ«الإستقرار».

نظراً لأنها قد وظفت كأدوات إدامة سلطة فاعلة مثل المال، تضاعفت أعداد المؤسسات التربوية الهابطة المستوى وانتشرت، كالفطر، على نحو سريع في جميع الإتجاهات لأنها حضيت بالرعاية الباذخة من الأنظمة التي إكتشفت بان الشهادات العليا يمكن أن تتواشج مع مؤشرات الولاء للنظام وبقائه، خاصة عندما تغدو هذه الشهادات شروطاً مسبقة للتعيين في الوظائف العامة المهمة كوظائف السفراء أو الوزراء. لذا صار إكتساب هذه الشهادات مسألة إعلان التأييد للنظام أكثر من كونها مسألة القيمة أو الجدوى العلمية للبحث العلمي وأصالته وإبتكاره، أهدافاً حقيقية له. أما في حال عدم إستجابة المؤسسات الأكاديمية القديمة لهذا الغرض السياسي بما يكفي من السرعة والحماسة، فلا بأس من تأسيس معاهد جديدة تتوافق ومؤشرات الطلب الذي يشكل «روح العصر» الإقليمي، بغض النظر عن الأثمان الباهضة التي تدفع لهذا الغرض، أكاديمياً أو أخلاقياً.

أثناء عقد التسعينيات من القرن العشرين، وفي ذروة العقوبات الإقتصادية التي كانت الأمم المتحدة تفرضها على العراق إثر غزو الكويت، ساعد الطلب العالي على شهادات الدكتوراه وسواها من

الشهادات العليا، مكرساً بالدعوات العالية الصوت لكسر «الحصار العلمي»، عملت الجمعيات المتخصصة ومنظمات حزب البعث على تحوير مقراتها ونواديها الإجتماعية وبناياتها المهجورة لتخدم صفوفاً دراسية لهذا النوع من المؤسسات الأكاديمية «المصطنعة» في سبيل منح شهادات عليا مزيفة بالجملة لتلبية طلبات أعداد كبيرة من الأفراد الذين كانوا يطمحون للفوز بوظائف عامة مهمة ولتلبية حاجة النظام لمثل هذه الصفوف الدراسية، ليس فقط لإحالة هذه المعاهد إلى فضاءات للتجسس على الشبان والشابات المسجلين على الدراسة فيها، ولكن كذلك لإمتصاص أوقات فراغهم وتهدئة ما يجول في خواطرهم من مشاعر تمرد.

واحد من الأكاديميين الذين قرروا تحوير السرد التاريخي العربي الإسلامي على نحو يتواءم مع الخطاب الآيديولوجي البعثي خلال الحرب العراقية/ الإيرانية، بادر لأن يحيل السرد أعلاه معنى وظيفي في تلك الظروف المتردية من خلال البحث التاريخي «العلمي» في حقول الحقب القديمة والوسيطة، من أجل خدمة «القائد التاريخي».

لهذا الغرض، أطلق المبادرة غير المسبوقة لإحالة بناية نادي «جمعية المؤرخين العرب» في بغداد ليعيد تقديم هذه الجمعية، التي كانت تستخدم حانة، باسم جديد، وهو «معهد التاريخ والتراث العلمي العربي»، الذي يتخصص فقط بمنح الشهادات العليا للملتحقين بقسمي المعهد الرئيسين، «العسكري» و«المدني». لذا كان يتم تقسيم المرشحين المحظوظين للدراسة فيه بين صفين لدراسة الماجستير مع صفين مشابهين لدرجة الدكتوراه. أما الأساتذة الذين اضطلعوا بالمحاضرات في الكورسات التحضيرية والإشراف على «الرسائل العلمية»، فكانوا مستعارين جميعاً من الجامعات العراقية المؤسسة العريقة، كجامعة بغداد والجامعة المستنصرية وجامعتي الموصل والبصرة. لم يكن أمام المرء إلّا أن

يدهش بمشهد الأعداد الغفيرة للطلبة «الباحثين» الذين راحوا يحتشدون في هذه الصفوف، لو صادق وأنه ذهب إلى ذلك المعهد المضحك في زيارة. كانت هذه المبادرة وأمثالها تمر وتتم الموافقة عليها من قبل «القيادة التاريخية المجيدة»، تحت عناوين ساحرة مثل «كسر الحصار»، على الرغم من أنها قادت إلى تشويه البحث التاريخي وليّه، بصرف النظر عن الحدود الفاصلة بين الحقيقة التاريخية والخيال التاريخي. ومع مجيء الإسلاميين للسلطة في مرحلة ما بعد سقوط صدام لم يتقدم البحث التاريخي إلى آفاق أفضل، ذلك أن «الديمقراطية» فتحت الطريق لتأسيس المزيد من المعاهد المزيفة لتخريج المئات من حملة شهادة الدكتوراه التي تزدحم بها اليوم أروقة البرلمان ومجلس الوزراء العراقي، من بين سواها من دوائر الدولة.

وقد تكررت عملية مشابهة لما جاء في «معهد التاريخ العربي» أعلاه، محاكاةً من قبل البعثيين المرائين والمتملقين الكثر آنذاك الذين، ربما، سعوا إلى غمر صدام بالأطروحات والرسائل العلمية التي تدعم بلاغياته وبلاغياتهم المضادة لأساليب البحث العلمي «التقليدي» من خلال مؤسسة آيديولوجية البعث عبر ما أطلق عليه «معهد القائد المؤسس»، وهو معهد ركزت أبحاث طلابه، ليس فقط على دراسة أفكار القائد المؤسس، ميشيل عفلق، ولكن كذلك على بحث أفكار «القائد المجدد»، صدام حسين. والطريف، أنه قد تبين أن أفكار «القائد المجدد» ظهرت أكثر أصالة وإبتكاراً من أفكار «القائد المؤسس الأول»، باعتبار درجات الحرارة العالية للفضاء السياسي عبر تسعينيات القرن الماضي. جرفت موجة هذا النوع من «البحث العلمي»، عدداً كبيراً من الأكاديميين الذين وافقوا على إلقاء المحاضرات والإشراف على أبحاث التخرج هناك من أجل الفوائد المادية والإعتبارية. من الناحية المادية، خصت هذه المعاهد المزيفة على

نحو إستثنائي بميزانيات كبيرة كي تدفع بسخاء أكبر للمستخدمين؛ أما من الناحية الإعتبارية، فإنها قدمت الإمتيازات للتدريس والإشراف على «باحثين» كان جلهم يعملون في الأجهزة الأمنية، بضمن أجواء الخوف التي كانت سائدة آنذاك، خاصة وأن عدداً من هؤلاء «الباحثين» كانوا أعضاءً في قوات حماية صدام حسين المختارة.

كانت من بين الدوافع والإرهاصات المتنوعة التي عجلت الإندفاع للظفر بشهادات عليا، الدكتوراه خاصة، الإشارات المربكة التي أطلقها الطغاة أو أتباعهم إلى الجمهور، وهي إشارات تعبر عن التقدير والدعم من أجل الحصول على شهادات عليا، بغض النظر عن قيمتها العلمية ومستواها الأكاديمي حسب المعايير الأكاديمية الدولية المعتمدة، وهي حال خطيرة شجعت على التركيز على موضوعات محلية يمكن بحثها بمعزل عن العالم الخارجي وبأدنى متطلبات البحث العلمي الحقيقي، أي بدون الحاجة لشبكة الإنترنيت أو للمصادر العلمية الحديثة الصادرة خلال سنوات تشديد الحصار الدولي على العراق تحت يافطة الأمم المتحدة. لذا تضمنت الأنظمة العلمية التي كان يرنو إليها هؤلاء الباحثون، التاريخ والدراسات الإسلامية والفنون الجميلة والتشكيلية والإعلام والتربية الرياضية، من بين أنظمة لا تحظى بالحاجة الحقة أو بالطلب الكبير على خلاصاتها.

بل وأن الأكثر مدعاة إثارة للتندر قد تجسد في درجات «الدكتوراه الفخرية» التي كانت تمنح بسخاء للمسؤولين الحكوميين من قبل الجامعات في المناسبات «الوطنية». وكان الأدهى هو أن يتعامل الممنوحون هذا النوع من درجات الدكتوراه الفخرية معها بدرجة مفرطة من الجدية أحياناً، درجة أنه يطلب من الجمهور ومن الإعلام وضع العنوان «دكتور» قبل إسمه في كل مناسبة يظهر بها إسمه. تغدو هذه

«التقليعة» أكثر تأثيراً وخطورة عندما يتصاعد الطموح الذي لا يمكن مقاومته بالحصول على الدكتوراه درجة شموله الدائرة الصغيرة من أقارب الطاغية و«ثقاة» القوم من رجال حمايته (فتخيل رجل حماية برتبة نائب ضابط يحمل درجة الدكتوراه). وهي حال قادت هذه «التقليعة»، إلى ظهور أساتذة جامعات، نوع «نعم، سيدي»، أي من هؤلاء الذين يبيعون أنفسهم وخبراتهم المتخصصة لتملق المتسلطين وتلطيف مشاعر الأقوياء. هم أساتذة على أهبة الإستعداد دائماً، محملين بموضوعات أكاديمية جاهزة، وربما بأطروحات ورسائل كاملة لتقديمها للشخصيات المتنفذة التي تعبر عن الرغبة في تتبع خطى الطاغية في الحصول على الدرجات العلمية، بغض النظر عما إذا كان الطاغية رئيساً أو ملكاً أو شيخاً. بوصفهم «مضيفين» وليس أساتذة أكاديميين مسؤولين، إستحال هؤلاء «الأساتذة» من الرجال والنساء إلى فئة مستفيدة في بعض دول الشرق الأوسط.

إنه لمن الطبيعي أن يمنح هؤلاء الأساتذة المحظيون الميزات التي يفتقدها زملاؤهم الأدنى طالعاً، ومن هذه الميزات تأتي المخصصات النقدية الكبيرة والوظائف العامة المهمة وعضوية اللجان الرئاسية (أو الملكية) الإستشارية وعضوية الإبتعاثات أو الإيفادات إلى الدول الأجنبية، زيادة على الظهور المتكرر على صفحات الإعلام الذي تديره الدولة. لذا فإنهم محسودون من قبل زملائهم الأكاديميين الذين لا تحلق حظوظهم عالياً بالدرجة الكافية كي ينتقيهم إبن الطاغية أو أخوه للتحضير لدرجة دكتوراه. هذا الجنس النادر من الأساتذة المحظوظين لا يتم إنتقائه إعتباطياً للتمتع بهذه الميزات لأنهم معروفون بتدبر «حرفة» كتابة الأطروحات والرسائل مع قوائم المصادر والهوامش المهيأة مسبقاً لتحقيق أحلام اللاجدوى الآدمية. لقد بقي إنجاز «النقلة الثقافية» أو

الإجتماعية مهماً دائماً بالنسبة للرعاة الذين كانوا يضطلعون بحماية الرئيس أو الملك أو الشيخ على سبيل قلب صورة البدوي الذي إستقر في المجتمعات المتحضرة رأساً على عقب، حيث يمكن للمرء أن يضع «ربطة العنق»[٣]، ويتفلسف من على شاشة التلفاز من آن لآخر.

وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، تتجسد أمام المرء ظاهرة الإندفاع والتنافس المنقطع النظير لتأسيس مراكز الدراسات العلمية والتخصصية في دول الشرق الأوسط، حيث تتفتح هذه المراكز من آن لآخر في عواصم الإقليم، بغض النظر عما لو أنها كانت ضرورية فعلاً أو أنها مقامة من أجل الشهرة أو من أجل حرق براميل النفط بلا جدوى. الشيء المهم هو أن هذه المراكز تفتتح قنوات إضافية للإنفاق، ولا نقول لهدر فائض المال في خدمة المحسوبية والمنسوبية بواسطة المرتبات والتوظيف في المتاحف المتخصصة والندوات والمؤتمرات المنظمة من قبل هذه المراكز. ومرة ثانية، يكون جيش الإحتياط الذي قوامه الأساتذة والخبراء المرتزقين جاهزاً لتنفيذ رغبات أو نزوات الحاكم غير المتوقعة من أجل تخصيص الأموال للبحث في الفولكلور وفي الأعمال التقليدية اليدوية ومعارضها. ويلعب الحنين البدوي للقبيلة دوراً مهماً في النأي بالإقليم، خاصة الجزء العربي منه، عن موجات التحديث. لذا تشكل أحلام بعث التقاليد القديمة والموروثات المهلهلة جزءاً من الجهد العام والمبرر للحفاظ على ما يسمى بـ«الهوية الوطنية»؛ وهي، لهذا، ضرورية من أجل مدخل متوازن للمستقبل دون التضحية بثقافة المرء. أما هذه الثقافة فهي محدودة، بكل إعتداد وعبثية، بالغطس وصيد اللؤلؤ وحياكة وبر الجمال وخياطة الخيم البدوية. أما المصادر المالية، فهي جاهزة دائماً وبسخاء للمشاريع اللامجدية من هذا النوع، بينما تتبع المبررات المقنعة والآراء المؤيدة لمثل هذه المشاريع مباشرة. ولأنها مبررة على أسس وطنية، فإن مراكز

الفولكلور العديدة ليست بحاجة للكثير كي تتجسد أمام الناظر ما دامت هناك شركات بناء آسيوية وأوروبية جاهزة لإقامة بنايات كبيرة لهذا النوع من المراكز، بنايات كاملة مع الصالونات والمطبعات وقاعات المؤتمرات والمحاضرات والمكتبات، زيادة على وجود الوفود، على أهبة الإستعداد دائماً، لترسل إلى الدول الأجنبية في سبيل التسوق وتطوير هذه المراكز. العمالة الرخيصة متوفرة تحت الطلب وهي تسهل كل مهمة تخطر على البال تقريباً.

لا يصعب فهم الدوافع الكامنة وراء هذه الأعداد الملحوظة من مراكز البحث «العلمي» والمتاحف المتخصصة للدراسات الفولكلورية لعرض منتجات لا فائدة ترتجى منها عبر عواصم الشرق الأوسط حسب ما مر ذكره. أما لو أنها كانت أكثر ضرورة عملياً من مراكز العلوم التطبيقية في الحقول العلمية الصرف أو المهنية العملية أم لا، فهذا سؤال آخر يتعلق بموقف المرء من العصر الذي يحيا فيه ومن تطوراته السريعة، خاصة عندما يعتقد بأن الخيمة البدوية التقليدية وأواني الطبخ والطبيخ المتفحمة أكثر أهمية بكثير من البحث في الحقول الحيوية الأكثر ضرورة الآن في العالم الحديث. ونظراً لكونها ظاهرة «نوستالجية» أكثر من كونها ظاهرة عملية حقة، وكونها رجوعية أكثر من كونها متوثبة للأمام، تبقى الرغبات الغرائبية لطغاة دول الإقليم تسحب شعوبهم إلى الوراء على نحو متواصل، نحو «عصر الظلام»، بدلاً عن دفعها إلى الأمام نحو «عصر الأنوار» الهخبيء في المستقبل المشرق والشجاع الذي تؤهلهم له ثروات بلدانهم في سبيل الإستمتاع به بسعادة. إضافة الى التيار المذكور أعلاه، نواجه في العراق الآن حمى اللطامين وسفاكي دماء الرأس (الطبارين) الذين يدفعون شعب «العراق المحرر» إلى الوراء بإصرار متناهي وقناعة منقطعة النظير.

هذه المفارقة تقبع في قلب مأزق الإقليم، حبيس زنزانة العصر الوسيط، في وقت تتدهور فيه مُثل الإنسان نحو ما يعاكسها بسرعة: الديمقراطية تهبط نحو الفوضى، وحقوق الإنسان نحو الإذلال، والحكومة نحو كل الإستغلال، والإشتراكية نحو الإقطاع الجديد، و(الحضرية) المدنية نحو الريفية والمدن نحو التحول إلى قرى متضخمة، والثقافة نحو العصبية والتطرف الأعمى، والأخطر هو تراجع برامج التربية والتعليم العالي نحو تغذية الأمية المقنعة.

الفصل التاسع

المفارقة الثامنة:

قلب رحلة كولومبس

الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا قط، حتى تقف الأرض والسماء أمام كرسي الإله العظيم، فلن يكون شرق ولا غرب ولا تكاثر ولا ولادة، إذ يقف رجلان جباران وجهاً لوجه، رغم أنهما قادمان من نهايتي الأرض!

❖ ***روديارد كبلنغ***

بدأ الإهتمام الأميركي بالشرق الأوسط كظاهرة رومانسية مارة[١]؛ ولكنه ما لبث أن تناهى إلى «رومانسية» مفرطة درجة المواجهة والوجع. تطورت هذه المفارقة عبر محطات ومحكات تاريخية متنوعة، إبتداءً مما سمي بـ«حروب الساحل البربري لشمال إفريقيا» (١٧٨٥-١٨١٥م)، متواصلة عبر الحروب العربية الإسرائيلية ومتبوعة بغزو الولايات المتحدة العراق، ثم إلى إغتيال السفير الأميركي في ليبيا، كريس ستيفنسون، سوية مع ثلاثة من زملائه الدبلوماسيين ببنغازي من قبل إرهابيين مجهولين سنة ٢٠١٢م. يشير الباحث «بيونغ تشيون يو» Yu، في سياق رصده العلاقات بين الشرق وأميركا منذ أقدم مراحلها، أي منذ كولمبس، الإنسان الأميركي الأول، الذي دشن رحلته التاريخية من إسبانيا النصف مسيحية والنصف مسلمة متجهاً نحو الغرب لإكمال دائرة الأرض[٢].

هكذا إكتشف كولمبس «العالم الجديد» عن طريق الصدفة، متأسفاً لضم مترجم للغة العربية إلى فريقه، باعتبارها اللغة التي توقع كولمبس تداولها في الهند، وجهته النهائية، حيث كان يفترض أن يكمل دائرية الأرض بالوصول إليها عبر هذه الرحلة العملاقة.

ضمت محاولات تورخة العلاقات الأميركية بدول الشرق الأوسط عدداً من السرديات الطريفة التي زادت من «رمنسة» الصلات التاريخية، وبضمنها إكتشاف مخطوطة «حكاية عربية» كان فرانكن قد ألفها[٣]، ثم يأتي إستذكار الجيل الأول من العرب في أميركا، وهم من حداة العيس الذين استقدموا مع جمالهم لأسباب متعلقة بالحرب الأهلية.

لم يهتم الأميركان الأوائل براكبي الجمال، بقدر ما كانوا يهتمون بالحيوان الصحراوي ذاته في سياق الحرب الأهلية. يمكن لهذا السرد، نموذجاً، أن يفسر واحدة من المحكات المبكرة للبراغماتية النفعية الأميركية التي تركت بصماتها على المدخل الأميركي لتلك العلاقات بالشرق الأوسط، أقوامه وتراثه، مذاك حتى إستقرت على وضعها الذي نشهده اليوم: حكومات شمولية صديقة لواشنطن، وشعوب تضمر مشاعر عدائية لها.

عندما إستقلت أميركا كجمهورية عام ١٧٧٦م، لم ينقطع التآصر الرومانسي بـ«أوريندا»[٤]، أي بالشرق الأوسط، حسب تعبير الأديب ميلفل Melville (١٨١٩-١٨٩٧م)، متواصلاً بلا منافس في أعمال عدد من الشعراء والكتّاب الخياليين الأوائل مثل واشنطن إرفنغ Irving (١٧٨٣-١٨٥٩م) ورالف والدو إيمرسون Emerson (١٨٠٣-١٨٨٢م). بينما كان الأول مشغولاً بالمواد العربية والمغربية المتعلقة بإسبانيا، مسقط رأس كولومبس، إنهمك الثاني برصد التصوف الفارسي دون سواه من الأفكار الشرق أوسطية أو الآسيوية. لم يكن ذلك الإهتمام

الفكري المبكر سكونياً، كما كانت عليه حال عدد من الرومانسيين المبكرين لأن الروح الرومانسي تواصل متقداً، ممزوجاً بالجاذبية الروحية للشرق الأوسط. وهذا ماحدا بهيرمان ميلفل ومارك توين Twain (١٨٣٥-١٩١٠م) لأن يرتحلا صوب الشرق، بينما إنهمك إرفنغ ببحث تاريخ (محمد وخلفاؤه)[٥] بين ١٨٤٩ و١٨٥٠م، تحت تأثير سحر قلعة (الحمراء) الأندلسية[٦] (١٨٣٢م). كانت المسحة الرومانسية للإهتمام الأميركي بالإقليم من المعطيات اللامصلحية بالتأكيد، على عكس المدخل اللارومانسي المصلحي للقوى الكولونيالية الأوروبية إلى هذا الشرق. في أميركا، كان هذا الإهتمام فكرياً وروحياً بصفة عامة، متواصلاً على نحو ضعيف حتى القرن التالي، فانعكس عبر إشارات شعراء عمالقة من عيار ت.س. إليوت Eliot (١٨٨٨-١٩٦٥م) وعزرا باوند (١٨٨٥-١٩٧٢م) وفي أعمال عمر (١٩٢٦-٢٠١٠م)، إبن عزرا باوند، الذي إنتقى لابنه هذا الإسم تيمناً بـ«عمر الخيام». ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة بعد نهاية الحرب الفيتنامية، إنتقلت بؤرة الإهتمام السياسي والإقتصادي الأميركي غرباً، من «أوشيانيا» (الشرق الأقصى) إلى «أوريندا» (الشرق الأوسط)، عاكسة تحولاً مهماً حيث راح النفط يغسل ويزيل الرومانسية الدينية الطللية التي لونت إستشراق القرن السابق في أميركا، بمساعدة الحروب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨ و١٩٦٧ و١٩٧٣م وما تلى.

على الرغم من إخفاق الرؤيا الرومانسية المتصلة بالشرق الأوسط لأسباب سياسية ومصالح إقتصادية، كما تجسد ذلك فيما أشاعته وتشيعه الأفلام السينمائية والصحافة وأفلام الصور المتحركة (دزني لاند) وروايات الشد العاطفي، مثل رواية (موعد في سامراء) بقلم جون أوهارا O'Hara الحاصلة على جائزة «بولتزر»[٧]، فإن أميركا بقيت تهتم بالإقليم

بطرق متنوعة. والحق، فقد أزالت تحالفات الإدارة الأميركية مع الأنظمة الرجعية في الإقليم ما رسب من بقايا أحلام الحالمين السابقين لإستبدالها بالعلاقات المتوترة والمكهربة التي ساعدت على خلق جو عام مضاد لأميركا عبر الإقليم، جو أسسته الدعايتان الشيوعية والقومية فأشاعته وهيأته للإسلاميين الجدد الجذريين لإعتماده وإستغلاله على نحو مغرض وكامل كما يحدث اليوم. ولأن هذا النوع من العواطف العدائية لأميركا في الإقليم هو من رواسب الحرب الباردة باعتبار ما فعله الشيوعيون والقوميون العرب، كل بطريقته، فإن الإسلاميين الجدد لم يجدوا صعوبة في تطوير جدل يمكن ببساطة إعتماده من قبل أية جماعة سياسة مضادة لواشنطن حسب أغراضها وتكتيكاتها التعبوية.

يرد إخفاق الرؤيا الرومانسية المبكرة السابقة نحو الشرق الأوسط إلى إخفاق في قنوات الإتصال، خاصة مع القطاعات الإجتماعية المثقفة في هذا الإقليم غير المستقر والقابل للإشتعال. بينما إزدهرت دكتاتوريات الشرق الأوسط من خلال حجب القيم الأميركية عن شعوب المنطقة، فإن الولايات المتحدة لم تبدِ إهتماماً كافياً بهذه الشعوب وبالدعاية التصحيحية والصحيحة لمبادئها وسياساتها لإشاعة هذه القيم الرفيعة، مستفيدة بذلك من بقاء السلطة بيد هذه الأنظمة الظالمة التي شوهت سمعة أميركا وسوّدت صورتها. وقد إرتهن هذا الموضوع بقوة بالتشكيل التدريجي المتواصل لصورة، صورة لا يمكن رسمها أو تلوينها بين ليلة وضحاها بدون جهد كبير والتزام عملي حقيقي بالقيم التي إحتضنتها أميركا تاريخياً لنفسها، ثم لسواها في العالم الغربي، بالرغم من أن بعض الأنظمة المحلية أساءت فهم صمت أميركا حيال خرق هذه القيم كصفقة مقابل النفط أو مقابل إستثمارات إقتصادية كبيرة قادت، في نهاية المطاف، إلى تقوية وتعزيز الجانب البراغماتي والنفعي للسياسات الأميركية في الشرق الأوسط. إنه

لمن المهم أن نلاحظ في هذا السياق بأن الصورة المشوهة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط بقيت حبيسة نفاق الأنظمة الرجوعية التي كانت تبدو صديقة لواشنطن على السطح، بينما كانت هي المسؤولة عن إنتاج وتشويه صورة أميركا أمام شعوبها عبر الإقليم بتعمد، لئلا تطالب تلك الشعوب بقيم الديمقراطية وحقوق الإنسان التي لا تستطيع الأنظمة الرجوعية المعاقة أن تقدمها لها. لو أننا كتبنا قائمة بالأنظمة الصديقة للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، فإنها لا بد وأن تؤشر الطريقة المؤسفة التي تقدم من خلالها صورة أميركا، كصديقة لهذه الأنظمة الرجوعية على نحو سلبي يقود إلى خلق موقف معادي لأميركا بين قطاعات الشعب الواسعة. خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، لم تكن هناك محكات جادة يمكن أن تساعدنا على قياس أو معاينة الأساس المربك للعلاقات الأميركية بحكومات وشعوب الشرق الأوسط، باستثناء حرب أكتوبر بين العرب وإسرائيل (١٩٧٣م)، ثم أزمة حجز موظفي السفارة الأميركية بطهران، الحادثتان اللتان جهزتنا بلمحة تجسد إخفاق قنوات الإتصال المذكور أعلاه. المحك الأول جسّد إنحياز واشنطن لإسرائيل، بينما مكّن المحك الثاني الرئيس السابق صدام حسين من إستثمار العواطف الناتجة المضادة لأميركا لتحقيق مخططاته التوسعية الأنانية التي وصلت ذروتها في غزو وضم الكويت على حين غرة (١٩٩٠م)، بدعوى وجود ضوء «أخضر» أميركي تمثل في سوء فهم كان قد شاب مقابلته للسفيرة الأميركية ببغداد، إبريل غلاسبي، يوم ٢٥ يوليو، ١٩٩٠م. أتاحت عملية الضم غير المسبوقة أعلاه للولايات المتحدة التدخل لإنهاء أحلام صدام ببناء إمبراطورية من خلال توظيف شعار «الوحدة العربية» لهذا الغرض. لقد قسّم هذا «الحالم» الإقليم إلى فريقين، مؤيد ومضاد، علماً بأنه بقي تحت وطأة ضغط رؤيا وسيطة ترنو

إلى حراك إسلامي مزيف لتحقيق أحلامه. من هنا جاء ربط صدام المفاجئ بين إنسحابه من الكويت وبين إنسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٦٧م، ذلك الربط الذي لاذ به لشحذ العواطف الدينية، محاولاً سحب أقدام المسؤولين في الجمهورية الإسلامية بإيران إلى التحالف معه في حرب الخليج الثانية (١٩٩٠م) التي تبعها تحديه وقصر نظره النزقين على سنوات إدارة «بيل كلينتون». ثم تحت تأثير شبح هجمات ١١ سبتمبر وآثارها المأساوية، قرر الرئيس بوش الإبن أن ينفس عن غضبه ضد واحد فقط من أضلاع المثلث الذي أسماه بـ«محور الشر» في سياق الحملة المضادة للإرهاب، منتقياً العراق تحت حكم صدام حسين.

تمكن مباشرة قرار الرئيس بوش بغزو العراق من جوانب مختلفة على سبيل الخروج بفكرة إعادة تشكيل الشرق الأوسط إبتداءً من بغداد، على سبيل تشكيل ما يسمى بـ«الشرق الأوسط الجديد» الذي يراد له أن يحل محل الشرق الأوسط الذي يتفكك كما نرقبه الآن. من بين الدوافع والإرهاصات التي كمنت خلف قرار الرئيس الأميركي لغزو العراق كانت هناك ثمة إرهاصات سايكولوجية خفية من النوع الذي يمكن إسترجاعه وتحليله لتجهيز القراء المهتمين بأبعاد قد لا تكون خطرت على بال أحد، كأن نباشر هذا القرار بالغزو كإجراء لإعادة الإعتبار للذات أو للتأكيد على وجودها الفاعل بعد ما تكبدته أميركا في مأساة ١١ سبتمبر، ٢٠٠١م. لقد وضعت هذه الأحداث الساخنة الرئيس الأميركي على المحك التاريخي. وقد زاد البعد النفسي الجمعي من أهمية وضرورة الغزو، إضافة على الأبعاد الإستراتيجية والإقتصادية التي بقيت تضغط باتجاه المباشرة بلجم نظام العراق الذي لم يخفف من غلوائه والذي يستمر بالتحدي: ولكن مع هذا، لماذا العراق أولاً، وليس أية دولة مهمة أخرى في المنطقة الغنية بالبترول.

حسب مقالة مفيدة بعنوان «قراءة العراق» كتبها جورج فريدمان Freidman[٨]، يمكن تلخيص الأهداف التي توختها الولايات المتحدة للمباشرة بغزو العراق، بإثنين، وهما: (١) أن تكون أميركا في وضع يتيح لها الضغط على دول جوار العراق من أجل تجهيزها بالمعلومات الإستخبارية حول منظمة القاعدة؛ (٢) إستعراض الجبروت العسكري الأميركي وعكس قوة وإرادة واشنطن التي كانت بحاجة ماسة لأن يتذكر الجميع بجبروتها عن طريق توظيف أسلوب «الصدمة والترويع». ولكن إضافة لهذه الأهداف التكتيكية الإستراتيجية، لا يمكن للمرء أن يستبعد بعض الدوافع اللاواعية الدفينة التي تفاعلت في دواخل النفس الأميركية للذهاب إلى بلاد الرافدين وليس إلى سواها، أي إلى العراق الحديث. يمكن لهذه الإرهاصات أن تتواشج بـ«المزج القادم بين الشرق والغرب»، وهو جوهر حلم كولمبس الذي لم يتحقق للوصول إلى الشرق من ناحية الغرب، حلم كان قد أوحى به الشاعر الأميركي «إيرنست فينولوسا» Fenollosa (١٨٥٣-١٩٠٨م)، إذ كتب يقول:

لم يكن كولومبس وإكتشافه سوى مدخلاً لحلم لا يزيد عمره على أربعة قرون، فقد كنا عقبات على طريقه الغربية التي وجب السيطرة عليها قبل كل شيء. وها نحن ندشن اليوم حلمه حرفياً ونحمل البيرق الآري لسفنه إلى حيث أراد أن يغرسه على مرتفعات شرق يستيقظ[٩].

على الرغم من أن ضم هذه القوة النفسية الدافعة يبدو بعيد المنال مقارنة بالدوافع الأخرى التي كانت فاعلة في نفس الرئيس جورج بوش ونفوس هؤلاء من أفراد فريقه الإداري من المحافظين الجدد ليلة حرب العراق (٢٠٠٣م) إلّا أنه ليس ببعيد المنال عند النبش عميقاً باتجاه الإرهاصات الخفية التي قادت أميركا للذهاب إلى الحرب في العراق مدفوعة برغبة أسطورية أميركية لإعادة سلك خط رحلة كولومبس وإحياء

رؤيا «الأميركي الأول» من أجل إكمال «الدائرة العظمى» للأرض وعكس دورة مسيرة كولومبس التاريخية التي قادت إلى إكتشاف أميركا، أي العالم الجديد. لو سلم المرء بهذا الإفتراض، يمكن له أن يدعي بأننا نتعامل هنا مع حضارة «ذكورية» حديثة، أي حضارة الولايات المتحدة التي تباشر بعدائية وإستفزاز اقدم حضارة عرفها الإنسان، أي حضارة وادي الرافدين التي «تخنثت» عبر الزمن وغدت مستكينة الآن، برغم عدائيتها في حالات معينة كحماية الذات والدفاع عنها. لذا يمكن للمرء أن يلقي المزيد من الضوء، ليس فقط على طبيعة الغزو الأميركي للعراق، ولكن كذلك على الإرهاصات المبطونة المكنونة في الدوافع التي تشكلت وأعادت تشكيل نفسها بعملها المتواصل، محركاً، للسياسات الأميركية حيال أرض النهرين العظيمين، دجلة والفرات، خاصة بعد حرب ٢٠٠٣م. إن ما يمثل أمامنا، من الناحية الجوهرية، هو «الإنسان الألفي الجديد» وهو يحاول أن يولد من تزاوج أقدم حضارة في العالم مع أحدث حضارة، وذلك عبر محاولة سلك طريق كولومبس ثانية، ولكن باتجاه معاكس ليس فقط لإكمال دائرية الأرض (أو وحدة الكوكب)، ولكن كذلك لبلوغ «زواج» تاريخي يمكن أن ينجب «إنساناً ألفياً» جديداً لحظة إنقلاب العالم من ألفية لأخرى. ثمة توق أميركي لمزج «أنصاف الأفكار» الغربية بـ«أنصاف الأفكار» الشرقية لإستيلاد حضارة من نمط جديد هي ثمرة تزاوج العقول الحقيقية، لو إستخدمنا تعبير شكسبير الجميل. يأتي الإيحاء بهذا التحليل من القرن أو المزج المثمر للذكورية (الجبروت الصناعي والعسكري الأميركي في بيئة باردة) بالأنوثة (ضعف العراق الدافئ وعدم قدرته على المقاومة) قانوناً كونياً. يقدم «جدل الجنوسة» في عراق ما بعد الحرب تبرعماً آخراً يتمثل بالقوة مضاداً للضعف، والحكمة مضاداً للجهل، وصلابة التجمد مضاداً لدفء الأمومة، وهي

حال يمكن أن تلقي الضوء على الموقف الذكوري الأبوي الذي إعتمده الأميركان في التعامل مع العراقيين بعد الغزو، درجة توجيه إملاءات من نوع الكيفية التي يتم بموجبها تشكيل أول «مجلس حكم» من موزائيك الشعب العراقي الإجتماعي المنوع مع إشارة خاصة إلى النسب السكانية، إضافة على فرض وجوب تخصيص حصة (٢٥٪) للمرأة في كل هيئة رسمية، بضمن إناء إجتماعي إسلامي محافظ يقلل من شأن المرأة، للأسف. ولا يقل أهمية عن ذلك كله، تأتي ظاهرة رغبة القادمين الأميركان للحصول على «صديقات» أو زوجات عراقيات في حالات معينة. ليست هناك صور جسدت أو رمزت للقاء التاريخي بين الشرق والغرب في بغداد، أكثر تعبيراً وقوة من صورة كولن باول Powel وبول بريمر Bremer على مائدة عشاء أحد أبرز رجال الدين، السيد حسين الصدر، «على أضواء الشموع». وبصرف النظر عن الإبتسامة الخفيفة المرتسمة على وجوه الجالسين الثلاثة، تجسد الصورة لقاء/ إرتطام الشرق بالغرب على نحو منظور مؤثر بصرياً ونفسياً. ثمة توق قوي توحي به هذه الصورة للمزج التاريخي، وربما الإبداعي كذلك، الذي جلبه الغزو، جغرافياً وثقافياً: الحضارة الرقمية المعاصرة تبني جسراً للوصول إلى الحضارة المسمارية القديمة.

إن الفكرة المحورية للحدث التاريخي الذي يمكن أن نطلق عليه «أميركا في بلاد الرافدين» هي فكرة ولادة «بابل» من جديد بالدماء الشابة التي تحقنها «بابل الحديثة»، أي نيويورك في عروق بلاد بابل الأصل. وهكذا يتواصل التوازي بين أعلى النصب المعمارية لكلا المدينتين العالميتين، أي بين برج بابل وناطحات سحاب نيويورك، رمزان للاجدوى التطلع الإنساني إلى السماوات. لذا، تنطلق رسائل التحذير من الماضي إلى الحاضر على سبيل الإفادة والإرشاد: كيف

إنتهت المدينة العظيمة القديمة العظيمة بالدمار؛ وكيف ينبغي للمدينة العظيمة الحديثة أن تتعلم الدرس التاريخي كي تتجنب ذات المصير. هنا لم تعد فكرة الدائرة جغرافية أو مكانية حسب؛ فهي زمنية كذلك ما دام التاريخ يميط اللثام للأميركان وللعراقيين عن أنماط تكرار دورية.

لا بد أن يكون هذا النوع من الإرهاصات الأميركية الكامنة صعب الإستمكان والتحديد، على الرغم من أنها إرهاصات تشكل نمطاً نفسياً جمعياً مهماً يستعيد حلماً سلفياً أميركياً، بطبيعة الحال. إنه لمن الطريف بحق أن نلاحظ أن الخطاب الأميركي الذي سبق عملية الغزو إعتمد إشارات متكررة إلى تقدير تراث العراق التاريخي وإلى حق شعبه بقيادة أفضل وبحياة أسعد، على سبيل تبرير الحملة العسكرية. ومن الملاحظ كذلك أن القائد العام للقوات المسلحة الأميركية، الرئيس جورج بوش، لم يتأخر بزيارة القوات الأميركية التي تمركزت وحدات منها في عدد من المواقع الأثرية كأور وبابل، من بين سواهما من الأماكن المشحونة برائحة التاريخ، الأمر الذي يساعد على تيسير التنقيب ذي البعد النفسي تحت أضواء عصرنا هذا.

إن ما يهم المرء في هذا السياق من النقاش هو ليس البعد النفسي المذكور أعلاه فقط، خاصة وأنه الذي يحتاج لمحلل نفسي لسبر أغواره وإستخراجه والكشف عن خباياه، لأنه كذلك الفكرة التي تجسدت بعنوان «عملية تحرير العراق»، عبر الإيحاء بقوة عظمى حديثة تمنح أمة قديمة منحة الحرية التي إفتقدتها لعصور. الدلالة هنا تكمن في أن التاريخ قد لا يكون بالضرورة بناءً تراكمياً متواصلاً لأنه يمكن أن يبقي أمة خلاقة في غياهب ظلام زنزانة بعيداً عن اضواء الحاضر وآفاق المستقبل المشرق الواعدة. لذا ترفق أميركا الفتية هبة الحرية للعراقيين بالباذخ من الأموال للتأكد من أن البرنامج «التاريخي» التصحيحي للعراق «المنتظر» لا تنقصه الأدوات المادية التي

يحتاج إليها لتدشين عصر جديد من تاريخه، كواحة ديمقراطية في قلب صحارى الإقليم القفراء التي تهيمن عليها أنظمة شمولية خانقة.

إضافة على الأموال التي تبعت هبة الحرية، حثت إدارة بوش الدوائر والوكالات الأميركية (كل واحدة حسب إختصاصها) لدفع حصصها من الإستثمار في «العراق الحر»، ومنها ما طرح من برامج تطوير ثقافية وبعثات تربوية متخصصة ومشاريع بنى تحتية عملاقة قصد منها جميعاً أن يرى العراقيون ويجربوا «ثمة شيء أفضل». ربما كان ذلك جزءاً من برنامج «أمركة» أوسع، إذ شملت الحملة الأميركية قبول مئات الطلبة العراقيين في الجامعات والمعاهد الأميركية، زيادة على إستقدام آخرين إلى الدوائر المتخصصة أعلاه للتدريب، على سبيل تحقيق «تغير في القلب» يمكن أن يهدئ من روع العراقيين بعد الغزو العسكري المباشر. كان من المهم بالنسبة للعقل الإداري الأميركي أن يتأكد عبر البرامج التربوية، المكتوبة بعناية لعرض رؤى عرض القيم الأميركية وإستعراض النيات الطيبة من أجل التعامل مع مرارة شعب «البلد المحتل» الناتجة عن الغزو، مع إشارة تعظيم خاصة إلى عاصمته التاريخية بعد إستسلامها أمام إرادة غاز أجنبي قادم من الجانب المعاكس من الكرة الأرضية.

هكذا، تمت عملية فورية لضغط التعريف بأساليب السلوك المدني، زيادة على التعريف بموضوعات جديدة حول الديمقراطية وحقوق الإنسان في جرعة مكبسلة واحدة قدمت للعراقيين الذين ما زالوا لم يفيقوا من وطأة صدمة الحرب وما بعدها، لإبتلاعها مرة واحدة. تجسد أحد الدروس الأميركية المهمة في حرية إعتناق وممارسة طقوس أي دين يختاره الإنسان أو حتى حرية إختيار اللادين، وهي حرية لم يتذوقها العراقيون وسواهم من شعوب الشرق الأوسط من ذي قبل. لذا عادت للظهور، بعد الإحتلال، أنظمة دينية كانت محرمة ومضطهدة، سابقاً.

شملت هذه الأنظمة الدينية ديانات «أهل الحق» و«البهائية»، زيادة على إدعاء البعض «عبادة الشيطان» التي شاع إسمها في العراق بعنوان «إيمو» Emo، لفظاً مختزلاً من كلمة عاطفة Emotion. وللمرء أن يدعي أن الإدارة الأميركية تأملت قرن خطة الغزو العسكري بخطة غزو ثقافي موازية، شرطاً مسبقاً للتغيير الجذري المنتظر في العراق، ومن ثم في الإقليم بأسره لأن «الغزو الثقافي» أشاع قيماً هددت أعمدة البقاء والإستقرار التي إعتمدتها الأنظمة الرجوعية المتتالية لعقود من أجل أن تبقى على سدة الحكم. وهكذا، راح هذا النوع من الوعود بـ«عراق متأمرك» يتلألأ في أعين الكثيرين منذ لحظة إعلان الرئيس جورج بوش أن «المهمة قد أنجزت» في ٢٠٠٣م. كانت آفاق التحرر من دائرة النظم الوراثية والتقليدية مؤثرة للغاية على العديد من العراقيين المتطلعين لمستقبل أفضل فتأملوا فكرة: «إغلق ماضيك الوسيط؛ وإفتح حاضرك الحديث»! ولكن لسوء الطالع، يمكن للأحلام أن تتلاشى لتكشف عن رؤى غير يسيرة التحقق، خاصة عندما تبلغ الأحلام بمساعدة قوة أجنبية ترنو لمقاومة الأطر الوسيطة في مجتمع محافظ سكوني غير قابل للتثوير. بدا التغيير بالنسبة لقطاع كبير من المجتمع العراقي بمثابة جرعة قوية للغاية من التغير درجة مقاومتها ورفضها تلقائياً؛ ولكن بالنسبة لقطاع آخر من المجتمع العراقي بدا التغير خطراً ماحقاً، فوجبت مقاومته؛ وبالنسبة لمجموعة ثالثة لم يكن المهم هو سقوط الدكتاتورية، لأنه كان كذلك من الدروس الجديدة والمجددة التي قدمها الغزو الثقافي الأميركي، ناهيك عن على الآفاق المشرقة الواعدة التي تلألأت من بعيد، وهي الآفاق التي أزعجت الفضاء الإقليمي الرجوعي للدول المجاورة، فإستجابت بسرعة إنفعالية لمقاومة الجديد من خلال تغذية وإحياء القديم لتجنب طوفان الإقليم في مياه هذه «العمادة» الجارفة. لقد كمن الخوف من

هذا النوع من التغير الذي جاء به الأميركان للعراق وراء تحصين الدكتاتوريات التقليدية نفسها، وفعل كل ما من شأنه إجهاض ولادة عراق رائد جديد.

قد يكون مهماً أن نلاحظ بأن الجماعات العراقية التي رحبت بالتغيير الذي دشنته القوات الأميركية في العراق، مرفقاً بالوعد بحقبة جديدة شجاعة قوامها الديمقراطية، كانت من الفئات السياسية المضطهدة سابقاً كالشيوعيين والإسلاميين، الشيعة والسنة، والأحزاب الكردية وسواها من ضحايا الرأي والمعارضين الذين سبق أن إضطهدهم بوليس النظام السري لعقود. بل أن الأكثر أهمية من جميع المذكورين أعلاه برز الدور غير المتوقع للشبان العراقيين الذين فاجأوا حتى الغزاة الداخلين، إضافة على مفاجأتهم البعثيين المغادرين، بعرض حساسيتهم وإستجابتهم الشبابية لكل ما هو حر وجديد، مضاداً لبقايا الخوف ورواسب الحروب التي خلفها النظام الزائل، فاندفعوا نحو العجلات الأميركية المدرعة، بالقليل من الإنكليزية التي يعرفونها، لمعاونة القوات الغازية، مترجمين أو إدلاء مقابلات مرتبات عالية. كان هذا المشهد من أكثر النتائج المخيفة وغير المسبوقة لعقود من البرامج التربوية المخططة من منظور واحد (كتلك التي نوقشت في المفارقة السابعة)، أي البرامج التربوية المصممة لتعبئة الشباب وعسكرة طاقاتهم الجماعية بطريقة تجعلهم على أهبة الإستعداد دائماً للإلقاء في محارق حروب نظام صدام المتتالية. كان هؤلاء الشبان سابقاً منصاعين بلا إرادة؛ ولكن مجيء الأميركان دل على أنه كانت تعتمل تحت سطح الإنصياع المرئي طبقات من المشاعر المتمردة والأفكار المناوئة غير المتوقعة، طبقات كانت قد سئمت من سلسلة الحروب المتواصلة التي إختلقها صدام بعد أن تخيل العراق نسخة من بروسيا القرن التاسع عشر على عهد المستشار بسمارك الذي وحّد المانيا.

كانت ظاهرة الشبيبة العراقية المؤيدة للغزو المفاجئة مشحونة بالدلالات من وجهة نظر تاريخية: طلاب مدارس ثانوية وطلاب جامعات أطلقوا العنان لرفضهم العنيف لخطاب النظام الهادف لتحقيق «الوحدة العربية»، وهي وحدة كان يراد لها أن تحيل أجزاء الإقليم لعائلة صدام وأقاربه وأبناء قبيلته كي يحكموها على طريقة العصر الوسيط الأموية والعباسية والعثمانية. بدت الدبابات الأميركية بالنسبة لهؤلاء الشبان «المنشقين»، لو كان هذا التعبير مقبولاً في سياقنا هذا، بدت الدبابات الأميركية أشبه بسفينة نوح القادمة لإنقاذهم وعوائلهم من طوفان حرائق النظام التي لا تنته وحروبه الإقليمية المستمرة.

لا يقل أهمية عما سبق ذكره، ظهر المتفائلون من الرجال والنساء الذين نظروا إلى «التغير الثقافي» بإيجابية من زاوية أخرى، بوصفه نافذةً تطل على العالم الخارجي لتدمج شعب العراق الحبيس، ذلك الشعب الذي كان معزولاً خلف ستارة ستالينية حديدية لعقود عن بقية شعوب العالم. لقد كان «رهاب الأجنبي» وراء عجز النظام المنهار عن الإنفتاح على تيارات التغير الجديدة المنعشة، درجة أنه منع الهواتف الخلوية والتقاط الفضائيات من أجل عزل الشعب العراقي وحفظه في زنزانة ضيقة مظلمة ليسهل تدبره. لقد أنتج الغزو، من بين آثاره المتنوعة، رد فعل ملحوظ عكس على نحو واضح شكوى شعب كان محروماً من أبسط حقوق العصر الحديث: فلو كان النظام السابق قد إكتشف مواطناً يلتقط الفضائيات، لكان عليه أن يودعه السجن ستة اشهر وأن يغرمه حوالي (٦٠٠) دولار أميركي بسبب إحتفاظه بصحن لإستقبال البث الفضائي. كانت تلك الصحون من ميزات «العوائل الموثوقة» فقط، أي العوائل المنحدرة من بلدة تكريت والعائلة الحاكمة المقربة من صدام. لقد خلق الغزو حركة في المياه الراكدة لمجتمع كان في طور التفكك والسقوط

عميقاً في هوة سحيقة بلا ومضة أمل واحد: لأن الركود الإجتماعي والإقتصادي هو مفتاح بقاء النظام. لا تقتصر لنلاحظ أن هذه الخلاصة لا تقتصر على نظام صدام فقط، ولكن تشمل كذلك على الأنظمة الإقليمية الرجوعية ذات الطبيعة نفسها عبر الشرق الأوسط.

دلت نزعة الإنفصال عن العالم، بهدف عزل الذات، أنها واحدة من أكثر التقنيات فاعلية في سبيل فرض «التحجر» على مجتمعات بكاملها، مجتمعات كانت قد طورت وعيها بالوجود، في الحاضر وفي المستقبل، تحت تأثير حلم سلفي محبط. في أغلب دول الشرق الأوسط، يعد الإتصال بشخص أجنبي، حتى وإن كان صحفياً، «تخابراً» مع جهة أجنبية، وهي جريمة تشبه جريمة التجسس، حسب قوانين الأنظمة الشرق أوسطية.

إنه لمن المهم للغاية بالنسبة لهذه الأنظمة التقليدية أن تتجنب عوامل تعريتها الهادفة للتغير بأي ثمن كان، ليس فقط لحفظ الركود وإدامته تحت عنوان «الإستقرار»، ولكن كذلك لتكريس مسيرة تراجع متواصلة ومتواترة قادرة على تجنب تيارات التغير العولمية. يراهن هذا الموقف «المحافظ» الذي تتبناه الأنظمة الرجوعية على صلاحية القيم الوسيطة المتوارثة وعلى إمكانية بقاء نماذج الحكم التي أظهرت قدرة فائقة على مقاومة التحول وعلى التواصل تاريخياً، إعتماداً على برامج ثقافية وتربوية تمجد، بصراحة غريبة، البقايا الطللية للقديم على حساب الجديد، كما لوحظ ذلك في المفارقة السابقة. وعلى نحو مخالف ومختلف عما يجري في شرق وجنوب آسيا أو في بقاع أخرى من العالم، يشهد الشرق الأوسط حركة رجوعية معاكسة نحو ماض محبط وجامع لغبار الزمن. هو إقليم يجهزنا بمنظور مقلوب لرؤية الحياة ولمواكبة العصر وإختبار مسار التطور بالكثير من الخوف والشك، درجة الإعاقة. تجعل هذه الصفة

الإقليم بيئة نموذجية لتمرير الخطاب الديني الحقود والمتشدد الذي يعبد الطريق لجماعات الإرهاب وللضغائن الطائفية وللعداوات التالية والثانوية في عالم يحاول بقوة أن يحرر نفسه من هذه النزعات المتطرفة المعيقة. وإلّا، فكيف يمكن لمؤرخ أفكار منصف أن يستخدم معياراً واحداً لقياس الفجوة المتسارعة بالإتساع بين ما يحدث في الصين أو الهند، من ناحية، وبين مسيرة التراجع المتواصلة إلى الخلف الجارية الآن في هذا الإقليم، تلك المسيرة الإرتدادية المحمية من أولي الأمر بعناية، من الناحية الثانية؟

لم تتعرض الحركة الإرتجاعية في العديد من مجتمعات الشرق الأوسط لأي عائق جاد بسبب عدم ظهور الكفاية من النقاد ورماة الحجارة من النوع الفكري الشجاع الداعي للتفاعل مع العالم الخارجي بأسره للحث على التغير وإطلاق الحركية كما فعل أساطين النهضة العربية الإسلامية سابقاً، برغم ما شاب خطاباتهم من إختلالات. ولكن لسوء الطالع، عد الأوصياء على التقاليد هذه الدعوات، برغم ندرتها، مجرد محاولات «علمانية» ترنو لطلاق الإسلام ثلاث. فقط في هذا الإقليم، تعد العلمانية كفراً؛ ويعد من يوصف بأنه «علماني» إنساناً متهتكاً متهماً بتعمد تشويه «التراث»، ذلك الكنز الذي لا ينضب ولا يقدر بثمن في نظر الرجوعيين! قد يكون مهماً بالنسبة لجامعة الدول العربية، التي صنعها البريطانيون وشغلها البترودولار، أن ترحب بحوار ثقافي مع العالم الغرب، فتجمع عدداً من المفكرين والأكاديميين العرب للخروج بموقف موحد يشكل ويعزز موقفاً عربياً ناضجاً موحداً للحوار الثقافي العابر للبحر المتوسط مع أوروبا. إلّا أن هذه المبادرة برهنت سابقاً على أنها وسيلة أخرى لتكريس الركود وعده آيديولوجية وتثبيته كفلسفة، عندما نفذت فكرة الحوار أعلاه في الجامعة العربية إبان تسعينيات القرن العشرين. ولكن لسوء الحظ، لم تظفر هذه الجامعة بقنوات الإتصال بين النخب

الأوروبية وبين نظيراتها العربية. إنه لمن الطريف أن يمرر الأوروبي الغرب إلى الإعلام العربي خلال ثمانينيات القرن الماضي ما يفيد بأن عدداً من المفكرين الفرنسيين أبعدوا فكرة الحوار مع العرب لأن البترودولار لا يؤهل كانزوه للمشاركة في حوار المائدة المستديرة مع الأوروبيين أنداداً، باعتبار الفجوة الواسعة الفاصلة بين الجانبين. لذا فقد تم تبرير هذا الرفض الفرنسي لمقترح الحوار، برغم ما ينطوي عليه من نظرة دونية، بالحديث عن غياب «لغة» مشتركة مفهومة من قبل الجانبين، كناية عن الحواجز الثقافية والنفسية التي لا يسهل خرقها من قبل مجموعة من المشاركين المرشحين للحوار. عنى غياب «اللغة»، المذكور أعلاه، الذي لاحظه الفرنسيون تناقض الذهنيات المتحاورة وغياب المداخل المتناظرة التي تستحق التأمل والمتابعة بشيء من التفصيل لأنها تؤشر على نحو ملتو، بأنه ليس في العرب من هو قادر على المشاركة في حوار الشرق/ الغرب بسبب «تخلفهم». كما أنه عنى كذلك أن الأوروبيين، وليس العرب، هم من ينبغي أن يسموا أفراداً عرباً مؤهلين للإشتراك في الحوار، أفراد قادرون على «فهم لغتنا» تأسيساً على تخرجهم من مدارس أو جامعات أوروبية.

ومن ناحية أخرى، تسبب الغزو الأميركي للعراق، عسكرياً وثقافياً، بنتائج سلبية غير متوقعة لأن الإدارة الأميركية لم تكن تملك رؤيا أو خطة واضحة المعالم حول ما كان سيحدث لاحقاً (أي بعد نهاية الغزو)، باستثناء البلاغيات المثالية التي كانت تشاع عبر الإعلام، لفظياً فقط، عن الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وهي شعارات بعيدة المنال بالنسبة لمجتمع لم يزل لا يقوى على تحرير نفسه من مكبلات الماضي، باعتبار ضغوط الفئات الإجتماعية التي دفعها الغزو إلى أعلى نحو الهيمنة على السلطة، بالرغم مما شاب تلك الفئات من فساد وتخبط. وهكذا

إصطدمت المثالية مع التخلف القديم لتخرج بواحد من الأشكال الأكثر تشوهاً للحكومة السيئة وغير العادلة.

ومع إخفاق رؤيا العراق، حديقة للديمقراطية في قلب صحارى الإقليم، تصاعدت أعباء الوجود العسكري الأميركي وتكاليف بقائه مادياً وإعتبارياً لأن «العراق الجديد» وقع، هذه المرة، ضحية للإرهاب وللفساد الحكومي اللذين أقفلا كل الطرق نحو التقدم.

أما الذي تلا، فقد شكل متوالية مؤلمة من نمط «حلاق بغداد» و«حرامي بغداد» اللتين رصدتهما فيما سبق من صفحات، وهي مفارقات تشق طريقها، ترادفاً وموازاة، نحو مستقبل مظلم، كما لوحظ ذلك في مفارقتين سابقتين. يكمن سبب إخفاق الرؤيا في الفئات التي هيمنت على آليات الحكومة فيما بعد لأنها عدت الحكومة غنيمة ينبغي إحتكارها، وليس المشاركة بها مع جميع العراقيين، فكانت المخرجات النهائية محبطة بكل تأكيد: إمتطت أشكال جديدة من الطغيان السلطة، وإخترق الخوف واللاإستقرار المدني الإنسان بقوة، بينما تمت مقايضة الرفاه باللصوصية. كان الأمر، ولم يزل فصل «فرهود» جديد من فصول تاريخ بغداد.

الفصل العاشر

المفارقة التاسعة:
إحتلال العراق والثقافة المحلية:
إسلاميون وقوميون وليبراليون

ليس الخلل، عزيزي بروتوس، في طالعنا، وإنما في أنفسنا.

❖ *وليام شكسبير*

لم يكن إهتمام النخبة الفكرية العراقية بالثقافة الأميركية ظاهرة مارة أو مؤقتة تولدت مع غزو القوات الأميركية العراق سنة ٢٠٠٣م. لبحث وتحليل هذا الإهتمام، للمرء أن يتتبع جذوره إلى نهاية الحرب العالمية الثانية حيث راح هذا الإهتمام يتطور بسرعة مع التفاعلات الدولية والسياسية التالية إبان حقبة الحرب الباردة خاصة. في تلك المرحلة، تضاعفت مصالح الولايات المتحدة بالشرق الأوسط لأسباب عدة، من بينها: (١) الصراع العربي الإسرائيلي؛ و(٢) إلتزام أميركا بأمن إسرائيل؛ و(٣) الأنشطة المتصاعدة للأحزاب السياسية اليسارية والإسلامية في العالم العربي، ناهيك عن (٤) الحرص على تأمين بمصادر البترول. تبلور هذا الإهتمام وزاد تركيزاً بالأصل نتيجة تنافس القوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي على النفوذ في هذا الإقليم. ولا يقل أهمية عما سبق ذكره كان الدور المتنامي الذي راحت تلعبه الحركات اليسارية والقومية العربية (خاصة الناصرية والبعثية)

إعتماداً على خطاب سياسي يرتكن إلى شيطنة أميركا وتقديمها على نحو وحيد الجانب، حليفاً وحامياً «للكيان الصهيوني» فقط، لو إستخدمنا لفظ ذلك الخطاب المفضل للإشارة إلى إسرائيل.

في العراق، من بين سواه من الدول العربية، إستقطب هذان التياران السياسيان، أي اليساري والقومي (برغم تنافرهما) الرأي العام عبر حملة واضحة المعالم لتشويه وشيطنة السياسات الأميركية في الشرق الأوسط خاصة. من ناحية أولى، اشاع الشيوعيون آراءهم الايديولوجية التي قادت إلى عد «الإمبريالية الأميركية» آخر وأعلى مراحل الرأسمالية، وهو رأي أراد تعبئة العواطف المضادة للأميركان مستثمراً معاناة أغلبيات الطبقات الكادحة والفقيرة التي كانت ولاءاتها آنذاك متواشجة مع سياسات اليسار عامة. ومن الناحية الثانية، وليس أدنى أهمية، جاء تقديم القوميين العرب الولايات المتحدة كأكبر عائق على الطريق الكأداء الملتوية إلى «الوحدة العربية»، مغذين فكرة مفادها أن النضال ضد الولايات المتحدة إنما هو ذات النضال ضد إسرائيل. وفي كلتا الحالتين، الشيوعية والقومية، تم تعميم صورة لواشنطن باعتبارها العمود الفقري الذي يمسك بـ«الأنظمة الرجوعية» عبر الإقليم، من طهران البهلوية إلى تونس بورقيبة، دون إستثناء أي واحدة من الحكومات في العالم العربي، ربما فقط نظام عبد الناصر الذي إستثمر الحركة المضادة لأميركا لأهدافه الخاصة، في ستينيات القرن العشرين خاصة.

ولكن لا ينبغي لهذا المدخل «المؤدلج»، لو كان التعبير مقبولاً في هذا السياق، أن يغمط حقيقة مفادها أن أعداداً كبيرة من الشبان والشابات، عبر الشرق الأوسط، قد طورت شعوراً بالإعجاب بالحضارة الأميركية وبأسلوب الحياة الأميركية بشكل خاص. تأسس هذا التيار اللاسياسي، المتوثب لصداقة أميركا من قبل أوائل المهاجرين إلى أميركا (وأغلبهم

من المسيحيين) الذين إستقروا هناك، ناهيك عن التكريس الذي تلقاه هذا التيار من قبل طلاب البعثات العائدين من أميركا. شكل هؤلاء الشبان فئة «متأمركين» ملحوظة حرفياً لأن سلوكهم وطرائق إختيار ملابسهم، كمتأمركين، بدت متوافقة مع معطيات ضخ أفلام هوليوود، إذ بدأت أغلبية من الشبان العراقيين، على سبيل المثال، عد كل فيلم «نافذة» تطل على أسلوب حياة مختلف، خاصة مع شيوع الموسيقى والسينما والممثلين المشهورين والمنتجات الأميركية. هكذا، صار «حسون الأميركي» شخصاً شهيراً أو، ربما، سيئ السمعة، بسبب طريقته الغريبة باختيار الملابس وإرتدائها ومحاكاته العمياء لنجوم السينما الأميركية في بيئة بغدادية محافظة، بالرغم من أن مجرد ذكر إسمه كان مدعاة للتندر، نموذجاً ينبغي تجنبه وليس محاكاته.

ومع وصول البعثيين الثاني للسلطة (١٩٦٨م) (حكموا لبضعة أشهر سنة ١٩٦٣م)، واشح الحكّام الجدد شعار تحرير فلسطين «من النهر إلى البحر»، بتغذية الكراهية ضد الولايات المتحدة الأميركية، درجة أن إلتزام الآراء المضادة للأميركان صارت شرطاً مسبقاً للمواطنة الصالحة أو «الملتزمة»، وليس البطولية. وقد تكرست هذه التعبئة العاطفية المضادة للأميركان بسبب حربي يونيو (١٩٦٧م) وأكتوبر (١٩٧٣م) بين العرب والإسرائيليين، ثم من خلال إساءة إستخدام ما يسمى بـ«إيران غيت» خلال حرب الخليج الأولى (١٩٨٠-١٩٨٨م)، برغم إتهامات القيادة الإيرانية واشنطن بدعم العراق سراً ضد الثورة الإسلامية. ومع غزو العراق الكويت وموقف أميركا الصلب ضده، أدار صدام حسين ماكنته الإعلامية الضخمة ضد أميركا والأميركان على نحو متعام، الأمر الذي قاد إلى تعبئة عدد كبير من الكتّاب والصحفيين الذين إعتمدوا طريقة «إصطياد الأخطاء» لتشكيل منظومة نقد حاد، ليس لإدارة الرئيس بوش

فقط، ولكن كذلك للشعب الأميركي، ماضياً وحاضراً. وثانية، إستحالت العدائية لأميركا إلى معيار لقياس مشاعر المرء الوطنية وصدق مواطنته، فانطلق السباق الذي شارك به العديد من هؤلاء الصحفيين وكتّاب الأعمدة والمقالات في سبيل «دفع حصصهم من الوطنية»، وكذلك لتجنب غضب صدام والتخلص من شكوك أجهزته الأمنية: «إلعن الولايات المتحدة، وإستقر متيقناً من أنك في أمان!».

لذا يمكن للمرء أن يتخيل وطأة «صدمة الوعي» التي عاناها العراقيون عندما شاهدوا، للمرة الأولى، ظهور الأميركان، جنوداً وكادراً إعلامياً داعماً ببغداد يوم ٩ أبريل، ٢٠٠٣م. تولد ثمة خليط من المشاعر التي لم يجربها أحد من ذي قبل، تجربة مشوبة بخليط من الشعور بالمفاجأة والصدمة والخوف من المستقبل هيمن على الجمهور المرهق والمخذول نظراً لوجوب أن يتعامل، مباشرة، مع أناس كان يتم تصويرهم «كائنات غريبة» أو «أعداء» عبر (٣٥) سنة مظلمة من الحكم الشمولي الذي كان يصنع الأعداء ويسوقهم حسب رغباته وتذبذب مصالحه. ولكن، مع هذه الصدمة، بدا «الفاتحون» وكأنهم يعرضون شيئاً بالمقابل في الوقت ذاته، فقد أزاحوا نظاماً دكتاتورياً عده العراقيون «قدرهم المؤبد»، بحسب أغلب التوقعات السابقة للغزو التي أوحى بها النظام وكرستها ماكنته الإعلامية. قاد هذا النوع من المشاعر المختلطة من الخوف واللايقين، بطبيعة الحال، إلى إنقسامات وأنواع الجدل، الأمر الذي انعكس بعدئذ من خلال عدد من الإعلانات الفكرية التي أطلقها كتّاب وصحفيون عراقيون. ومالبث أن ظهر الترحيب الشامل بالأميركان من قبل المضادين لنظام صدام، فراح الحديث يشير إلى إستقبال «الأصدقاء الأميركان» الذين عاونوا العراق على التحرر، للخروج من هوة سحيقة.

أشار الصحفي، علاء الدين المدرس، إلى هذا الإنقسام في الرأي

العام، فلاحظ إختلاف آراء العراقيين، ناقداً المعارضة التي كانت في الخارج، والتي كان قوامها «العلمانيين والتكنوقراط والسياسيين المطرودين»[١]، مستثنياً المعارضين الوطنيين «الصادقين» الذين رفضوا التدخل الأميركي برغم معاناتهم من إضطهاد النظام وحرمانه لهم[٢].

المدرس رجل متدين. هو يعلن في كتابيه (صدى الحرب العاصفة) (٢٠٠٤م) و(حكايات طائر النار) (٢٠٠٥م)، بأنه مضاد للأميركان ولصدام في آن واحد، منحياً بلائمة الشرور التي وقعت على بلده على صدام حسين، مع إشارة خاصة لمعاناته شخصياً من الإعتقال لبضعة لبضعة أشهر، ١٩٩٥م[٣]، مشيعاً النظرية التي تفيد بأن صدام حسين لم يكن سوى دمية أميركية تمردت ضد «أسيادها» عندما غزا الكويت[٤].

يعمد المدرس إلى كيل التهم على الرئيس جورج بوش مع الإدارة الأميركية عامة، مختزلاً دوافع الغزو، كما يلي: (١) دوافع تكتيكية وإستراتيجية، خاصة، بهدف السيطرة على نفط العراق والخليج؛ (٢) دوافع إستراتيجية طويلة المدى لتأسيس قواعد عسكرية في العراق للمساعدة على توسيع العولمة وللإبقاء على اليد العليا لأميركا، ليس فقط في الشرق الأوسط حسب، بل كذلك عبر العالم برمته، مع إشارة خاصة إلى أوروبا والصين واليابان وروسيا، (٣) دوافع سياسية لتأسيس نظام صديق لواشنطن في العراق يخدم الولايات المتحدة من أجل بلوغ رؤيتها المسماة بـ«الشرق الأوسط الكبير»[٥].

ومن غرائب ما حاول المدرس أن يستدل عليه هي فرضية مفادها أن الأميركان سينجحون فيما فشل صدام بتحقيقه، لأنه يؤمن بأنهم، بمساعدة النظام الصوري القادم لحكم العراق، سيتمكنون من توسيع الساحل البحري العراقي (على الخليج العربي) على النحو الذي يتواءم مع دور العراق القيادي في مستقبل الإقليم[٦]. ومن ناحية ثانية، يعلن المدرس

بأن الرئيس بوش إستخدم «خمس كذبات» كي يشن الحرب على العراق. وعلى سبيل المزيد من تشويه الإدارة الأميركية، يشير المدرس إلى الطرائق الملتوية وغير القانونية التي وظفتها الإدارة الأميركية لخدمة أهدافها، ومنها طرائق التجسس وإستخدام الأسلحة المحرمة (تلك التي يطلق عليها المدرس إسم قنابل المايكرويف أو القنابل الذرية الصغيرة)، خاصة في معركة مطار بغداد الحاسمة، ناهيك عن ملاحظته طرائق وتقنيات الحرب النفسية[٧]. يحتضن المدرس الفرضية التي تفيد أن العراق هو العتبة الأولى باتجاه تحقيق «حلم أميركي» لبلوغ تفوق كوني مطلق، مستخدماً إصطلاحاً هو صدى لذلك الذي إستخدمته الثيوقراطية الإيرانية ومنظمة القاعدة من نوع وصف الأميركان بـ«المد الشيطاني» وبـ«البربر» و«الكفار»[٨].

تمهد هذه اللغة الطريق للمدرس كي يشن هجومه الشامل ليس فقط ضد إدارة الرئيس بوش، ولكن كذلك ضد أميركا بالكامل، بتاريخها وحضارتها وشعبها. لذا تجده يستذكر القنابل النووية التي أسقطت على مدينتي «هيروشيما» و«ناغازاكي» خلال الحرب العالمية الثانية، دليلاً على فرضيته بأن الأميركان، بـ«طبيعتهم الغريزية ذاتها»، لديهم الإستعداد على إبادة أمم بكاملها، مع إشارة خاصة للهنود الحمر[٩]. لذا يعمد المدرس إلى ربط هذه الدافعية الغريزية بما يشاع عن نهب المتحف العراقي وسواه من المؤسسات الثقافية في سبيل «إزالة» هوية العراق التاريخية[١٠]. وتجدر الإشارة إلى إدعائه أن الشعب الأميركي، و«أصله من القراصنة»، ينبغي أن يواجه بالإصرار والسلاح، مستثمراً هذه الفرصة لإمتداح «الأبطال» العرب والمسلمين الذين تطوعوا للقتال في العراق، مجاهدين في حرب مقدسة.

في سياق هذا المدخل الديماغوغي، يخلص المدرس، مشحوناً

بأفكار «السلفية» الرجوعية، إلى محاولة عقد مقارنة بعيدة المنال بين الحزب الجمهوري (وشعاره الفيل) وبين جيش (الأحباش) القديم الذي كانت تحمله الفيلة، والذي حاول هدم الكعبة بقيادة إبرهة قبل ظهور الإسلام في بلاد العرب[١١]. يتم هنا إستثمار هذه القصة القرآنية في سبيل تعبئة العواطف الدينية المضادة للأميركان، برغم أن هذه إستعارة بعيدة المنال بإفراط.

ولا تقل «إسلامية»، رغم أنها أكثر ميلاً للتفلسف، تأتي أعمال أحمد خيري العمري، وهو طبيب أسنان يعمل في بغداد مولع بالكتابة وبالشهرة، كاتباً ومشكلاً للرأي العام. كتابه الأول (ليلة سقوط بغداد)، ٢٠٠٤م قوامه بكائيات، لأنه يسجل ذكريات مرارة الأيام الأولى للغزو، مرفقة بمشاعره وإنطباعاته وتأملاته السوداوية. وبوصفه مجموعة إستذكارات شخصية عن تلك الأيام «المظلمة»، يقسم العمري كتابه هذا إلى «مشاهد» بدلاً عن الفصول، مباشراً بمشهد مرير لمجموعة من الجنود الأميركان يتناولون «الآيس كريم»[١٢] أمام ناظري المؤلف الذي راح يتخيل بأنه يتجرع ماءً مسموماً بهذا المشهد الذي كان فيه الجنود يضحكون ويمرحون منتشين بلذة النصر[١٣].

يلمح العمري إلى رأيه السالب بالأغلبية الشيعية من سكان العراق من خلال تكرار مفرط لمشهد يقدمه عمداً[١٤]، إذا يخاطب سكان مدينة النجف الأشرف المقدسة فيه القوات الأميركية المتقدمة نحو المدينة بالقول: «المدينة، نعم؛ الإمام علي، لا»[١٥]، كناية عن سذاجة هؤلاء الذين يرحبون بالغزاة شريطة أن لا يمسوا المقدسات، أي مرقد الإمام علي (رضي الله عنه). وعلى الجانب المعاكس، يتأمل العمري «المؤمنين» في أحد جوامع بغداد وهم يذرفون الدموع بألم أمام المؤذن الذي يدعوهم للصلاة خمس مرات يومياً، بينما يحثهم على حمل السلاح[١٦]. هنا يتم

وصف الماكنة العسكرية الأميركية بـ«وحش حضارة أخرى جاء لإبتلاعكم»[١٧]. ثم يحذر مواطنيه من أن هؤلاء الأميركان «سيمسكون بنا» كالعبيد وأسرى الحرب ثم يستخدموننا مواداً للمقايضة في السوق[١٨].

وبعد أن يجفف العمري دموعه بمنديل ويستريح قليلاً، يكتب خلاصة قصيرة لحث العواطف المضادة للأميركان وتعبئتها، متوقعاً بأن العراق سيكون أسوأ من فييتنام بالنسبة لهم في ميدان الحرب. إن الفخ الذي سيقعون به سيكون «الدربونة» (أي الزقاق الضيق) الشائع في مدن العراق، معتقداً بأنها ستكون بيئة أفضل من أحراش فييتنام ومستنقعاتها للكفاح الشعبي المسلح. إنها ليست فقط شبكات الأزقة الضيقة الأشبه بالمتاهة في بغداد التي ستأوي المقاتلين من أجل الحرية، ولكنها كذلك «متاهة الأزقة» المعقدة الموجودة في دواخل العقل العراقي![١٩] لا يرى العمري الفتيات الشقراوات اللائي قطعن المسافة من أميركا إلى العراق للحرب سوى مرتزقات متعطشات للذهب[٢٠]، ولكنهن غير واعيات بالفخ الذي ينتظرهن[٢١]، والذي نصبه لهن العقل العراقي المعقد القادر على تحمل البقاء بين درجات حرارة (٥٠) مئوية صيفاً والصفر مئوية أيام الشتاء.

أما نبيل عبد الرحمن حياوي فإنه يستحضر هذا النوع من الإستذكارات الوصفية لأيام الحرب وما تلاها من إحتلال في كتابه المعنون (بغداد تعاني: يوميات عائلة عراقية من الصمود حتى السقوط). إبتداءً من «التمهيد»، يقول هذا القاضي أن الأميركان سوف يهربون إلى بلادهم مهزومين بينما سيلقنهم العراقيون درساً أكثر مرارة من درس فييتنام[٢٢]. هو يعتقد أن أغراض الحرب تبدو «سامية» على السطح بالنسبة للناظر عبر العالم، بيد أن هذا خداع بصري آخر صنعته الإدارة الأميركية لأنها سبق أن إعتمدته مع كل من العراق وإيران من خلال تجهيزهما بالأسلحة خلال حرب الخليج الأولى[٢٣]. هو يعقد أن بغداد

لم تهزم في ٢٠٠٣م، ولكنها سلمت للأميركان[٢٤]؛ ثم يتتبع توازياً تاريخياً بين سقوط بغداد العباسية على أيدي المغول بقيادة هولاكو خان (بمساعدة الخيانة) سنة ١٢٥٨م، وبين سقوط المدينة الجديد[٢٥]. يعقد حياوي هذه المقارنة وكأنه يريد أن يقارن بين «بربريتين»، البربرية القديمة (المغول) والبربرية الحديثة (الأميركان)، حيث إن الأخيرة أعادت الإنسانية إلى «قانون الغاب»[٢٦]، لو إستعرنا كلماته. يدعو حياوي لفكرة مفادها أن نهب بغداد بعد نهاية الحرب لم تكن عفوية، بل أنها كانت مبيتة ومخطط لها من قبل الأميركان أنفسهم؛ و«إلّا، لماذا هم لم يحموا سوى وزارة النفط؟»، تاركين المؤسسات الحكومية الأخرى مفتوحة لنهب اللصوص[٢٧].

وبعد عرض لشريط تصويري ممل من إستذكارات أيام الحرب، يكتب حياوي خاتمة الكتاب فيكرر فرضيته التي تفيد بأن خطط إحتلال العراق قد درست قبل أكثر من قرن، لولا الحقيقة المريرة التي تفيد بأن «العرب لا يقرأون»[٢٨]، كناية عن ألمه لجهل العرب وإدانته عدم قدرتهم على رؤية ما يقبع تحت سطح الأحداث. لذا، فإنه يبرر تجاهل الرئيس بوش مطالبات العرب والعالم بتحاشي الحرب، مشيراً إلى الفجوة التي لا تجسر بين وعوده للعراقيين وبين خططه «لإستعبادهم» فيما بعد[٢٩]. يكرر المؤلف الرأي القائل بأن «بغداد لم تحارب» الغزاة[٣٠]، وهو رأي يتوافق وفكرة أن القوات الأميركية ساعدت على الدمار والنهب اللذين تبعا نجاح مهمة الغزو. يقول حياوي أن ابواب المتحف العراقي قد فتحت على مصراعيها للصوص من قبل الأميركان أنفسهم[٣١]، وهو زعم شائع بين الكثير من سكان بغداد.

بينما يتمسك حياوي بمدخله الإستذكاري بمرارة، غير قادر على تطوير جدل جاد ذي معنى، يحاول أحمد العمري، ثانية، في سياق

تحليل أكثر نقدية للحضارة والحياة الأميركية في كتابه الثاني والكبير الحجم، المعنون (الفردوس، مستعاراً والفردوس مستعاداً)، ٢٠٠٦م. تتلخص فرضيته الأساس في هذا الكتاب في أن «أميركا» هي «دين»، محيلاً القارئ إلى مؤسس هذه الفكرة، كما يدعي، الكاتب الأميركي «جورج مونبيوت»[٣٢] Monbiot، فيحاول البرهنة على هذه الفرضية من خلال إجراء مسح للتوازيات الموجودة بين التقاليد الدينية القديمة عبر العالم وبين الدين الأميركي الجديد، ذلك الدين الأكثر شهرة بعنوان «الأمركة» أو «العولمة»[٣٣]. كما هي الحال مع الأديان التقليدية القديمة التي تخللت العقول والأفئدة من خلال تحقيق المعجزات والعجائب، تمكن «الدين الأميركي» الجديد أن يسحر الناس عبر المعجزات، ولكنها معجزات من نمط جديد: ناطحات السحاب وتمثال الحرية وسواحل كاليفورنيا ونزول الإنسان على القمر ومركز التجارة العالمي و«دزني لاند» وهوليوود، من بين المنجزات «الإعجازية» الأخرى.

على الرغم من أنه يديم فكرة مفادها أن هذه الحضارة «جاءت لنا كالسرطان»[٣٤]، يذهب العمري إلى أنه كان هناك أناس مؤمنين أو مخدوعين بأميركا بين صفوف العراقيين قبل ظهور القوات الأميركية في بغداد فعلاً، متحدياً فكرة أن الشيعة فقط هم الذين «رحبوا» بالأميركان. لذا فإنه يحيل إلى هذا الصنف من «المرحبين» أنواعاً من المثقفين، ومنهم حملة شهادات عليا، وأحياناً، مفكرين سنة من الذين كانوا أصلاً من المعجبين بأميركا، درجة أن أميركا غدت بالنسبة لهم مرادفاً للنجاح و«الإستثناء»[٣٥]، إذا ما إستخدمنا كلماته نصاً. يعتقد هؤلاء المعجبون بأميركا أن حبهم لوطنهم لا يتعارض مع نجاح «المشروع الأميركي» في العراق[٣٦].

لذا يذهب العمري إلى أن هذه هي المرة الأولى في التاريخ أننا نشهد

حال نادرة، شعب يؤمن بأمة أجنبية منقذة، قالباً الإعجاب الأصلي إلى «عقيدة» مؤسسة على رؤيا مادية وحسية، وليس على منطق مقنع[٣٧]. وباعتباره طبيباً، يطبق العمري فكرته بـ«الدين الأميركي»، مرضاً معدياً سريع الإنتشار بين الناس عبر العالم بأسره[٣٨]. ومن ناحية أخرى، يلاحظ العمري أن الولايات المتحدة مكروهة بسبب سياستها الخارجية، بيد أن هذا الأمر لا ينبغي أن يغمط حقيقة مفادها أن أميركا تحظى بالإعجاب لقيمها ولأسلوب الحياة فيها[٣٩]. هذا هو، بدقة، ما تريد أميركا أن تحققه: جعل عقل المرء «صنع في أميركا»، إذا ما إستخدمنا ألفاظ العمري المفضلة.

ينتقل العمري لحركة ثانية من حركات منطق الكتاب لنقد «أتباع الدين الأميركي» من العراقيين لأنهم يبررون التدهور الواضح في كل حقل من حقول الحياة من خلال الخيال الذي يفيد بأن أميركا هي بدرجة من بعد النظر أنها خططت لهذه «الفوضى الخلاقة»[٤٠] عمداً كي تخرج بشيء جديد[٤١]. ها هنا يقبع جبروت «الحلم الأميركي»، حسب رأي المؤلف. ثم ينتقل العمري إلى فكرة عنوان الكتاب المتكون من: (١) الفردوس مستدانا، بمعنى رؤيا الوعد الحسي المادي لأميركا و(٢) الفردوس مستعاداً، مؤشراً النموذج الإسلامي الإجتماعي المثالي الذي قدمه النبي محمد (ﷺ) والخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) في القرن السابع الميلادي. هذا هو ميدان الحرب الحقيقي، حسب جدل العمري: رؤيتان متناقضتان ترتطمان، الأولى مادية ذرائعية، بينما تكون الثانية روحية إجتماعية[٤٢]. هذه هي الرجوعية الوسيطة على أوضح صورها، بالتأكيد.

في محاولة لإقناع هؤلاء الذين يؤمنون بأميركا بخطأهم، يخصص العمري ما لا يقل عن ثلثي كتابه الضخم لمسح وتجسيد «رذائل» الحياة والثقافة الأميركية، مع إشارة خاصة إلى إنهيار العائلة الأميركية وإلى

نسب الطلاق العالية والجرائم والإغتصابات وأعداد الأمهات بلا أزواج والأيتام والإنتحارات. لذا، يحيل الكاتب أصول هذه الظواهر الشريرة إلى ما يطلق عليه عنوان «عبادة الذات»[٤٣]، أي عبادة الفردية والمادية المؤسسة على مبدئهم الثابت والسائد بالإيمان بالـ«هنا» وبالـ«الآن»[٤٤]. بينما يؤمن المسلمون بـ«الآخرة»، بوصفها دافعهم ومبدأهم الديني الراسخ المؤسس على الإيمان بالعقاب والثواب، يجد الأميركيون أنفسهم مضطرين لمقابلة الرؤيا الإسلامية، ليس بالماكنة العسكرية فقط، ولكن كذلك بحرب الأفكار، تلك الحرب التي تستعر في دواخل عقول الناس[٤٥]. وعلى عكس جدل المدرس، يشجب العمري تفجيرات ١١ سبتمبر (٢٠٠١م) الإرهابية بوصفها أفعال لا بطولية ولا مجدية لأن الحرب الحقيقية، حسب رأيه، ليست بالأسلحة وإنما بالأفكار والقيم[٤٦]. وبحسب خطه في التفكير لا تختلف أبراج نيويورك عن أصنام مكة التي حطمها محمد (ﷺ) وأصحابه (رضي الله عنهم) بعد تحقيق نصرهم العقائدي والعسكري.

لأنهم يحافظون ويرنون إلى رؤيا الوحدة العربية، لا يختلف الكتّاب القوميون العرب كثيراً عن زملائهم الإسلاميين بقدر تعلق الأمر بمواقفهم المضادة للولايات المتحدة. وبرغم ميلهم للعلمانية أكثر من الدينية بالمعنى التقليدي، يوجه هؤلاء الكتّاب تهماً مشابهة للتهم التي إعتمدها الإسلاميون، أي تهم الجريمة والخداع إلى أميركا، خاصة عندما يأتي الأمر إلى إسقاط نظام صدام. لاحظ عنوان كتاب متأخر الصدور نسبياً: (الجريمة المنظمة الأميركية في العراق) تأليف حسن خليل غريب، فهو كتاب مشحون بالضغينة المضادة للأميركان من صفحة العنوان[٤٧]. يلقي غريب الضوء على التعامل غير القانوني الذي تفرضه القوات الأميركية على العراقيين قهراً، متأسفاً على سقوط صدام حسين من خلال الإدعاء بأن محاكمة صدام لم تكن قانونية.

في مقالة نشرت في مجلة (المستقبل العربي)، وهي من أذرع الفكر القومي العربي المعروفة، يعرض محمد السيد إدريس فكرة مفادها أن هناك ثلاثة مشاريع رئيسة مرسومة لمستقبل الشرق الأوسط، إنطلاقاً من العراق، «كأول محطة»: (١) المشروع الإمبريالي الأميركي، المسمى بـ«الشرق الأوسط الكبير»؛ (٢) المشروع القومي العربي الذي لم يزل في طور التكون؛ و(٣) مشروع منظمة القاعدة في بلاد الرافدين[٤٨]. يذهب إدريس بعيداً حد الإعتقاد بأن العملية الديمقراطية الجارية في العراق هي مؤامرة أميركية تهدف للبقاء في العراق إلى ما لا نهاية، رغم إستعارته خوف جون مولر Mueller من إحتمال ظهور «أعراض مرض العراق» تذكيراً بـ«أعراض مرض فييتنام» بالنسبة للعقل الأميركي[٤٩]. لذا تجده يشيع لفكرة مفادها أن واشنطن تتبع خطة إنتهازية للبقاء في العراق رغم إبتعادها عن الشيعة وترحيبها بالسنة تحت شعار «حكومة وفاق وطني»، وهو جدل يقود المؤلف إلى إفتراض وجود مؤامرة لدحر «المقاومة» المسلحة بواسطة الرشوة والخداع والخيانة[٥٠]. وهكذا يذهب الكاتب إلى ضرورة مواصلة العراقيين حركة المقاومة لإزالة الوجود الأميركي من العراق وللتخلص من هؤلاء العراقيين الذين إستفادوا منه.

والحق، فإن الأكثر تواشجاً بالأحداث وبالأفكار العملية تبرز أفكار خير الدين حسيب، وهو قومي عربي معروف يدير مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت. هو عراقي، يؤكد على أن يقدم نفسه «ممثلاً»[٥١] للمقاومة العراقية المضادة لأميركا، برغم وجوده بعيداً عنها ببيروت وليس ببغداد أو بالبصرة!

على الرغم من مخاطبة مستمعين في «جامعة جورج تاون»، يقول حسيب أن أميركا تبني إمبراطورية، إمبراطورية قدرها الموت[٥٢] في المستقبل بسبب عدة عوامل. إن فرضيته الأساس غير عادية، على نحو

ملفت للنظر: إذ يذهب إلى أنه ما دامت العملية السياسية ببغداد ساقطة لا محال، كما يعتقد، وأن الأميركان لا بد وأن يبحثوا عن طريق للجلاء، فيتوجب على حركة المقاومة أن تستثمر هذه الفرصة لمد يدها للأميركان لمساعدتهم على الإنسحاب «بلا أوجاع» و«بكرامة»[٥٣]. بل أن الأكثر إثارة في جدل حسيب هو الكشف عن أن واشنطن كانت قد باشرت صدام (بواسطة أحمد بن بيلا ونيلسون مانديلا) وهو في حبسه لتحقيق صفقة يقوم هو بموجبها باقناع جماعات المقاومة المسلحة بالإنخراط في العملية السياسية؛ وفي المقابل يرسله الأميركان إلى أية دولة أوروبية من إختياره مع عائلته. يدعي حسيب أن صدام رفض هذه الصفقة الأميركية لأنه، كما قال، لو أنه كان يريد مغادرة العراق لفعل ذلك من ذي قبل[٥٤]. والحق لا يوثق حسيب هذه الرواية، ضاخاً روايات مثيرة من ذات العيار، روايات من نوع وجود العديد من نسخ «الزرقاوي» في العراق، ومنهم «الزرقاوي الأميركي» و«زرقاوي الموساد»، منحياً باللائمة على الأميركان في جزء كبير من الأنشطة الإرهابية في العراق[٥٥]. ولتبرير تيقنه من أن أميركا ستغادر العراق، يلاحظ حسيب الأسباب الموجبة التالية: (١) الإخفاق الذي ينتظر العملية السياسية في العراق؛ (٢) تزايد ضحايا الأميركان؛ (٣) تزايد أعداد الفارين من الجيش الأميركي في العراق؛ (٤) صعوبات تجنيد مقاتلين جدد؛ (٥) زيادة الحالات العصابية التي تقود إلى إنتحارات الجنود؛ (٦) إنسحاب قوات التحالف من الدول الأخرى؛ (٧) إخفاق الولايات المتحدة في تشكيل جيش وقوات أمن عراقية وطنية؛ (٨) هبوط شعبية إدارة الرئيس جورج بوش داخل أميركا، من بين أسباب أخرى يوردها حسيب[٥٦]. من هنا تنطلق مبادرة حسيب لـ«معاونة» الأميركان على مغادرة العراق «بكرامة»، بالتعاون والتنسيق مع حركة المقاومة الوطنية[٥٧].

إنه لمن الملفت للنظر أن حسيب، سوية مع كتّاب قوميين آخرين، قد أطلق حملة مضادة للأميركان لا تحدد نفسها بنقد سياسات الإدارة والقوات الأميركية في العراق، ولكنها تمتد على حقول أخرى، غير سياسية، لتأشير الأثر السلبي للتدخل الأميركي في العراق.

بينما يلاحظ الأستاذ خير الدين حسيب تراجع الحريات الأكاديمية في الجامعات العراقية على سبيل عرض سلبيات الوجود الأميركي[٥٨]، يعد ظافر محمد العجمي الوجود الأميركي في البلد خطة لمحاصرة أعداء أميركا في الإقليم، مع عين تركز على إنتزاع هوية دول الخليج العربية بواسطة البيئة المازجة التي يتيحها مشروع «الشرق الأوسط الكبير»[٥٩]. ولا يقل أهمية عما جاء في أعلاه تأتي التعبئة العاطفية المضادة للأميركان التي يطرحها الكاتب حسن عبيد عيسى في بحثه المعنون «المرتزقة الجدد»، في محاولة لتجسير البون الشاسع بين القانون الأميركي الذي يحرم توظيف المرتزقة، وبين إعتماد القوات الأميركيية عليهم في العراق. يعتقد عيسى أن الولايات المتحدة جعلت من العراق «أفضل سوق» في العالم لهؤلاء «المتوحشين المأجورين»[٦٠] الذين يباشرون العراق «منجماً للذهب». وبغض النظر عن حقيقة أن هؤلاء المستخدمين في الشركات الأمنية الخاصة قد قتلوا العديد من العراقيين بدم بارد، يذهب عيسى إلى أن الإرتزاق يلقى التشجيع من قبل وزير الدفاع الأميركي، دونالد رامسفيلد شخصياً، لأنه يمهد الطريق لإستبدال القوات الأميركية بالمرتزقة الأجانب في المستقبل، محيلاً البنتاغون إلى مركز إدارة مرتزقة[٦١].

على الرغم من حقيقة مفادها أن محمد الدوري، سفير بغداد السابق في الأمم المتحدة حتى سقوط نظام صدام، ينتسب إلى الدائرة الضيقة للعوائل التي هيمنت على السلطة خلال تلك المرحلة (هو ينتسب أصلاً

إلى ذات القرية التي ينتسب إليها عزت الدوري، نائب صدام)، فإنه يحاول أن يبعد نفسه عن دائرة «القلة من الرجال» الذين كانوا يحكمون العراق[٦٢]. في ملاحظة سيرويه مشحونة بالنرجسية والتبختر، يقول الدوري أنه إنتمى لحزب البعث منذ سني شبابه؛ وبأنه «قبل» منصبه سفيراً مرغماً، خشية إستثارة غضب الرئيس[٦٣]. في هذا الجزء السيروي يوضح الدوري موقفه حيال الوجود الأميركي في العراق بوصفه «واحد من أقبح حالات الإحتلال... إحتلال عسكري غير عادل يعبر عن إستعمار مباشر كريه»[٦٤]. يؤكد الدوري النقطة التي تفيد بأن مواقفه السياسية تشكلت أساساً عن طريق المشكلة الفلسطينية بوصفها «قضية العرب الأولى»[٦٥].

خط تفكير الدوري الأساس مضاد للأميركان لأنه يؤكد ويكرر ما كان يقوله عندما كان سفيراً للعراق في الأمانة العامة للأمم المتحدة. لذا، فإنه يصف الرئيس بوش بالـ«كذاب» الذي تبعه مؤيدوه وأصدقاؤه، ومنهم أعضاء الكونغرس[٦٦]. وبناءً على تخصصه بالقانون يعلن الدوري أن الحرب على العراق لم تكن شرعية لأنها إعتداء، حسب معطيات القانون الدولي[٦٧]، فهي، لهذا تبرر إطلاق حرب التحرير الشعبية للتخلص من الإحتلال[٦٨].

من المهم الإشارة إلى اللوم الذي ينحي به الدوري على كوفي أنان، الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك، لأنه، حسب الدوري، كان يجب أن يتخذ موقفاً قوياً ضد الحرب التي إندلعت فيما بعد[٦٩]. يؤمن الدوري أن الولايات المتحدة لعبت دور «الفتوة» في تشكيل مواقف الأمناء العامين المتتالين للأمم المتحدة، موحياً بأن واشنطن ستفعل أي شيء، بغض النظر عن معايير القانون الدولي، لتحقيق أهدافها. هذا، برأي الدوري، هو الذي يكشف لنا لماذا وكيف نجح أنان في الحصول على ولاية ثانية

أميناً عاماً للأمم المتحدة، بينما أخفق بطرس غالي في أن يفعل ذات الشيء قبله. لذا يتهم الكاتب الإدارة الأميركية بابتزاز مثل هذه الشخصيات الدولية، ذريعة تلقي الضوء على الدور السلبي لفرق التفتيش الأممية في سبيل تمهيد الطريق للعدوان. ويذهب الدوري بعيداً في نقده واشنطن درجة الإدعاء بأنه «لا توجد حصانة دبلوماسية في نيويورك قط، فكل واحد يعرف الأمر ولكنه يبقى صامتاً»[٧٠]. «لذا، يعبر الدوري عن شعوره بالإمتنان لعائلته وعشيرته السوريين»[٧١] (ويقصد النظام السوري) الذين رحبوا به وهو في طريق عودته من نيويورك، متخذاً من الإستضافة مناسبة لإمتداح موقف دمشق المضاد للحرب في مجلس الأمن باعتباره أفضل من موقف واشنطن[٧٢].

ويقدم الدوري صورة متشائمة لأوضاع العالم بسبب الدور السلبي الذي يلعبه «المتشددون المحافظون»[٧٣] الذين يهيمنون على الولايات المتحدة، لأن الكاتب يشيع فكرة مفادها أن «معضلة» الولايات المتحدة هي، الإسلام، وليس القاعدة[٧٤]. يلقي هذا النوع من العداء الأميركي للإسلام، حسب رأي الدوري، الضوء على إحتلال الأميركان العراق، «الدولة الأكثر أهمية من كل من الكويت والسعودية لأنه يمتلك حدوداً طويلة مع إيران وتركيا»[٧٥]. وعليه يعتقد الدوري أن العراق سيخدم قاعدة لنمط جديد من «الكولونيالية الثقافية والفكرية»[٧٦]، متجاوزاً في دوره المستقبلي دور كامل دول الإقليم. أما إذا فشلت واشنطن في تحقيق هذا الهدف، فإنها ستقسم العراق والسعودية بالتوالي وبالضرورة، مغيرة الترتيبات البريطانية الفرنسية السابقة المؤسسة على اتفاقية «سايكس/ بيكو» لبلوغ رغبتها في جعل الشرق الأوسط كتلة واحدة تقودها إسرائيل، أي كتلة قوامها ثروة العرب وأسواقهم والعقل اليهودي، مدبراً لها[٧٧]. ولكن بالرغم من هذا المخطط المفترض، يؤكد الدوري

بأن إسرائيل لن تمتلك اليد العليا في الإقليم قط لأن المشروع الأميركي سيخفق في نهاية المطاف بوصفه «مشروعاً كولونيالياً جديداً»[٧٨].

أما بالنسبة للدولة العراقية، فيعتقد الدوري بأنها قد أزيلت من قبل الولايات المتحدة الأميركية، موحياً بأن الأمر كان مخططاً له حتى قبل الغزو بواسطة عقوبات الأمم المتحدة التي حطمت «واحداً من جدران وحدة شعب العراق»[٧٩]. لذا كان حل الجيش وسواه من الأجهزة الأمنية يصب في هذا الهدف. لقد تم تحقيق الهدف، حسب رأي الكاتب، كي تفشل الحكومات في المستقبل في أداء واجباتها، مرغمة الشعب على أن لا يجد ملجأ له سوى الأميركان. هذا هو ما يناقض الإدعاء الأميركي (٢٠٠٣م) بأنهم لن يغادروا العراق في وقت سابق لأوانه لأن ذلك سيقود إلى تفجر الفوضى بالنتيجة، وهي ذريعة تضطر الأميركان للبقاء عسكرياً. لكن هذه الخطة لن تدوم، كما يتوقع الدوري، لأن حركة المقاومة قد إنطلقت فعلاً، ليست كظاهرة مؤقتة، حسب رأيه.

لا يفترض أن يكون الكتّاب الليبراليون الأحرار ملتزمين بآيديولوجية معينة أو بحزب سياسي بعينه، الأمر الذي يتيح لهم فرصة «اللعب الحر بالأفكار»، لو إستعرنا تعبير ماثيو آرنولد المفضل. يصح هذا الوصف على الأستاذ حسن العلوي، بعثي سابق كان قد عمل مع صدام حسين، مستشاراً صحفياً. وقد إنقلب على الأخير فيما بعد، فالتحق بالجماعات المعارضة في خارج العراق. هذا ما منحه الحرية لمباشرة السياسة العراقية المعاصرة، معتمداً على معرفة غنية وخبرة جيدة بالتاريخ السياسي المعاصر، إذ نشر العلوي عدداً من الكتب قبلئذ من النوع الذي يبدو مدفوعاً بإرادة قوية للدفاع عن الأغلبية السكانية الشيعية المضطهدة في العراق، مرحباً بالتغير الجذري الذي جاء به الغزو الأميركي. يؤسس

العلوي كتابه (العراق الأميركي) (٢٠٠٥م) على فكرة مراجعة تاريخ البلد الطويل إعتماداً على تقسيم هذا التاريخ على مراحل:

هناك العراق السومري والعراق البابلي والعراق الأموي والعراق العباسي والعراق العثماني والعراق الملكي؛ والآن ومع مجيء الأميركان، يبدأ «العراق الأميركي». هذا العراق لن يكون زاوية مظلمة يعبث بها القرويون كما كان على سنوات النظام السابق، أي هؤلاء الآتين من القفار البعيدة. لذا فإنه لن يكون مستلباً ومستغلاً بالسياسات الغبية والحروب، أو بامتيازات «المنظمة السرية»[٨٠].

وعلى سبيل متابعة هذا الخط بالتفكير، يعزل العلوي مرحلة واحدة من أربع سنوات ونصف فقط ليطلق عليها عنوان «العراق العراقي». هذه هي المرحلة الوحيدة التي شهدت نوعاً من العدالة بين المواطنين الشيعة والسنة تحت قيادة الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم. يعتقد العلوي أن «العراق الأميركي» بدأ يوم إعدام الزعيم قاسم في ٩ شباط ١٩٦٣م[٨١]، مسدلاً الستار على «العراق العراقي». ولكنه يعتقد كذلك أن بداية السيطرة الأميركية أعلاه كانت بدرجة من الضعف آنذاك أنها لم تتمكن من الهيمنة على تلك المرحلة التاريخية بشكل مطلق لأن الحكومة كانت تحت سيطرة السنة الذين قادوا البلد إلى «عراق صدام»، حتى جاء الأميركان على نحو مباشر ملموس في ٢٠٠٣م. ولا تقل عن ذلك أهمية فكرة مفادها أنه بالرغم من أن «العراق البريطاني» كان سنياً، فإن «العراق الأميركي» سيكون شيعياً[٨٢]. وبرأيه وضع الإنتداب البريطاني بيروقراطية سنية على رأس السلطة في بداية الأمر، كبقية مترسبة من الإدارة العثمانية المغادرة. يلاحظ العلوي أن هذا الإختلال قد تواصل خلال تاريخ دولة العراق الحديثة (حوالي ٨٠ سنة)، مبعداً الشيعة عن الحكومة. لذا، فقد أشرت «الثورة الأميركية»[٨٣] في العراق هذا التغيير البنيوي في السلطة لأنه قدم

للأغلبية حقوقها للإسهام بإدارة البلد بعد أن حرمت هذه الأغلبية من هذا الإمتياز لعقود[٨٤].

ينبع سبب قبول حسن العلوي الضمني بالتغير الجذري الذي جاء به الأميركان من المقارنة المفاجئة بين «الثورة» الأميركية في العراق وبين الثورة الإسلامية في إيران. هو يعد كلا الثورتين، برغم تناقضهما الكامل، مصدرتين للثورة، وفي ذات الوقت الذي يوضع فيه الثوريين تحت حصار قوي. لذا يعتقد العلوي أن على النخبة السياسية العراقية القادمة أن تتبع نموذج الجنرال ديغول في فرنسا عبر التعبير عن شعورها بالإمتنان لواشنطن، كقوة محررة، تمكنت من إنجاز ما لا يمكن للعراقيين إنجازه بمفردهم، اي إسقاط نظام صدام[٨٥]. بالنسبة للعلوي، جمع هذا التغير التاريخي بين خصوم الأمس في الشرق الأوسط (إيران والسعودية وسوريا وتركيا) في صف واحد لصد الإشعاع القادم من بغداد[٨٦]. ويذهب العلوي إلى أن السعودية، برغم صداقتها لواشنطن، هي «عدو الغرب العقائدي»[٨٧] للأسباب التالية: (١) نظامها التربوي الذي يشجع الفكر الإسلامي الوهابي المتشدد؛ (٢) رفضها الإسهام بإسقاط صدام حسين؛ (٣) سياساتها المضادة لإسرائيل[٨٨]. من هنا جاءت توقعاته بدور أميركي «ثوري» أوسع في دول الشرق الأوسط.

يخلص العلوي إلى أن العراق بحاجة لما يسميه بـ«دولة ضامنة»[٨٩]، أي دولة عظمى تعاون العراق ليسترد عافيته لأنه قد ترك محطماً من قبل النظام السابق. وهكذا يقدم العلوي الولايات المتحدة «كياناً ضامنا»، يعطي ويأخذ[٩٠]. ولأن الولايات المتحدة قد نجحت في حذف (٩٠٪) من ديون العراق، فهي قادرة على لعب دور «العراب»[٩١]. بالنسبة للعراق الجديد، مقابل نسبة عادلة من موارد البلد. وحسب رأي العلوي، هذه النسبة لا يمكن أن تقارن قط بالأموال المنهوبة من قبل

رجال النظام السابق الهاربين الذين ينافسون أمراء النفط الخليجيين في أرقام ما يملكون من ثروات[٩٢].

لن تخفق أية قراءة للمواد المنشورة في عراق ما بعد حرب ٢٠٠٣م، وبغض النظر عن سرعتها ومباشرتها في الإستجابة الفكرية والثقافية لأميركا خاصة، في تأشير مظاهر معينة تستحق الرصد في أي بحث جاد بهذا الموضوع الحساس المستجد الذي لم يناقش بما فيه الكفاية حتى اللحظة. لن يفشل حتى الإستعراض السريع لهذا النوع من الأدبيات في تأشير حقيقة أن أعلى الكتابات، عدداً، كانت من نتاج الكتّاب القوميين العرب، يأتي بعدهم الكتّاب الإسلاميون، ثم الليبراليون الذين عادة ما يحتاجون لوقت أطول لتقديم إعلانات وخلاصات نهائية. في هذا الفصل، على سبيل المثال، ناقشنا سبعة من الكتّاب القوميين العرب وثلاثة من الإسلاميين وكاتب ليبرالي واحد. على الرغم من أن هذه الأرقام إعتباطية نسبياً من وجهة نظر إحصائية، لكنها تبقى ذات دلالة في تأشير تواصل أطر تفكير العقل الرجوعي، خاصة بين المجموعتين الأولى والثانية.

الفصل الحادي عشر

الخاتمة

إنتصار الماضي:

تفاعلات البترودولار والإسلام الجديد

إلى الأمام، إلى الخلف، خلفاً أماماً في خضم ذلك البحر اللامحدود، نتأرجح بين مد وجزر أعظم مما يمكن أن تفقه وأفقه.

❖ اللورد الفريد تينيسون

ربما لم تكن مفارقات عالم الشرق الأوسط أكثر كشفاً لمكنونها الرجوعي المأساوي من التاريخ القصير لمدينة «الثورة»، وهي من مدن ضواحي بغداد المتعددة. تضخمت هذه المنطقة السكنية بسرعة درجة صيرورتها مدينة مستقلة بذاتها، علماً بأن تاريخها يشكل مفرقاً من تاريخ العراق بأسره بسبب تأثيرها على بغداد. بدأ هذا التجمع السكني، جيباً نائياً، إتخذه الفلاحون الهاربون من أراضي وظلم الإقطاعيين مستقراً عشوائياً لهم. جسد هذا «التورم» نصف الحضري ونصف الريفي العشوائي القصة المأساوية لآلاف الفلاحين وعوائلهم الذين إستقروا أولاً في البرية المفتوحة خارج بغداد أواسط القرن العشرين. وكما فعل أجدادهم السومريون والأكديون، راح هؤلاء الفلاحون المتمردون يبنون فضاءات سكن متواضعة من الطين المجفف أو المشوي لحماية أنفسهم من التقلبات الحادة في درجات الحرارة بين الساخنة والباردة، التي إشتهر

بها مناخ العراق. إستقرت النسوة في هذه «المساكن» الأمينة إفتراضياً للطهي والعناية بالأطفال ولتربية بعض الحيوانات المدجنة التي يحتفظون بها لغذائهم وللتسويق؛ أما الرجال، شيوخاً وشباناً، فقد كانوا يتجشمون عناء «الإرتحال» إلى مركز بغداد، ذي الكثافة السكانية العالية، للكدح، حمالين أو عمالاً أو عمال حدائق أو موزعين للحليب ومشتقاته أو باعة شاي، من بين سواها من الأشغال التي لا تتطلب سوى قوة العمل.

عندما سقط النظام الملكي الهاشمي (١٤ تموز ١٩٥٨) في العراق بثورة كانت قدحتها الأولى إنقلاباً عسكرياً سيطر على مقاليد الأمور بعد أن قام ضابط عصابي (برتبة رائد) برمي العائلة المالكة، المتوجهة إليه حاملة القرآن للإستسلام ببندقية أوتوماتيكية صباح ذلك اليوم الدموي، دشن تاريخ العراق الحديث فصلاً جديداً، متتبعاً خطى الضباط الأحرار في مصر. وقد أعلن القائد العسكري الجديد، الزعيم عبد الكريم قاسم، أن الثورة قد خططت ونفذت من قبل خلية من «الضباط الأحرار» لتحرير العراق من الهيمنة البريطانية التي كانت قد بدأت قبل نصف قرن من التاريخ أعلاه، تلك الهيمنة التي تعاونت ونسقت مع العائلة الهاشمية التي أبيدت الآن. وهكذا، فقد حلفاء العائلة المالكة البرجوازيون، خاصة ملاكي الأراضي الكبيرة والتجار الحضريين إمتيازاتهم. كان من المفترض أن ينهي هذا التغير ملكيات الأراضي الزراعية الكبيرة (التي سميت بالإقطاع، خطأً) لأن الأراضي التي صودرت من الملاكين قسمت ثم وزعت على الفلاحين الفقراء. وإذا كان هذا الإجراء هو الذي أطلق عليه قانون «الإصلاح الزراعي»، أي القانون الذي تمت بموجبه مصادرة وتجزئة الأراضي الخصبة لتوزيعها على الفلاحين، فإن هذا التغيير كان وراء خلق قيم إجتماعية جديدة عدت الفلاحين الفارين من كدحهم تحت

نير الإقطاع قبل «الثورة»، نوعاً من الكادحين المكافحين الذين يستحقون التقدير لرفضهم «الثوري» الإنصياع لسلطة الإقطاع.

من هنا جاء إسم «الثورة» الذي أطلق على تلك المنطقة السكنية العشوائية التي راحت تمتد خارج بغداد حيث لجأ الفلاحون وعوائلهم وإستقروا في بداية الأمر. هكذا إعترف «النظام الثوري» الجديد بهذا التجمع السكاني ومنحه الشرعية. والحق، فقد قدر لمستعمرة الطين التي بناها الفارون من ظلم الإقطاع أن تلعب دوراً تشكيلياً في المجتمع والإقتصاد ومن ثم في أحوال العراق عامة، ليس فقط لأنها منجم معطاء لقوة العمل الرخيصة، ولكن كذلك لأنها كتلة سكانية كبيرة يمكن أن تمتطي سياسة بغداد بعد أن بقيت تتوسع، جغرافياً وسكانياً لعقود.

لو واصل المرء إستعراض تاريخ هذه المدينة العشوائية، فإنه لا بد أن يلاحظ تقلبات أسماء هذه المدينة، وهي الأسماء التي عكست متغيرات تاريخ العراق السياسي المعاصر، اي التاريخ الذي إختزل الطبيعة المتقلبة لما سمي بـ«النهضة» في الشرق الأوسط. أطلق إسم مدينة «الثورة» على مستعمرة الطين هذه في البداية، بوصفها من نتاجات التمرد ضد الملاكين الذين ضعف تأثيرهم ثم إنتهى جزئياً بفعل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م المشار إليها أعلاه. بعد عقود، ومع «إكتشاف» الرئيس السابق صدام حسين، أهمية هذه المدينة، منجماً وموّلداً لأنشطة تمرد وإحتجاج شيعية هائلة بعد حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران، فإنه أمر بحملة إعمار شاملة لتهدئة سكانها ولمغازلة عواطفهم الدينية، مانحاً المدينة إسماً جديداً، هو إسمه الشخصي. وهكذا ظهرت المدينة من جديد بعنوان «مدينة صدام» بدعوى أنه الإسم الذي إنتقاه سكانها لمدينتهم (حوالي مليوني نسمة آنذاك). وبعد مرور عدد من السنوات، ومع الغزو الأميركي للعراق (٢٠٠٣م)، أطلق سكان هذه المدينة العنان لمعاناتهم

وشكواهم وعواطفهم الدينية ضد ضغط نظام صدام على الشيعة وحركاتهم السياسية من خلال إختيار إسم جديد للمدينة، إسم يتناغم مع طباع سكانها المتقلبي الأهواء والولاءات. وهكذا قدمت هذه المدينة الفقيرة نفسها من جديد باسم «مدينة الصدر»، تيمناً برجل دين شيعي كان قد اغتيل مع إثنين من أبنائه من قبل البوليس السري على عهد صدام حسين في مدينة النجف الأشرف.

كيف يمكن لتاريخ هذه المدينة القصير أن يشكل توازياً طريفاً للتطور الملتوي لما يسمى بـ«النهضة العربية الإسلامية» التي كانت قد بدأت قبل عدة عقود بوصفها «يقظة» مفاجئة مستوحاة من أفكار وكتابات عدد من المفكرين. يتواصل التوازي حيث تدهورت آمال النهضة لتستقر على الإقتناع بالإستقلال السياسي الذي دفع، في نهاية المطاف، شعوب الإقليم نحو متاهة الحركات «الأصولية» الرجوعية، وهي الحركات التي أوصدت جميع أبواب تفحص الحاضر وإستشراف المستقبل وفق منظور تقدمي. لذا اشرت الأصولية المتنامية الإرتجاع المتفاخر والواثق بالنفس نحو العصر الوسيط بدعوى أنه كان عصراً أفضل مقارنة بالحاضر. لم تكن هذه الأصولية تختلف عن السلفية كثيراً (أي الحركة الإسلامية الجديدة التي تقدس ما يسمى بالسلف الصالح) لأنهما مثلتا تشكيلين آخرين لحلم الأسلاف الذي إستحوذ على الإسلاميين الجدد منذ أن بدأوا بتسييس الإسلام (بدعوى التجديد) على نحو أحزاب وجماعات، بل وحتى عصابات. أشرت الصفتان، السلفية والأصولية، نمطاً من الحركات الإسلامية الجذرية الجديدة التي مهدت الطريق لظهور المنظمات الإرهابية ولتبرير عدائيتها وكراهيتها للحضارة الغربية وللشعوب التي لا توافق أفكارها. وللمرء أن يراجع كتابي الصادر في بيروت، ٢٠١٤م (تخنيث الغرب: مفاهيم الإسلام الجديد في التجديد والجهاد والدولة)

للإطلاع على المزيد عن أصول وطبيعة الحركات الإسلامية الراديكالية الجديدة[١] Neo-Islam.

إن «الأصولية» و«السلفية» هما، أصلاً، موقفان فقهيان فكريان تشبثا بفكرة التجديد، ثم تحولا إلى مواقف سياسية قادت إلى السقوط في هوة الإرهاب في نهاية المطاف. لذا يمكن إستعمال المصطلحين على نحو متبادل دون إرتباك لأنهما مترادفان في العقل والعالم الإسلاميين. هما يشكلان محرك النزعة الرجوعية في الشرق الأوسط، تلك النزعة التي ترنو لعزل هذا الإقليم عن مسيرة شعوب العالم الأخرى عبر دفع شعوب الإقليم للسير باتجاه معاكس. كما أنهما يؤشران إنتصار الرجوعي على التقدمي، والإندفاعي على الهادئ والعقلاني.

من منظور معين، إختزنت «النهضة» العربية الإسلامية المذكورة أعلاه أسباب إخفاقها في دواخلها عبر مجموعة الأفكار التي ناقشها وإقترحها أساطينها آنذاك لأنهم لم يكونوا متأكدين فيما لو كان عليهم إختيار الدين، الإسلام في هذه الحال، كقوة إحياء جوهرية للمستقبل؛ أو إختيار «الروح القومي» volksgeist بديلاً، متبعين خطى الدول القومية الأوروبية. من هنا جاء التناقض متواصلاً عبر التوظيف المترادف بالمعنى للفظي «إسلام» و«عرب»، لأنهما قد استخدما خطأً، وكأنهما متطابقان في المعنى عبر أغلب أدبيات النهضة وذيولها عبر الشرق الأوسط. لقد أنجب غياب الوضوح هذا وليداً مركباً، يتجسد في الصفة المربكة المركبة «العربي/ الإسلامي». والحق، فقد أماط كامل جدل النهضة اللثام عن خلل جاثم في الأساس الآيديولوجي للسلطة التي كان على شعوب الإقليم إعتمادها وتطبيقها من أجل تطوير رؤيا مستقبلية واعدة: هل عليها أن تتوثب إلى «الخلافة» العربية الإسلامية المبكرة التي كانت قد سقطت سنة ١٢٥٨م؛ أم أن عليها إعادة إنتاج النموذج الإشتراكي للكتلة الشيوعية

الذي إنتهى بفشل الإتحاد السوفييتي وتفكك بقية الأنظمة الإشتراكية عام ١٩٩٠م، ناهيك عن إختلالات «الحلم» الشوفيني القومي المتواصل الذي تم إستلهامه، محاكاة، من تجربتي الوحدتين الألمانية والإيطالية.

وعلى نحو متناغم مع أفكار عصر النهضة المرتبكة والمربكة المبكر، دلت آيديولوجيات ما بعد مرحلة الإستقلال السياسي في الشرق الأوسط على أنها لا تقل هجينية وعدم تيقن مما شاب أساس النهضة الآيديولوجي. لذا تعكس أية مراجعة لهذه الآيديولوجيات فيما يسمى بـ«مشروع النهضة»، برغم تناقضه مع ذاته، ذات الأفكار المتنافرة والمختلطة مع بعضها البعض، أي الأفكار التي تم تبريرها حسب المدخل «الإنتقائي» الذي سيق تحت شعار «لنأخذ ما يناسبنا، ونهمل ما لا يناسبنا». وهكذا ترك التناقض وغياب الإتساق آثارهما على البرامج السياسية في دول الشرق الأوسط الفتية.

بينما إرتدت جمهورية مصطفى كمال أتاتورك بعصابية ضد تراثها الإسلامي العثماني ورمت بنفسها على طريق محاكاة الدول الأوروبية بحماس متعام منقطع النظير، متجاوزة الرابطة الدينية التي سبق أن أخفقت في الإمساك بالدولة العثمانية متماسكة، فضل الإيرانيون النموذج البهلوي الإيراني الذي يتماشى مع تركيا في برنامجه التغريبي. وفي كلتا الحالتين الإيرانية والتركية، تفوق التيار الرجوعي في نهاية المطاف، حيث ترتجع تركيا العلمانية اليوم إلى تراثها الديني على أكتاف الأحزاب الإسلامية الصاعدة، بينما تدير «ثيوقراطية» صلبة جمهورية إيران الإسلامية، قاطعة جميع قنوات التواصل والتعاطي مع العالم الغربي الذي يشك بنواياها، خاصة بعد صعود الأحزاب الإسلامية الشيعية إلى السلطة في عراق ما بعد حرب ٢٠٠٣م، إذ منح ذلك الجمهورية الإسلامية فرصة للعب دور رئيس في السياسات الإقليمية. في حال تركيا، ساد التيار

العلماني لعدة عقود، ولكنه ما لبث وان أخذ بالتراجع تدريجياً، بسبب التقدم السريع الذي تحرزه الحركات الإسلامية من ناحية، وبسبب رفض أوروبا المتكرر طلبات أنقرة للإلتحاق بالإتحاد الأوروبي.

خذلت أوروبا علمانية تركيا الواعدة، بلا ريب: فعلى الرغم من ضم أوروبا أغلب دول أوروبا الشرقية المسيحية (الشيوعية سابقاً)، بقيت تركيا غير مقبولة لأوروبا، إذ تكرر رفض طلباتها للإلتحاق بأوروبا على نحو متعنت يلفت النظر. من منظور معين، يسرت أوروبا العلمانية صعود الإسلاميين إلى سدة الحكم في تركيا بتعنتها هذا ولكن على نحو غير مباشر، لأنها أوصدت أبواب الغرب أمام تركيا. لذا شهدت تركيا رد فعل إنكماشي آخر، خاصة بعدما وضع الإتحاد الأوروبي شروطاً لا يمكن لتركيا القبول بها، شروط تعجيزية مسبقة للسماح لأنقره بدخول الإتحاد الأوروبي. لقد صمم الأوروبيون هذا النوع من الشروط والضوابط التراكمية خصيصاً للحكومات التركية المتعاقبة على نحو يجعلها شروطاً تعجيزية كابحة، خاصة بقدر تعلق الأمر بالدين السائد بين سكان تركيا (الإسلام). من بين هذه الشروط رفض أوروبي مطلق لحجاب المرأة، إضافة إلى قائمة طويلة من طلبات «حقوق الإنسان» التي يمكن أن تهدد وجود تركيا ووحدتها، خاصة بقدر تعلق الأمر بالأقليات. حتى الكباب التركي اللذيذ المصنوع من لحم الضأن الذي إعتدنا نتناوله في مطاعم إسطنبول ينبغي التخلي عنه بوصفه نوعاً من أنواع قساوة الإنسان على الحيوان في نظر الأوروبيين! شكراً للممثلة الفرنسية العجوز «بريجيت باردو» التي أطلقت حملة مضادة لذبح الخراف في تركيا والعالم الإسلامي حتى في عيد الأضحى. لذا، ظهرت النتيجة النهائية غير عصية على الملاحظة، رد فعل عنيف تجسد بضعفت التيارات العلمانية، مطلقة العنان للأحزاب الإسلامية للسيطرة على

البرلمان والحكومة، الأمر الذي إستبق تعقيدات طائفية إقليمية لا تخدم الحكومات التركية العلمانية التي قامت قبلئذ.

أما الجزء العربي من الشرق الأوسط، فقد عانى الإنقسام المؤلم الذي أورثته إياه حركة النهضة أعلاه على نحو محبط، ذلك أن تيارات التقدم ابعدت التيارات الرجوعية على نحو مؤقت (فقط لبضعة عقود) كي تستحيل هي نفسها إلى تجسيد للتخلف الرجوعي بسرعة خاطفة. لقد باشر الجمهوريون، الذين كانوا يدعون التقدمية، والذين حلوا محل الأنظمة الملكية لتأسيس ما يفترض أن تكون أنظمة تقدمية، نقول باشروا بتخريب الأطر الوسيطة للنظام الإجتماعي والسياسي كي يقعوا في أفخاخ القبلية والطائفية أنفسهم بمرحلة تالية، ممهدين الطريق لقيم رجوعية معادة التشكيل ما لبثت أن عادت إلى الظهور ومن ثم إلى السيادة في القاهرة وبغداد ودمشق والجزائر وطرابلس والخرطوم وصنعاء. في العالم العربي، تم إجهاض «الثورة» بواسطة الضباط من دعاة الثورية المزيفة الذين قفزوا إلى سدة الحكم حوالي منتصف القرن العشرين كي يشوهوا التقدم ويعيدوا إنتاج الرجوعية تحت شعارات الدفاع عن «أعمدة الإستقرار القديمة»؛ اي القبلية والطائفية والتمييز ضد القطاعات المستضعفة في المجتمعات العربية، ناهيك عن إعتماد شعارات «تحرير فلسطين» المغرية.

إذا ما راجع المرء الأحداث الساخنة التي حدثت بين ٢٠١١ و٢٠١٣م، تلك الأحداث المسماة بـ«الربيع العربي»، تعسفاً، فإنه سيحتاج أن يلاحظ تفاعلات تيارات التقدم والتراجع التي تصاعدت حد الهيمنة الكبرى على شرق أوسط عالق بحلم وسيط. كانت النتيجة النهائية هزيمة واضحة للجمهوريين «التقدميين» إسمياً، والعلمانيين نسبياً، أمام الأنظمة المعروفة بالرجوعية التي أدارت عجلة التغير بحماس و«كرم» بالغين، مستخدمة البترودولار المستحصل من الدول الغربية مقابل

النفط الخام في سبيل تمويل وتسليح الغوغاء المتعامي المضاد للغرب، ذلك الغوغاء الذي إغتال السفير الأميركي بليبيا في ٢٠١٢م. ربما كانت هذه فرصة إستغلال واضحة المعالم لأن سلبيات الأنظمة الجمهورية قد بانت وتضخمت بسرعة ساعدت عدد من الدول الغنية بالبترول على تغذيتها ومن ثم فضحها وإتهامها بالإخفاق بشكل يحرض على التمرد ويشجع على التذمر المدني المضاد لهذه الأنظمة الجمهورية في سبيل تخليص الأنظمة «المحافظة» من الإضطراب الداخلي عن طريق تصدير فائض طاقات الأنشطة التمردية الداخلي نحو فضاءات كانت قد عانت مما يكفي من الأزمات الإقتصادية والإجتماعية كي تبتلع الأنظمة الجمهورية «عناقيد الغضب» المقدمة من قبل الجماهير الغاضبة والفقيرة الخائبة المتكتلة في الساحات العامة وفي أروقة الجامعات. من الناحية الجوهرية، كان هذا هو نموذج إضافي للدورية المتقلبة للنضال بين القوى المقيمة للأصنام وتلك المهدمة للأصنام التي هيمنت على التاريخ العربي الإسلامي منذ القرن السابع الميلادي (مع ظهور الإسلام) حتى القرن الجاري[٢]. حاول الرئيس المصري السابق، جمال عبد الناصر (١٩٥٢-١٩٧٠م) ومحاكوه في هذا النوع من الجمهوريات أن يضعوا دولهم على درب المستقبل الواعد؛ لولا الأعباء الإجتماعية والإقتصادية الثقيلة التي برهنت على أنها أصعب مما كانوا يتوقعون درجة أنها بدت غير قابلة للتذليل. لم يكن الجمهوريون في العالم العربي، في حقيقة الأمر، سوى حالمين لأنهم إستجابوا للتخلف والتدهور إيجابياً في نهاية المطاف. كانت الرجوعية بدرجة من عمق التجذر في الشرق الأوسط، أنه يصعب إستئصالها على نحو فوري، خاصة بعدما حظيت بالتشجيع الفاعل من لدن أنظمة حكم يعتمد وجودها ذاته على إبقاء وإدامة تلك الرجوعية. إنه لمن الطريف بحق أن يلاحظ المرء أن البداوة هي مدعاة للإفتخار والتبختر عبر

العالم العربي. بالنسبة للذهنية العربية، البداوة تعكس أصالة المرء، والأصالة هي أن يكون المرء غير قابل للتغير بواسطة قوى الجديد والتعرية الثقافية التي تحركها المدنية والحداثة. في الشرق الأوسط فقط، يربى المرء منذ نعومة أظفاره بوصفه إمتداداً لبادية قفراء مهولة ليست ذات زرع لأنها جزء من بوادي الكثبان الرملية المتحركة التي تمد المدينة بقيم ماض زائل، لا معنى له اليوم. قد يكون الإنسان البدوي صلباً وقوي الشكيمة، إلّا أن صلابته يمكن أن تعكس نوعاً من التحجر غير القابل للطراوة.

بينما إنتشرت موجة حمى الثورية عبر أواسط القرن العشرين على أيدي الضباط الإنقلابيين، ثم ضعفت بعدئذ بالإخفاقات والأزمات والهزائم التالية، حدث ما لم يكن في الحسبان لأن بعض حاصدو وكانزو البترودولار القبليين، الذين كان ينظر إليهم بطريقة دونية، أنجزوا تغيراً مفهومياً للتقدم ليحلوا هم محل الضباط «الثوريين» السابقين بوصفهم تجسيداً لنوع جديد من التقدمية والثورية. في إقليم مفارقات كالشرق الأوسط، حيث يبتاع المال كل شيء حرفياً، من الخبرة إلى «المونديلات» و«الأولومبيادات»، بل هو يبتاع حتى الثورية إعتماداً على آليات قانون العرض والطلب، كسواها من السلع والبضائع. وهكذا تغيرت معطيات تلك الثورات من التغيير الإجتماعي والإقتصادي الجذري إلى التغير السطحي «البصري» مجرداً، لذا يستحيل التغير تحولاً مسطحاً يلف المظاهر الخارجية للأشياء. وكما كان ممكناً إستزراع ناطحات السحاب في قفار الصحراء العربية، لم يكن بأقل إمكانية أن يتم وضع قناع الثورية الذي أستخدم أصلاً من قبل ضباط الجيش لتسويق نزقهم ودكتاتورياتهم على شعوبهم.

هذا المنطق يسير على الفهم، بحق: إذا ماعنت الثورة دورة تغير

كاملة في حياة المجتمع، فلم لا يمكن للمال أن يثّور المجتمع بتجهيزه بالجديد وبالشجاع المتوفر في أسواق اليابان والدول الصناعية المتقدمة الأخرى. لقد دل هذا المنطق على قوة إقناع عالية بالنسبة للفئات الإجتماعية الفقيرة وللعمال والمستخدمين الوافدين من الخارج إلى دول الخليج العربي الغنية بالبترول لأن معايير الشرق الأوسط لقياس التقدم والثورة بقيت دائماً مسألة «حجم» وتأثير بصري، ليست مسألة بنى وعلاقات إجتماعية وسياسية. من هنا نبع الإهتمام بعكس الجوانب الخلابة والمدهشة لعمارة الفولاذ والزجاج المستوردة والجاهزة، وكأن التقدم فقط يقاس بالبنايات الشاهقة أو بالسيارات الحديثة وساعات اليد السويسرية. هنا تتم إساءة تمثيل الثوري عبر أوهام البنى السطحية كي ينتهي إلى اللاجدوى. لسوء الطالع، تلف العمارات الشاهقة المستزرعة في الصحارى مجتمعات عالقة بحلم وسيط غارق بالقيم القبلية المتخلفة. وإذ يبرهن الإندفاع إلى «الأنموذج» الوسيط على أنه أكثر وقعاً وقوة في أعين الأغلبية الفقيرة المستلبة من سكان الإقليم، يغدو العبث مع النظرة إلى الأنموذج وليّه يسيراً على سبيل الخروج بحال قوامها الفوضى التي يؤديها الشبان الجياع السهلي الإقناع والإنصياع الذين إعتادوا الرجوعية والخنوع أصلاً بسبب أصوليتهم العميقة الجذور المرتكنة إلى تنشئة رجوعية بواسطة الأنظمة التربوية وأدبيات الأحزاب التي لا تقل رجوعية لتقودهم، فرادى وجماعات، نحو السقوط في غياهب الطائفية والتطرف. لذا ظهرت التمايزات والضغائن الشيعية السنية التي ما فتئت تخرب كامل الإقليم وتحطم حاضره ومستقبله.

لو راجعنا الأحداث الجارية الآن والآيديولوجيات المتنافرة التي تبتلع كامل أقوام الشرق الأوسط اليوم، فإننا لا بد أن نصدم باكتشاف مفاده أن المحرك الأساس الذي يدور آليات السياسة الإقليمية البينية إنما

هو صراع طائفي، شيعي/ سني، مستوحى من معطيات العصر الوسيط، الذي يمتطي فوضى التغير الإقليمي المستطيل وغير المتوقف منذ إشتعال الحرب العراقية الإيرانية، ١٩٨٠م. لا حاجة للكثير من التقشير من أجل ملاحظة ومباشرة هذا المحرك الأساس: منذ سقوط نظام القذافي، الى الحرب الأهلية المستمرة حتى اليوم بسوريا، وعبر الحراك المدني في دول الخليج العربي وصدامات الميليشيات المخيف في لبنان، وأخيراً إلى أعمال العنف وعدم الإستقرار في عراق اليوم من بين سواه من البقاع، جميعها أحداث مبعثها المحرك الطائفي الكامن في الماضي. في حال القائد الليبي السابق، العقيد معمر القذافي، على المرء أن يستذكر كيف حفر هو قبره بنفسه عندما أثار حفيظة حكومات دول الخليج السنية المحافظة بدعوته لإحياء «الخلافة الفاطمية» الشيعية في سياق مؤتمرات القمة العربية التي حضرها أو ترأسها. أما في حال سوريا الأسد ذات الغالبية السنية وسلطة الأقلية العلوية لما لا يقل عن أربعة عقود حتى الآن، كان الأمر وكأن الأغلبية السنية قد إنتابتها يقظة مفاجئة عندما إكتشفت بأنها محكومة من قبل أقلية شيعية. وتنطبق هذه الحال على العراق الحديث (تأسس سنة ١٩٢٠-١٩٢١م) حيث إن الأغلبية الشيعية قد رضخت لسلطة أقلية سنية لأكثر من ثمانية عقود. ولكن في نهاية المطاف، يبرز الشرق الأوسط من ركام خراب الرجوعية والتخلف بوصفه المسرح العالمي الوحيد لأداء دراما طائفية القرون الوسطى في عصر العولمة.

عبر كتابة هذا البحث، نوقشت تسعة تشكلات رئيسة من المفارقات المفترضة لرجوعية الشرق الأوسط. في النقاط أدناه سيتم وضع هذه المفارقات في سلة واحدة مرفقة مع مفارقات فرعية أخرى لإتاحة بانوراما للحلم الإشكالي والمعيق الذي يقبع في محور هذا البحث.

غرض النقاط التالية هو تجسيد المشهد العام لرجوعية مجتمعات ودول الشرق الأوسط، حيث يسود:

- رفض النماذج العلمانية للوطنية وللعمل السياسي وللإشتراكية من أجل رؤيا دينية، تجتر تناقضاتها من طائفية ذاتية التدمير.
- صعود الجماعات الإسلامية الرجوعية عبر إقليم شاسع يمتطيه الجهل والأمية، ويحتوي على عشرات الأقليات الإثنية والدينية المضطهدة ذات التطلعات المختلفة والمناقضة.
- عدم تطوير تجربة تنمية تراكمية بسبب غياب الإستقرار السياسي وشلل الديمقراطية منظورها للسياسة، نشاطاً مدنياً.
- تواصل آمال كل من الحاكم والمحكوم التي ترنو إلى تقديس سلطة الأول وإلى الإنصياع السلبي لها من قبل الثاني، إستمراراً لتقليد خلافة إسلامية قديم أرسى أسس الإنصياع الأعمى لإرادة الحاكم ما دام يدعي الإسلام، بغض النظر عما إذا كان إدعاؤه هذا إسمياً أو حقيقياً.
- توتر العلاقة بين سلطة الحكومة وسلطة الثقافة، الأمر الذي طالما قاد السلطة الأولى إلى توظيف أدوات الإستفزاز والتعسف ضد هذه النخب، وإلى بحث الأخيرة عن ملاجئ حرة وملاذات أمينة في أراضي أجنبية.
- غياب أو محو أغلب أشكال الممارسات الديمقراطية الحقة تأسيساً على إساءة الحكومة رؤية السلطة التي تمارسها كنوع من «غنائم الحرب» التي تستثمر وتحتكر بطريقة ليستمع بها القائمون على الحكومة الشمولية بشكل مطلق، الأمر الذي قاد إلى لجم الراي العام وتهميش أنشطة المجتمع المدني وجماعات حقوق الإنسان من خلال الإستخدام الإعتباطي والقسري لقوانين الطوارئ والأحكام العرفية،

ناهيك عن بروز فئات إجتماعية تعاني من غياب العدالة والتمييز، نتيجة لذلك.

- إعمام وتسييد المفهوم الخاطئ الذي يفيد بأن «المواطنة الحقة» تعني الرضوخ المتعامي والسكوني لسلطة الحكومة؛ بينما تعني «المواطنة السيئة» معارضة تلك السلطة، الأمر الذي يبرر إعتماد المفهوم الأخير تبريراً لتوظيف العنف ولفرض إرادة الحكومة بالقوة.
- خفض القيمة الحقة للبرامج التربوية والأكاديمية كي تحرف رسالتها عن هدفها السامي في الإستنارة على طريق إجهاض وظائفها الإجتماعية والثقافية والإقتصادية البناءة، الأمر الذي يقود إلى مقايضة الأمية بـ«الأمية المقنعة» السائدة عبر الفضاء المسيّس للمؤسسات التربوية والأكاديمية في الإقليم.
- ردود الأفعال الإنكماشية المتحسسة، المضادة لكل ما هو أجنبي أو وافد من العالم الغربي، بوصفه تهديداً للأساس القديم للإستقرار، بمعنى الأساس المرادف لسلطة الدولة.
- تواصل القيم الإجتماعية الرجوعية الممررة دائماً بدعوى حفظ الشخصية القومية أو الهوية الدينية أو التقاليد الإجتماعية المعتمدة إخضاع النساء وتمجيد القيم البدوية التي لا يمكن أن تبقى وتتواصل دون الحفاظ على الإنعزال الإجتماعي ومقاومة التغير.
- سيادة وتشجيع مواقف تقلل من شأن وتقدير مبادئ كونية، معتمدة عالمياً، من نوع الحرية والمساواة وحقوق الإنسان والديمقراطية بوصفها مبادئاً كانت موجودة ومطبقة توارثاً في مجتمعات الإقليم التقليدية منذ زمن بعيد، وهذه من خدع الأنظمة الرجوعية المجربة لإستغفال الجمهور.

- رفض «الحداثة» الأصيلة والجوهرية، موقفاً فكرياً، لصالح القبول بـ«التحديث»، بديلاً وغطاءً إستهلاكياً عينياً مجسداً في المظاهر الخارجية المنظورة للبنى السطحية، وليس عبر البنى الإجتماعية والتربوية والثقافية العميقة.

- صناعة وإزالة الأعداء، من آن لآخر وعلى نحو متواصل بهدف التعبئة، وأحياناً، بهدف العسكرة والتعبئة الإجتماعية على نحو لا نهائي لتبرير غياب العدالة والرفاه وحكم القانون، الأمر الذي تطلب التسويق بواسطة فرض قوانين الطوارئ والأحكام العرفية التي سبق ذكرها، ناهيك عن توظيف هذه التعبئة لهدر الأموال العامة بشراء ما لا حاجة للمجتمع به من أسلحة من العالم الغربي بهدف رشوته والتقرب إليه.

- تسويغ إهمال حقوق الأقليات الإثنية والدينية بوصفها جماعات إجتماعية غير أساسية لا حول ولاقوة لها، جماعات تستأهل الحماية والوصاية والإرشاد، الأمر الذي يلقي الضوء على ظواهر الهجرة والنزوح الجماعي لهذه الأقليات باتجاه دول علمانية حيث يقيم الإنسان كما هو، وليس على اساس الدين واللون والجنس والإثنية.

- تغيير وتحوير البرامج والمناهج التربوية لتتطابق مع منظور أو فلسفة (إن وجدت ثمة فلسفة) الجماعة المهيمنة على السلطة.

- السماح لشكل مشوه من «السوق الحرة» بامتطاء الإقتصاد المحلي على نحو يتوافق مع المصالح الضيقة ومع الإستغلال العشوائي الأناني وغير المخطط لثروات الدولة من قبل الأنظمة الشمولية.

- تشجيع روح الغوغاء والإستخدام الخاطئ لها، سلاحاً ذا حدين، من آن لآخر وعلى نحو يعكس تفضيل ولاة الأمر له على النظام والإلتزام المنضبط بالقوانين، وقد برهنت هذه الروح على أنها ذاتية التدمير لهذه

الأنظمة نفسها لأن الغوغاء يمكن إنقيادهم بيسر وقلبهم ضد هذا النوع من الأنظمة القصيرة النظر، كما حدث في عدة حالات بعد إنفلات الأمن.

- الحنين المعوق لماضٍ ساحر يشبه عالم (الف ليلة وليلة)، ماض فنطازي يحط من شأن المرأة ويسيء تقديم النساء ككائنات سكونية، ثانوية الدور، مقارنة بالرجال وبفاعلية شهواتهم، الأمر الذي يلقي الضوء على إحتفاظ الرجل الأسمر باليد العليا في العائلة، أباً أو أخاً أو زوجاً، بل وحتى إبناً، على سبيل الإقلال من إنسانية المرأة وحصرها في شؤون البيت بوصفها كائناً ضعيفاً يستجيب للإغواء والإستغفال والخداع بـ«طبيعته». يمكن لهذه النظرة الهابطة للنسوة أن توضح لماذا يعد الشرق الأوسط من أكثر الأقاليم في العالم في إرتفاع نسب الإصابات بفايروس «الإيدز»، من بين سواه من الأمراض التناسلية والزهرية.

- فرض وإدامة بيئة ثقافية وإجتماعية وحيدة الجانب تشجع وتغذي الأصولية الدينية على نحو معاكس ومتنافر بشدة مع مسيرة العلمنة المتواصلة للدولة الموجودة عبر أقطار العالم المختلفة، إعتماداً على مبدأ فصل الدين عن الدولة، وعلة ذلك هو أن الدكتاتوريات غالباً ما ترمي لأن تتوج رؤوساً للسلطتين الدينية والزمنية في آن واحد. فقط في هذا الإقليم يعد الإنسان «العلماني» متهماً أو بأنه «غير صادق» أو «كافراً» أو «ملحداً».

- إحياء وتشجيع القيم القبلية البدوية التي كانت قد تبلورت قديماً كشكل ضروري لوجود إجتماعي بلا دولة «في القفار» حيث يستقيم العدل بواسطة الفرد أو أقاربه، عبر ممارسات الثأر والإنتقام، حيث يكرم الرجل لقتله أختاً أو إبنة لو اكتشف بأن لها علاقة عاطفية بغريب، أي

من «قبيلة» أخرى، الأمر الذي يلقي الضوء على تجاوز القانون وسيادة العصبية القبلية، زيادة على تجاهل قوات فرض النظام فيما يسمى بـ«جرائم غسل العار»، نظراً لعد الشرف مسألة علاقات جنسية فقط، وليس مسألة سلوك ونبل وأخلاق.

- بقاء وتوسع المفهوم الإقطاعي الخاطئ للدولة، ذلك المفهوم الذي أطلق أيادي الطاغية وطغمته باعتبارهم مالكي الأرض وما عليها أو ما تحت سطحها، برغم حقيقة أن هذا الطاغية معفي مما يسمى بواجبات أو «فروض النبل» الخاصة بالإقطاع القديم الحق في القرون الوسطى.
- الإهمال الواضح للصناعات وللطرائق الحديثة في الزراعة بسبب الإعتماد على فوائض الثروة المستخلصة من ضخ مدخولات النفط وسواه من الموارد الطبيعية، الأمر الذي شجع النزعة الإستهلاكية غير المبالية على حساب الإنتاجية والإبداع.
- وأخيراً وليس آخراً، نهب الأنظمة الرجوعية لطاقات الشعب المحررة بما يسمى بانتفاضات «الربيع العربي» في سياق خطة مهيأة مسبقاً لتصدير التذمر الداخلي والإحتجاج المدني نحو دول إقليمية أخرى في الشرق الأوسط حيث يصعب حل مشاكل زيادة السكان دون مساعدات ودعم ذي مصالح سياسية.

هوامش الكتاب

هوامش الفصل الثاني:
التسمية: زي أوروبا الموحد

(١) Raymond Schwab, *The Oriental Renaissance: Europe's Rediscovery of India and the East, 1680-1880*, trans. G. Patterson-Black and V. Reinking (N.Y.: Columbia University Press, 1984), p.11.

(٢) Matthew Arnold, *Culture and Anarchy* (Oxford: OUP, 2006), pp.95-120.

(٣) Ralph Waldo Emerson, *The Complete Works of Ralph Waldo Emerson*, vol. X (Boston: Houghton, Mifflin and Company, 1904), p. 177.

(٤) John Henry Newman, *The Idea of a University* (New Haven: Yale University Press, 1996), p. 176.

(٥) Quoted in Edward W. Said, *Orientalism* (London: Routledge & Kegan Paul, 1978), p. 102.

(٦) Karl Marx and Frederick Engels, *On Religion* (Moscow: Progress Publishers, 1985), p. 104.

(٧) *Ibid.*, p. 106.

(٨) en.Wikapedia.org/wiki/opium_of_people. Retrieved on Oct. 31, 2012. 162 *Muhammed Al Da'mi*

(٩) For an idea on the marsh Arabs of southern Iraq and their mode of social existence, consult: Fulanain, *Haji Rikkan: A Marsh Arab* (London: Chatto & Windus, 1927); and Gavin Young, *Return to the Marshes* (London: Hutchinson, 1977).

(١٠) Consult: Muhammed Al Dami "Morrirs' Idea of the East and His Anti-Colonial Attitudes" *Abhath Al-Yarmouk*, 4, no.2 (1986), pp. 47-58.

(١١) Harriet Martineau, *Eastern Life, Present and Past* (Philadelphia: T.K. and P. G. Collins, Printers, 1848), p. 498.

(١٢) A ustin H. Layard, *Nineveh and Its Remains*, vol. I. (London: John Murray, 1849), pp.360-4.

(١٣) (١٤) Bernard Lewis, *History: Remembered, Recovered, Invented* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1975), p. 100.

هوامش الفصل الثالث:
أي الطرق للشرق الأوسط

(١) For an idea on the globalizing role of Islam in history, consult: Muhammed Al Da'mi, *Islam and Globalization: The Arab-Islamic Response to the Outcomes of Globalization* (in Arabic), (Abu Dhabi: Emirates Center for Strategic Research and Studies, 2003).

(٢) John Henry Newman, *Historical Sketches*, vol. 1 (Westminster, Md.: Christian Classics, 1970), p. 210.

(٣) A surgeon specialized in removing testicles.

(٤) For an idea on the early disagreement between Shi'is and Sunnis, consult: Muhammed Al-Da'mi, *The Other Islam; Shi'ism: From Idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism* (Bloomington, IN: Authorhouse, 2012), pp. 45-73.

هوامش الفصل الرابع:

لعنة حلاق بغداد

(١) Consult: en.wikipedia/wiki/Der_Barbeir_von Baghdad. Retrieved on Nov. 10, 2012.

(٢) I n his *Social Glimpses from Iraq's Contemporary History*, the renowned scholar Ali al-Wardi provides his voluminous history with interesting stories of *walis* (viceroys) whom Istanbul posted to the three major provinces, *wilayât*, that were later combined by the British and French victors to make modern Iraq, Mosul, Baghdad and Basra. The above stories exhibit the inefficiency, moodiness and inexperience of the *walis* who tried to 'learn' the art of governing there, victimizing the powerless poor people. As presented by al-Wardi, they were mostly alien and irresponsible military men driven by momental emotions.

(٣) For an idea on this important period of Ottoman history, consult: William L. Cleveland, *A History of the Modern Middle East* (Boulder, CO.: Westview, 2004), pp. 81-202.

هوامش الفصل الخامس:

أي إله للشرق الأوسط: الطاغية ظل الإلوهية

(١) Consult: Thomas Carlyle, *On Heroes, Hero-Worship, and the Heroic in History (London: Collin's Clear-Type Press, ND), pp. 7-57.*

(٢) For an idea on the origins of the Shi'i incongruity with other Muslims in so far as the caliphate issue is concerned, consult: Muhammed Al Da'mi. *The Other Islam; Shi'ism: From Idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism* (Bloomington, IN.: Authorhouse, 2012), pp. 74-83.

(٣) *Ibid.*, pp. 82-3.

(٤) See: www/leftcurve.org/LC23web pages/suleyman html. Retrieved on October 11, 2012.

(٥) Moojan Momen, *An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism* (New Haven: Yale University Press, 1985), p. 76.

(٦) William F. Tucker, *Mahdis and Millenarians: Shi'ite Extremists in Early Muslim Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), p. 134.

(٧) Consult: Samir al-Khalil, *The Republic of Fear: The Inside Story of Saddam's Iraq* (N.Y.: Pantheon Books, 1989), pp. 198-201.

(٨) Quoted in Everett Crosby and Charles Webb meds., *The Past as Prologue*, vol. 1 (N.Y.: Appleton-Century-Crofts, 1973), p. 8.

هوامش الفصل السادس:
الدولة نقيض للثقافة

(١) This word is derived from the Arabic *shaykh*, meaning tribal chieftain in this context; it also means a Muslim cleric in a different context.

(٢) Consult: Hani Wheib, *Saddam Hussein: The Thinker Leader*, (in Arabic) (Baghdad: Dar al-Nedhâl, 1994).

(٣) R oger Allen, *An Introduction to Arabic Literature* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp. 84-90.

(٤) H amid Dabashi, *Shi'ism: A Religion of Protest* (Cambridge: The Belkanp Press of Harvard University Press, 2011), p. 288.

(٥) See: Samir al-Khalil, *The Republic of Fear: The Inside Story of Saddam's Iraq* (N.Y.: Pantheon Books, 1989).

(٦) This adjective is derived from the Arabic word *al-shu'ubiyyah*, consult: Allen, p. 37.

(٧) On Wikipedia.org/wiki/The-wandering-Jew. Retrieved on November 18, 2012.

(٨) www.alarabiya.net. Retrieved on October 17, 2012.

هوامش الفصل السابع:

لصوص بغداد: الدولة مضاد للمعارضة

(١) Thomas Carlyle, *Past and Present* (NY: New York University Press, 1965), pp. 72-8 and 98-102.

(٢) For an idea on Carlyle's theory of the hero, consult: B. H. Lehman *Carlyle's Theory of the Hero* (Durham, N.C.: Duke University Press, 1928).

(٣) Consult: Muhammed Al-Da'mi, *The Other Islam; Shi'ism: From idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism* (Bloomington, IN.: Authorhouse, 2012), pp. 74-103.

(٤) For an important discussion of the use of fear in Iraq under the Ba'th regime (1968-2003), consult: Samir al-Khalil, *The Republic of Fear: The Inside Story of Saddam's Iraq* (NY: Pantheon Books, 1989), pp. 58-72.

(٥) Iraqis recall the words 'Ali Baba' bitterly because in the aftermath of the invasion of Iraq (2003), unidentified individuals embedded with the invading troops used to unlock governmental warehouses, offices and other public facilities and call on the hungry and vengeful mob to loot whatever was inside such premises. The echoing call was 'Ali Baba', a name derived from the *Arabian Nights*.

(٦) Consult: Marti Gilbert, *The Atlas of Jewish History* (NY: William Morrow & Company, 1993), pp. 90-140. See also: www. jewishideas daily.com/892/features/ remember the farhoud. Retrieved on October 17, 2012.

هوامش الفصل الثامن:
مسيرة العقل المستعرجة

(١) The problems arising from the Middle-Eastern conception of modernity with reference to European influences and educational systems, have been impressively discussed in: Abdullah Laroui, *The Crisis of the Arab Intellectual: Traditionalism or Historicism* (Los Angeles: University of California Press, 1976).

(٢) Ralph Waldo Emerson, The Complete Works of Ralph Waldo Emerson, vol. X (Boston: Houghton, Mifflin and Company, 1904), p. 177.

(٣) For a sociologically significant discussion of the 'puzzling' gulf between tribal semi-Bedouin modes of existence and their urban opposites, consult: Robert A. Fernia, *Shaykh and Effendi: Changing Patterns of Authority Among the El Shabana of Southern Iraq* (Cambridge: Harvard University Press, 1970).

هوامش الفصل التاسع:
قلب رحلة كولومبس

(١) This generalization is not to obscure the fact that early American poets and imaginative prose writers did use Arab-Islamic materials to address contemporary domestic issues. This is true of Emerson and of a host of early American writers, including the transcendentalists. For an earlier and more didactic use of Arabic and Islamic materials, one should consult Washington Irving infatuation's with such materials. For an analysis of Irving's works on these topics, consult: Muhammed Al Da'mi, *Arabian Mirrors and Western Soothsayers: nineteenth-Century Literary Approaches to Arab-Islamic History* (NY: Peter Lang, 2002).

(٢) Consult: Beongcheon Yu, *The Great Circle: American writers and the Orient* (Detroit: Wayne State University Press, 1983), pp. 20-22.

(٣) *Ibid.*, p. 21.

(٤) Consult: Dorothee M. Finkelstein, *Melville's Orienda* (New Haven: Yale University Press, 1961).

(٥) A l Da'mi, pp. 129-148.

(٦) *Ibid.*, pp. 149-174.

(٧) For an interesting analysis of the American twentieth-century media coverage of the regional events, consult: Jack G. Shaheen, *The T.V. Arab* (Bowling Green: Bowling Green State Univ. Press, 1984). Also relevant is: Edward W. Said, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World* (NY Pantheon Books, 1981).

(٨) This article has been emailed to the author on September 19, 2012 as a "sample article" by "Stratfor, Global Intelligence" in 7 pages.

(٩) Quoted in Muhammed Al Da'mi, *Arabian Mirrors and Western Soothsayers: Nineteenth-Century Literary Approaches to Arab-Islamic History* (NY: Peter Lang Publishing, 2002), p. 19.

هوامش الفصل العاشر:

إحتلال العراق والثقافة المحلية: إسلاميون وقوميون وليبراليون

(١) Ala'uddin al-Mudaris, *Tales of the Fire Sparrow: Inspired by Falujah, Najaf and Halabja* (Baghdad: no publisher indicated, 2005), p. 88. Translations and transliterations of subsequent Arabic titles and texts are mine.

(٢) *Ibid.*, p. 88.

(٣) *Ibid.*, p. 104.

(٤) *Ibid.*, p. 80.

(٥) A la'uddin al-Mudaris, *Echo of the Storming War* (Baghdad: Darul Raqeem, 2004), p. 15.

(٦) *Ibid.*, pp. 15 and 235.

(٧) *Ibid.*, pp. 132-138.

(٨) *Ibid.*, p. 169.

(٩) *Ibid.*, p. 172.

(١٠) (١١) *Ibid.* p., 199.

(١٢) *Ibid.*, p. 218.

(١٣) *Ibid.*, pp. 239-249.

(١٤) Ahmed Khayri al-Umari, *The Night Baghdad Fell: The Lost and the Born in a History That Left without Retuning* (Beirut: Arrisalah Foundation Publishers, 2004), pp. 7-9.

(١٥) *Ibid.*, pp. 194-5.

(١٦) *Ibid.*, p. 249.

(١٧) *Ibid.*, p. 269.

(١٨) *Ibid.*, p. 267.

(١٩) *Ibid.*, pp. 389-391.

(٢٠) *Ibid.*, p. 393.

(٢١) *Ibid.*, p. 392.

(٢٢) Judge Nabeel Abdul-Rahman Hayawi, *Baghdad is in Pain: The Diaries of an Iraqi Family from Steadfastness to the Downfall* (Beirut: Darul Qalam, N.D.), p. 8.

(٢٣) *Ibid.*, pp. 20-1.

(٢٤) *Ibid.*, p. 39.

(٢٥) *Ibid.*, pp. 45 and 128.

(٢٦) *Ibid.*, p. 60.

(٢٧) *Ibid.*, p. 153.

(٢٨) *Ibid.*, p. 220.

(٢٩) *Ibid.*, pp. 221-3.

(٣٠) *Ibid.*, p. 225.

(٣١) *Ibid.*, p. 224.

(٣٢) Ahmed Khayri al-Umari, *Paradise Borrowed and Paradise Regained: Fixtures and Pillars for a New Civilization Choice* (Damascus: Darul Fikre, 2006), pp. 36-7.

(٣٣) *Ibid.*, p. 37.

(٣٤) *Ibid.*, p. 17.

(٣٥) *Ibid.*, pp. 29 and 33.

(٣٦) *Ibid.*, p. 32.

(٣٧) *Ibid.*, p. 35.

(٣٨) *Ibid.*, p. 36.

(٣٩) *Ibid.*, p. 46.

(٤٠) *Ibid.*, p. 59.

(٤١) *Ibid.*, pp. 66-75.

(٤٢) *Ibid.*, p. 79.

(٤٣) *Ibid.*, p. 264.

(٤٤) *Ibid.*, p. 513.

(٤٥) *Ibid.*, pp. 547-566.

(٤٦) *Ibid.*, pp. 547-553.

(٤٧) Hasan Khalil Gharib, *American Organized Crime in Iraq* (Beirut: Darul Tali'a, 2006), title page.

(٤٨) Muhammed Assaid Idris, "Threats of Iraqi Future Between the Political Process and Resistance", *al-Mustaqbal al-Arabi*, no. 326 (April,2006), pp. 30-1.

(٤٩) *Ibid.*, pp. 37 and 46.

(٥٠) *Ibid.*, pp. 46-7.

(٥١) Khayruddin Haseeb, "Iraq: Where to", *al-Mustaqbal al-Arabi*, no. 327 (May, 2006), p. 6.

(٥٢) *Ibid.*, p. 26.

(٥٣) *Ibid.*, pp. 24-6.

(٥٤) *Ibid.*, p. 12.

(٥٥) *Ibid.*, p. 16.

(٥٦) *Ibid.*, pp. 18-22.

(٥٧) *Ibid.*, pp. 24-6.

(٥٨) Ubeida Faris, "A Report on the Conference on Academic Liberties in Iraqi Universities", *al-Mustaqbal al-Arabi,* no. 327 (May, 2006), p. 203.

(٥٩) Dhafir Muhammed al-Ajmi, *Arabian Gulf Security: Its Development and Problems* (Beirut: Center for Arab Unity Studies, 2006), p. 4.

(٦٠) Hasan Ubeid Isa, "The New Mercenaries", *al-Mustaqbal al-Arabi*, no. 328 (June, 2006), pp. 140-1.

(٦١) *Ibid.*, pp. 142 and 146-7.

(٦٢) Muhammed Aduri, *The Game is Over,* George Farshakh, ed. (Beirut: Arab Cultural center, 2004), p. 12.

(٦٣) *Ibid.*, pp. 15 and 18.

(٦٤) *Ibid.*, p. 12.

(٦٥) *Ibid.*, pp. 14-15.

(٦٦) *Ibid.*, p. 81.

(٦٧) *Ibid.*, p. 36.

(٦٨) *Ibid.*, p. 82.

(٦٩) *Ibid.*, p. 94.

(٧٠) *Ibid.*, p. 102.

(٧١) *Ibid.*, p. 103.

(٧٢) *Ibid.*, pp. 106-7.

(٧٣) *Ibid.*, p. 120.

(٧٤) *Ibid.*, p. 176. It is significant to note that Aduri claims that all Muslims in USA, whether religious or not, are subject to observation by the security apparatus. He states: "Everyone who frequents the mosques, in the States, has actually, been exposed to police inquisition". This, according to him, has been strengthened by the Zionists who wish to impose terror on Muslim Americans. See: *ibid.*, pp. 218-9.

(٧٥) *Ibid.*, p. 179.

(٧٦) *Ibid.*, p. 183.

(٧٧) *Ibid.*, p. 183.

(٧٨) *Ibid.*, p. 183.

(٧٩) *Ibid.*, pp. 194-5.

(٨٠) Hasan al-Alawi, *American Iraq* (London: Zawra' Publishers, 2005), p. 10.

(٨١) *Ibid.*, p. 37.

(٨٢) *Ibid.*, pp. 21-26.

(٨٣) *Ibid.*, p. 121.

(٨٤) *Ibid.*, p. 74.

(٨٥) *Ibid.*, p. 118.

(٨٦) *Ibid.*, pp. 120-1.

(٨٧) *Ibid.*, p. 123.

(٨٨) *Ibid.*, p. 131.

(٨٩) *Ibid.*, p. 146.

(٩٠) *Ibid.*, p. 146.

(٩١) *Ibid.*, p. 146.

(٩٢) *Ibid.*, p. 147.

هوامش الفصل الحادي عشر:
إنتصار الماضي

(١) Muhammed Al Da'mi, *Feminizing the West: Neo-Islam's Concepts of Renewal, War and the State* (in Arabic) (Beirut: Arab Encyclopedia House, 2014).

(٢) The idea of the alternating cyclical pattern of Islamic history constitutes an essential argument in: Muhammed al Da'mi, *The Other Islam; Shi'ism: From Idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism* (Bloomington, IN: Authorhouse, 2012).

مصادر إضافية أخرى

* Abrahamian, Ervand. *Khomeinism: Essays on the Islamic Republic.* Berkeley: University of California Press, 1993.
* Ajami, Leila. *Women and Gender in Islam.* New Heaven: Yale University Press. 1992.
* Al Da'mi, Muhammed. "Morris' Idea of the East and His Anti-Colonial Attitudes", *Abhath Al-Yarmouk,* 4. No. 2 (1986), 47-58.
* _____. *Arabian Mirrors and Western Soothsayers: Nineteenth-Century Literary Approach to Arab-Islamic History. N.Y.: Peter Lang, 2002.*
* _____. "The Aryan Dimension of Arnold's Interest in the Arab-Islamic East", *Al-Mashriq*, vol. I., no, 2 (Sept., 2002), 24-30.
* _____. *Islam and Globalization: The Arab-Islamic Response to the Outcomes Of Globalization.* (in Arabic). Abu Dhabi: Emirates Center for Strategic Research and Studies, 2003.
* _____. *The Other Islam; Shi'ism: From Idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism.* Bloomington, IN.: Authorhouse, 2012.
* Algar, Hamid. *Wahhabism: A Critical Essay.* N.Y.: Oneonta, 2002.
* Allen, Roger. *An Introduction to Arabic Literature.* Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
* Allison, Graham. *Nuclear Terrorism: The Ultimate Preventable Catastrophe.* New York: Times Books, 2004.

* Arjomand, Said Amir. *The Shadow of God and the Hidden Imam.* Chicago: Univ. of Chicago Press, 1984.

* Arnold, Matthew. *Culture and Anarchy.* Oxford: OUP, 2006.

* Aslan Reza. *No God but God: The Origin, Evolution, and Future of Islam. New York: Random House, 2006.*

* Atwan, Abdel Bari. *The Secret History of al-Qaeda.* Berkeley: University of California Press, 2006.

* Bablawi, Hazem, and Luciani, Giacomo, eds. *The Rentier State.* London: Croon Helm, 1987.

* Baker, James A., and Lee H. Hamilton, Co-Chairs, *The Iraq Study Group Report: The Way Forward-A New Approach.* New York: Vintage Books, 2006.

* Barton, George A. *The Religions of the World.* Chicago: Univ. of Chicago Press, 1929.

* Beinin, Joel, and Strok, Joe. *Political Islam: Essays from Middle East Report.* Berkeley: University of California Press, 1997.

* Bell, Gertrude. *Great Britain and Iraq: An Experiment in Anglo-Asiatic Relations.* London: Round Table, published anonymously, 1924.

* _____. *The Arab War: Confidential Information for GHQ Cairo, Dispatches for The Arab Bulletin.* London: Golden Cockerel Press, 1940.

* _____. *The Desert and the Sown.* N.Y.: Cooper Square Press, 2001. Benjamin, Daniel, and Steven Simon. *The Age of Sacred Terror.* N.Y.: Random House, 2002.

* _____. *The Next Attack: The Failure of the War on Terror and a Strategy for Getting It Right.* N.Y.: Times Books, 2005.

* Bergen, Peter L. *Holy War, Inc: Inside the Secret World of Osama Bin Laden.* N.Y. Free press, 2001.

* Berlinski, Claire. *Menace in Europe: Why the Continent's Crisis Is America's Too.* N.Y.: Crown Forum Books. 2007.

* Bernsten, Gary, and Ralph Pezzulo. *Jawbreaker: The Attack on Bin Laden and al-Qaeda:A Personal Account by CIA's Key Field Commander.* N.Y.: Three Rivers Press, 2006.
* Blankley, Tony. *The West's Last Chance: Will We Win the Clash of Civilizations?* Washington, D.C.: Regnery Publications, 2005.
* Blunt, Lady Anne. *A Pilgrimage to Nejd, the Cradle of the Arab Race.* London: Century Travelers, 1885.
* Brockelmann, Carl. *History of the Islamic Peoples.* Trans. Carmichael & M. Perlmann, London: Routledge & Kegan Paul, 1980.
* Brynen, Rex, et al., eds. *Political Liberalization and Democratization in the Arab World.* Vol. 1: *Theoretical Perspectives.* Boulder, Colo.: Lynne Rienner, 1995.
* Burton, Richard. "Terminal Essay", in *The Book of the Thousand Night and Night,* vol. 8. London: H. S. Nicholas Ltd., 1897, 59-230.
* Carlyle, Thomas. *On Heroes, Hero-Worship, and the Heroic in History.* London: Collins' Clear-Type Press, N.D.
* Gilbert, Marti. *The Atlas of Jewish History.* N.Y.: William Morrow & Company, 1993.
* Clarke, Richard A. *Against All Enemies: Inside America's War on Terror. N.Y.: Free Press. 2004.*
* Cleveland, William *L.A. History of the Modern Middle East.* 3rd ed. Boulder, CO.: Westview, 2004.
* Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA: Afghanistan and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001.New York: Penguin, 2004.*
* Crone, Patricia, and Martin Hinds, *God's Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam.* Cambridge: Cambridge University Press, 1986.
* Farouk-Sluglett, Marion, and Sluglett, Peter. *Iraq Since 1958: From Revolution to Dictatorship.* London: Routledge Kegan & Paul, 1987.
* Elshtain, Jean Bethke. *Just War Against Terror: The Burden of American Power in a Violent World. N.Y.: Basic Books, 2003.*

* Emerson, Ralph Waldo. *The Complete Works of Ralph Waldo Emerson.* Boston: Houghton, Mifflin and Company, 1904.

* Finkelstein, Dorothee M. *Melville's Orienda.* New Haven: Yale University Press, 1961.

* Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: Creating the Modern Middle East. N.Y.: Henry Holt and Co., 1989.*

* Fukuyama, Francis. *The End of History and the Last Man.* N.Y.: Free Press, 2006.

* Fulanian. *Haji Rikkan: A Marsh Arab.* London: Chatto & Windus, 1977.

* Gerges, Fawwaz. *The Far Enemy: Why Jihad Went Global.* N.Y.: Cambridge University Press, 2005.

* Goldberg, Ellis, et al. *Rules and Rights in the Middle East: Democracy, Law, and Society.* Seattle: University of Washington Press, 1993.

* Gordon, Joel. *Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution. N.Y.: OUP, 1992.*

* Gramm, Kent. *Gettysburg: A Meditation on War and Values.* Bloomington: Indiana University Press, 1994.

* Grunebaum, G.E. Von. "Self-Image and Approach to History", *Historians of The Middle East.* London: OUP, 1962, 457-483.

* Habeck, Mary. *Knowing the Enemy: Jihadist Ideology and the War on Terror.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 2006.

* Halliday, Fred. *Islam and the Myth of Confrontation: Religion and Politics in the Middle East.* London: I. B. Tauris, 1996.

* Hammes, Thomas X., *The Sling and the Stone: On war in the 21st Century.* St. Paul, Minn.: Zenith Press, 2004.

* Hamud, Randall, ed. *Osama bin Laden: America's Enemy in His Own Words.* San Diego, Calif.: Nadeem Publishing, 2005.

* Heydemann, Steven, ed. *War, Institutions, and Social Change in the Middle East.* Berkeley: University of California Press, 2000.

* Hormats, Robert D. *The Price of Liberty: Paying for America's Wars.* N.Y.: Times Books, 2007.
* Hourani, Albert. *A History of the Arab People.* Cambridge: Harvard University Press, 1991.
* _____. *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939.* Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1983.
* Humphreys, R. Stephen. *Islamic History: A Framework for Inquiry.* Minneapolis: Biblioteca Islamica, 1988.
* _____. *Mu'awiya ibn Abu Sufyan: From Arabia To Empire.* Oxford: One World, 2006.
* Ibrahim, Raymond. *The Al-Qaeda Reader.* N.Y.: Broadway Books, 2007.
* Jackson, Roy. *Fifty Key Figures in Islam.* London: Routledge, 2006.
* Keddie, Nikki. *Religion and Politics in Iran: Shi'ism from Quietism to Revolution.* New Haven, CT: Yale Univ. Press, 1984.
* Khalil, Samir. *The Republic of Fear.* N.Y.: Pantheon Books, 1989.
* Kramer, Martin. *The Unthinkable Revolution in Iran.* Cambridge: Harvard University Press, 2004.
* Krueger, Alan B. *What Makes a Terrorist: Economics and the Roots of Terrorism.* Princeton: Princeton University Press, 2007.
* Lawrence, Bruce, ed. *Messages to the World: The Statements of Osama bin Laden.* London: Verso, 2005.
* Lawrence, T.E., *The Seven Pillars of Wisdom.* London: Jonathan Cape, 1926.
* Layard, Austin H. *Nineveh and Its Remains.* Vol. I. London: John
* Murray, 1849.
* Lehman, B.H. *Carlyle's Theory of the Hero.* Durham, N.C.: Duke
* Univ. Press, 1928.
* Lesch, David W. *The Middle East and the United States: A Historical*
* and Political Reassessment. Boulder, CO.: Westview Press, 1999.

* Lewis, Bernard and P.M. Holt, eds. *Historians of the Middle East.* London: OUP, 1962.

* Lewis, Bernard. *Islam in History: Ideas, Men and Events in the Middle East.* London: Alcove. 1973.

* _____. *History: Remembered, Recovered, Invented.* Princeton: Princeton Univ. Press, 1975.

* _____. *What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response.* N.Y.: Oxford University Press, 2002.

* Louis, William Roger. *The British Empire in the Middle East: 1945-1951: Arab Nationalism, the United States, and Postwar Imperialism.* Oxford: Clarendon Press, 1984.

* Lowell, Thomas. *With Lawrence in Arabia.* London: Hutchinson, 1994.

* Lukitz, Liora. *A Quest in the Middle East: Gertrude Bell and the Making of Modern Iraq.* London: I.B. Tauris, 2006.

* Macaulay, Thomas B. *Speeches by Lord Macaulay with His Minute on Indian Education.* Ed. G.M. Young. London: O.U.P., 1935.

* Maier, Charles S. *Among Empires: America's Ascendancy and Its Predecessors.*

* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2006.

* Malley, Robert. *The Call from Algeria: Third Worldism, Revolution, and the Turn to Islam.* Berkeley: University of California Press, 1996.

* Mann, James. *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet.* N.Y.: Penguin, 2004.

* Martineau, Harriet. *Eastern Life, Present and Past.* Philadelphia: T.K. and P.G. Collins, Printers, 1848.

* Marx, Karl and Frederick Engels. *On Religion.* Moscow: Progress Publishers, 1985.

* McCarthy, Andrew C. *The Grand Jihad: How Islam and the Left Sabotage America.* N.Y.: Encounter Books, 1997.

* McDougall, Walter A. *Promised land, Crusader State: The American Encounter With the World Since 1776.* N.Y.: Houghton Mifflin, 1997.
* Mead, Walter Russell. *Power, Terror, Peace, and war: America's Grand Strategy in a World at Risk. New York: Alfred A. Knopf, 2004.*
* Meistrich, Ira. "Iraq: The Birthplace of Civilization and War", *Al-Mashriq,*10, no. 4 (March, 2012), 95-104.
* Migdal, Joel S. *Strong Societies and Weak States: State-Society Relations and State Capabilities in the Third World. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1988.*
* Moussavi, A. K. *Religious Authority in Shi'ite Islam: From the Office of Mufti to The Institution of Marja'.* Kuala Lampur: International Institute of Islamic Thought and Civilization, 1996.
* Momen, Moojan. *An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism.* New Haven: Yale University press, 1985.
* Najmabadeh, Afsaneh. "Iran's Turn to Islam: From Modernism to a
* Moral Order", *The Middle East Journal.* 41 (1987), 202-17.
* Nakash, Yitzhak. *The Shi'is of Iraq.* Princeton: Princeton University Press, 1995.
* Nasiri Omar: *Inside the Jihad: My Life With al-Qaeda: A Spy's Story.* N.Y.: Basic Books, 2006.
* Nasr, Seyyed Vali. *The Shi'ite Revival: How Conflicts within Islam Will Shape the Future.* N.Y.: W.W. Norton, 2007.
* Newmn, John Henry, *Historical Sketches.* Vol. I. Westminster, Md.: Christian Classics, 1970.
* _____. *The Idea of a University.* New Haven: Yale University Press, 1990.
* Nye, Joseph. *Soft Power: The Means to Success in World Politics.* New York: Public Affairs, 2005.
* Owen, Roger, and Pamuk, Sevket. *A History of Middle East Economics in the Twentieth Century.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1999.

* Patai, Raphael. *The Arab Mind.* N.Y. Scribners, 1973.

* Petham, Nicolas. *A New Muslim Order: The Shi'a and the Middle East.* London: I.B. Tauris, 2008.

* Richards, Alan, and Waterbury John. *A Political Economy of the Middle East.* Boulder, CO.: Westview Press, 1998.

* Robinson, Chase F. *Islamic Historiography.* Cambridge: Cambridge University Press, 2003.

* Ruthven, Malise. *Islam in the World.* Oxford: OUP, 2000.

* Pape, Robert A. *Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism.* N.Y.: Random House, 2005.

* Phillips, Melanie. *Londonistan.* N.Y.: Encounter Books, 2006.

* Reeve, Simon. *The New Jackals: Ramzi Yousef: Osama Bin Laden, and the Future of Terrorism.* Boston: Northeast University Press, 1999.

* Richardson, Louise. *What Terrorists Want: Understanding the Enemy, Containing the Threat.* N.Y.: Random House, 2006.

* Sageman, Marc. *Understanding Terror Networks.* Philadelphia, Penn.: University Of Pennsylvania Press, 2004.

* Said, Edward W. *Orientalism.* London: Routledge & Kegan Paul, 1978.

* Scheuer, Michael F. *Imperial Hubris: Why the West Is Losing the War On Terrorism. Dulles, Va.: Potomac Books, 2004.*

* _____. *Marching Toward Hell: America and Islam After Iraq.* N.Y: Free Press, 2008.

* Schwab, Raymond. *The Oriental Renaissance Europe's Rediscovery of India and The East, 1680-1880.* Trans. G. Patterson-Black and V.

* Reinking. N.Y.: Columbia Univ. Press, 1984.

* Shanhan, Rodger. *The Shi'a of Lebanon: Clans, Parties and Clerics.* London: I.B. Tauris, 2005.

* Steyn, Mark. *America Alone: The End of the World as We Know It.* Washington D.C.: Regnery Publishers, 2006.

* Stowasser, Barbara Freyer, ed. *The Islamic Impulse.* Washington, D.C.: Center for Contemporary Arab Studies, 1989.

* Trip, Charles. *A History of Iraq.* Cambridge: The Cambridge Univ. Press, 2007.

* Van Creveld, Martin. *The Changing Face of War: Lessons of Combat From The Marne to Iraq.* N.Y.: Ballanyine Books, 2006.

* Webster, Alexander F. C., and Darrel Cole. *The Virtue of War: Reclaiming the Classic Traditions East and West.* Salisbury, Mass.: Regina Orthodox Press, 2004.

* Wedeen, Lisa. *The Ambiguities of Domination: Politics, Rhetoric, and Symbols in Contemporary Syria.* Chicago: University of Chicago Press, 1999.

* Weigel, George. *The Cube and the Cathedral: Europe, America, and Politics Without God.* N.Y.: Basic Books, 2005.

* Wheatcroft, Andrew. *Infidels: A History of the Conflict between Christendom and Islam.* N.Y.: Random House, 2004.

* Wheib, Hani. *Saddam Hussein: The Thinker Leader.* (in Arabic). Baghdad: Dar Al-Nedhal, 1994.

* Wilson, A. T. *Loyalties Mesopotamia: A Personal and Historical Record. N.Y.: Greenwood Press, 1930.*

* Woodward, Bob. *Bush at War.* N.Y.: Simon and Schuster, 2002.

* Ye'or, Bat. *Eurabia: The Euro-Arab Axis.* Madison, N.J.: Farleigh Dickinson University Press, 2005.

* Young, Gavin. *Return to the Marshes.* London: Hutchinson, 1977.

* Yu, Beongcheon. *The Great Circle: American Writers and the Orient.* Detroit: Wayne State University Press, 1983.

* Zakaria, Rafiq. *The Struggle Within Islam: The Conflict Between Religion and Politics.* London Penguin, 1988.

* Zubaida, Sami. *Islam, the People, and the State: Political Ideas and Movements in the Middle East.* London: I. B. Tauris, 1993.
* Aduri, Muhammed. *The Game is Over.* Beirut: Arab Cultural Center, 2004.
* al-Ajmi, Dhafir Muhammed. *Arabian Gulf Security: Its Development and Problems.* Beirut: Center for Arab Unity studies. 2006.
* al-Alawi, Hasan. *American Iraq.* London: Zawra' Publishers, 2005.
* Faris, Ubeida. "A report on the Conference on Academic Liberties in Iraqi Universities", al-Mustaqbal al-Arabi, no. 327 (April, 2006). 50-76.
* Gharib, Hasan Khalil. *American Organized Crime in Iraq.* Beirut: Darul Tali'a, 2006.
* Hayawi, Nabeel Abdul Rahman. *Baghdad is in Pain: The Diaries of an Iraqi Family from Steadfastness to the Downfall.* Beirut: Darul Qalam, ND.
* Idris, Muhammed Assaid. "Threats of Iraqi Future Between the Political Process and Resistance", al-Mustaqbal al-Arabi. No. 326 (April, 2006). 6-24.
* Isa, Hasan Ubeid. "The New Mercenaries", al-Mustaqbal al_Arabi, no. 228 (June, 2006). 140-60.
* al-Mudaris, Ala'uddin. *Echo of the Storming War.* Baghdad: Dar al-Raqeem, 2004.
* Tales of the Fire Sparrow: Inspired by Faluja, Najaf and Halabja. Baghdad: No publisher indicated, 2005.
* al-Umari, Ahmed Khayri. *The Night Baghdad Fell: The Lost and the Born in a History that Left Without Returning.* Beirut: Arrisalah Foundation Publishers. 2004.
* _____. *Paradise Borrowed and Paradise Re-gained: Fixtures and Pillars for a New Civilization Choice.* Damascus: Darul Fikr. 2006.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الإهداء ٥

تمهيد ٧

الفصل الأول: المقدمة أم المفارقات: على أعتاب حلم عبثي ١١

الفصل الثاني: المفارقة الأولى التسمية: زي أوروبا الموحد ٢١

الفصل الثالث: المفارقة الثانية: أي الطرق للشرق الأوسط ٣٩

الفصل الرابع: المفارقة الثالثة: لعنة حلّاق بغداد ٥٥

الفصل الخامس: المفارقة الرابعة: أي إله للشرق الأوسط: الطاغية ظل الإلوهية ٦٧

الفصل السادس: المفارقة الخامسة: الدولة نقيض للثقافة ٨١

الفصل السابع: المفارقة السادسة: لصوص بغداد: الدولة مضاد للمعارضة ٩٩

الفصل الثامن: المفارقة السابعة: مسيرة العقل المتعرجة ١١٥

الفصل التاسع: المفارقة الثامنة: قلب رحلة كولومبس ١٣٥

الفصل العاشر: المفارقة التاسعة: إحتلال العراق والثقافة المحلية: إسلاميون وقوميون وليبراليون ١٥٣

الفصل الحادي عشر: الخاتمة إنتصار الماضي: تفاعلات البترودولار والإسلام الجديد ١٧٥

هوامش الكتاب ١٩٣
هوامش الفصل الثاني: التسمية: زي أوروبا الموحد ١٩٥
هوامش الفصل الثالث: أي الطرق للشرق الأوسط ١٩٧
هوامش الفصل الرابع: لعنة حلاق بغداد ١٩٨
هوامش الفصل الخامس: أي إله للشرق الأوسط: الطاغية ظل الإلوهية ١٩٩
هوامش الفصل السادس: الدولة نقيض للثقافة ٢٠٠
هوامش الفصل السابع: لصوص بغداد: الدولة مضاد للمعارضة ٢٠١
هوامش الفصل الثامن: مسيرة العقل المتعرجة ٢٠٢
هوامش الفصل التاسع: قلب رحلة كولومبس ٢٠٣
هوامش الفصل العاشر: إحتلال العراق والثقافة المحلية:
إسلاميون وقوميون وليبراليون ٢٠٥
هوامش الفصل الحادي عشر: إنتصار الماضي ٢٠٩
مصادر إضافية أخرى ٢١١
فهرس المحتويات ٢٢١

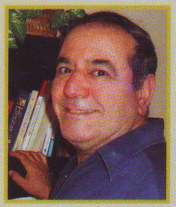

أ. د. محمد الدعمي

• مواليد ١٩٥٥ عمل أستاذاً في المؤسسات الأكاديمية العراقية والعربية والأميركية أكثر من ٢٧ سنة، تسنم خلالها مناصباً إدارية وعضويات اللجان العلمية.

• حضر الدعمي وحاضر في عدد كبير من المؤتمرات العلمية، زيادة على إسهاماته البحثية التي تجاوزت خمسة كتب باللغة العربية وخمسة كتب باللغة الإنكليزية، زيادة على عشرات الأبحاث المنشورة باللغتين في مجلات محكّمة عالمية وعربية.

• له مساهمات أسبوعية في الصحافة العربية و مقابلات عديدة مع وسائل الإعلام العالمية والعربية والمحلية.

ISBN 978-614-424-220-9